# الرحلة الجوية

## في المركبة الهوائية

وهي رحلة من شرقي افريقية الى غربيها

قد باشرها ثلاثة رجال انكليز قصدًا في اكتشاف

الاماكن المجهولة

منقولة عن كتاب يوليوس ورن الفرنسي

بقلم يوسف اليان سركيس تلميذ مدرسة الآباء اليسوعيين

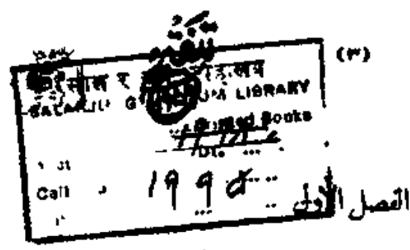
في بيروت

طبعة ثانية مصححة




مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

في بيروت سنة ١٨٨٤



## الفصل الأول

في مقصد العلامة فرغوسن ووقوع المباحثة عنهُ

لما كان اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني سنة الف وثمانمائة واثنين وستين اذاعت الصحيفة الانكليزية المعروفة باسم دالي تلغراف النبذة الآتي ذكرها

انهُ عن قريب ستنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون افريقية واقفارها الشاسعة من الاسرار والخبايا والكنوز والخفايا وقد طالما جدَّ في اكتشافهِ العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول الى تلك الاقاليم والبطاح وفي الايام السالفة كان يُعدُّ ضربٌ من الجنون والخرافات التشجع للرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل

فالعلامة برث رحل الى بلاد السودان في الطريق التي سلكها دنهام وكلابرتون وبحث العلامة ليونكستن عن احوال بلاد افريقية من رأس الرجاء الصالح الى بحر الزمبزي واما القبطانان بُرتون واسبيك فاكتشفا البحيرات العظيمة الداخلة وبذلك فتحا سبيلاً لنشر راية التمدن في تلك الاقطار حيث ترفرف الى الان اجنحة ظلام الجهل الدامس . اما قلب افريقية فهو القطر الواقع ما بين البحيرات المومأ اليها وذلك لم يتمكن سائحٌ من الولوج فيه وبهِ تنوط الامال

فقد صمم العلامة صاموئيل فرغوسن احد السياح الشهيرين على ان

يفك عقدة الرحلات السابقة باقدامهِ على اكتشاف قلب افريقية من الشرق الى الغرب في المركبة الهوائية وبلغنا ان صعود فرغوسن الى الفسحات الجوية يكون من جزيرة زنجبار عند الساحل الشرقي اما نزولهُ الى الارض ففي تقدير الله سبحانهُ وتعالى وهو يهديهِ الى حيث يشاء

وقد عُرضت هذه المسألة نهار البارح في الجمعية الجغرافية الملوكية في لندرة وقرّ رأي اعضائهـا على بذل الفين وخمسمائة ليرة انكليزية لمصاريف هذه الرحلة الجوية

وسنطلع قراء صحيفتنا ان شاء المولى على وقائع هذه السفرة التي لم يسبق لها مثيل . اه

فلما انتشرت هذه البـدة قام الجدال على قدم وساق بهذا الخصوص وظنّ الكثيرون ان مقصد العلامة فرغوسن ضرب من الخرافة والحكايات اشبه بهِ بنوم الاميركاني الشهيرة حزعبلاتهُ وغرائبهُ المضحكة

ثم اخذت بعض الصحف تستهزئ بجمعيـة لندرة الجغرافية وتسخر بما جاء عن فرغوسن ورحلتهِ الجوية في المركبة الهوائية فنهضت صحيفة المانية واجبرت المياومات المذكورة على السكوت لان احد مديريها كان يعرف العلامة فرغوسن ومناقبهُ العجيبة وجراءتهُ الغريبة

وما مضت برهة الّا وقع برقع الشك عن اعين النـاس وأُوعز الى معمل ليون ان يشتغل قماشاً حريرياً خاصاً بالقبة الهوائية وامرت الحكومة الانكليزية بان تقام تحت امر فرغوسن السفينة المعروفة باسم ريزولوت ليركبها ويقل عليها لوازم سفره

وقد اذاعت من ثم المياومات عدة كلاماً كثيراً عن هذا المشروع الغريب فمنها ما تنبأَت على نجاحهِ وفلاحهِ ومنها ما هزأَت بفرغوسن وارائهِ ومركبتهِ ومنها

ما اشارت عليهِ ان يندفع بمركبتهِ الهوائية الى الاقطار الاميركانية وذلك بنيـة الهزء والسخرية

ولا حاجة اذكر جميع آراء كتاب الجرائد بهذا الشـان بل نقول انهُ قد تشارط اقوام كثيرون بعضهم بين بعض حسب عادة الانكليز اولًا على وجود العلامة فرغوس الحقيقي او الوهمي . ثانيًا على الرحلة ذاتها اذا كانت تُباشر او لا تُباشر . ثالثًا على نجاحهِ في مشروعهِ او فشلهِ . رابعًا على رجوعهِ او بقـائهِ في تلك الاقطار الشاسعة واودعوا مبالغ عظيمة تنفيذًا لهذه الشروط

ولذلك رأيت الناس جميعًا من العامة والخاصة شاخصين ومحدقين الابصار بذلك الانسان العجيب الذي يتجـاسر على المرور باواسط افريقية ومفاوزها الهائلة وكثيرون هم الذين اقبلوا عليهِ وارادوا الاشتراك معهُ في رحلتهِ فابى ان يقبل احدًا دون ان يعطي سببًا عن رفضـهِ ومن المعلمين الماهرين في صنع الالات وغيرها من ارادوا ان يفهموه عن اشكال مركباتهم الهوائيـة ليتخذها اساسًا لهُ فابى ان يصغي لاحدٍ وكان مهتمًا بشغلهِ ويتأهب للرحيل

## الفصل الثاني

### في صاحب العلامة فرغوس وصداقته معه على التمام وفي ذلك فوائد

وكان للعلامة ساموئيل فرغوس صاحب حميم محمول على اطباعهِ وعلائقهِ وينحو نحوه في جميع مآربهِ وهو من بلاد إسكتسيا يقال لهُ ديك كنادي وكان يقطن مدينة ليط بقرب ايدمبرج ومهنتهُ الصيد وقد جاء عنهُ انهُ كان ماهرا حاذقًا في ضرب الرصاص وخصوصًا بالسلاح المعروف بالقربينة اما قامتهُ فلا تبلغ اقل من ستة اقدام انكليزية وتلوح على وجههِ تباشير الهشاشة والبشاشة وهو على جانب عظيم من حدة الطبع ذو قوة وباس وجرأة وجسارة وبسالة طبيعية وقد احمرَّ وجههُ من قِبل حرارة الشمس وكان حاد البصر اسود العينين

وقد كان صاحب العلامة فرغوس في البلاد الهندية لانهما كانا من فرقة عسكرية واحدة ولما كان ديك في تلك البلاد يصيد الافيال والنمورة وكان ساموئيل يبحث عن انواع النباتات والحشائش واجناس الدواب والهوام كلٌّ منهما كان ماهرًا في حرفتهِ ولم يعرض اصلًا لهذين الصاحبين ان يشمل الواحد الاخرمن تهلكة ولذا كانت رباطات صحبتهما وثيقة واذا اتفق لهما ان يتفارقا قد قرنتهما وجمعتهما سريعًا جاذبية التعطف والمحبة

وبعد رجوعهما الى لندرة كانا يتفارقان دائمًا لداعي رحلات العلامة ساموئيل ولكن بعد رجوع هذا من السفر كان يقصد محلَّ صاحبهِ ليس ليزورهُ فقط بل ليقضي عنده بعض الايام والليالي

واما ديك فكان لايحدث الّا عن الماضي وبالعكس ساموئيل فانهُ

لم يكن يتبصر الّا في المستقبل فهذا ينظر الى امامهِ وذاك الى ورائهِ ولهذا السبب كنت ترى ساموئيل غائصاً دائماً بجور الهمة وكنادي راتعاً على سواحل الراحة

وبعد رحلة العلامة فرغوس الى قطر الطبيعة الشاسع استمرَّ سنتين في لندرة ولا يتكلم قطعاً عن رحلة اخرى او مشروع غير ما عاناهُ في حياتهِ فظن صاحبهُ المومأ اليهِ انهُ قد خمدت في قلبهِ نار الرغبة في ركوب مطايا البحار وغوص البطاح والقفار لكثرة ما قصاهُ من الاسفار وكثيرًا ما حثهُ على الاضراب عن مثل هذه الافكار بقولهِ لهُ : حسبك ما درست وساورت وبحثت اما ساموئيل فلم يكن يجيبهُ بشيء لهذا الكلام بل كانت تلوح على وجههِ امارات التحير والتبصر ويهم دائمًا في الشغل والعمل ويسهر الليالي في ضرب حسابات وامتحان آلات لا يدركها انسان وكأنك بهِ قد اتبع رأي الشاعر العربي حيث قال

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللآلي ويحظى بالسيادة والنوالِ
ومن طلب العلا من غير كدّ اضاع العمر في طلب المحالِ

وكان يفكر ديك بنفسهِ عما عساه يتبصر بهِ العلامة فرغوس وما الذي يشغل منهُ الافكار في الليل والنهار

فقد اطلع على هذا السرّ الخفي بقراءتهِ نبذة الصحيفة التي اذاعت مقصد العلامة في رحلتهِ الجوية

وبعد فروغهِ من تلاوة تلك الاساطير صاح وقال : اللهمَّ هل اهملت عبدك ساموئيل فان مخاخهُ قد فرغ من التعقل وتخللهُ الجنون فكيف عساهُ يجوز اقطار افريقية في المركبة الهوائية فلا ريب ان ما كان يتبصر بهِ منذ

سنتين هو هذه السفرة التي لا يتصورها عقل بشر ألّا اذا كان مصاباً بداء السرسام

حينئذٍ اتت اليهِ زوجتهُ وقالت لهُ : لعلَّ ذلك سرٌّ ضحيتهُ دعاوٍ لا تدركها

فاجابها وقال في الحال : انكِ لا تعرفين خُلق هذا الانسان فانهُ اذا رصد وحد واذا عزم تمم ولكن ليت شعري ماذا يريد ان يعمل في طبقات الجو هل حسد النسورة على طيرانها وصمم النية على الاقتداء بها فاني سابذل الجد والجهد لاصدهُ عن ضلالهِ والّا اذا تُرِكَ على حالهِ يخطر ببالهِ ان يرتقي الى طبقات القمر في ليلةٍ رائقة

ولما عقب الصباح تلك الليلة ركب ديك المركبة الحديدية النارية قاصداً مدينة لندرة وما مضت ثلاث ارباع الساعة ألّا وصل الى بيت صاحبهِ العزيز فطرق الباب خمس مرات بشدةٍ وعنف فنهض فرغوس دون ان يعرفهُ وفتح لهُ الباب بيده ولما نصر بهِ قال لهُ . أأنت ديك وما عساك تطلب في لندرة في ايام الصيد

وبعد ان تصافحا وقرأ السلام بعضهما بعضاً قال ديك · اتيت لامنع عمل جنون لا اسم لهُ

قال ساموئيل : وما عسى يكون هذا الجنون

قال ديك : وهل لمقال صحيفة دالي تلغراف صحة عن رحلتك الجوية

قال ساموئيل : وهذا تعني فهالك والصحف فانها قليلة التحسب. إجلس هنا لاطلعك على حقيقة الامر

قال ديك : وكيف اجلس قبل ان تخبرني ان كنت على عزم في معاناة هذه السفرة

قال ساموئيل : نعم يا خليلي واني متأهب للسفر والحاجات قد . . .

فقاطعهُ ديك وقال : اين هذه الحاجات لاقطعها اربًا والقيها خارجًا متذريها الريح كالهباء المنثور

وفي الحقيقة تلاعبت وقتئذٍ على محيا ديك اطوار الكدر والحمية

قال ساموئيل : مهلًا مهلًا يا صاحبي لو كنت عالمًا بمقاصدي ومآربي لما كنت حميت وحنقت

قال ديك : وما هذه المقاصد والنوايا

فغير ساموئيل الحديث بقولهِ : لولا تراكم الاشغال عليَّ لكنت اطلعتك على كل ما يختصّ برحلتي

قال ديك : وما حاجتي اليهِ

قال ساموئيل : لاني مصمم النية على ان آخذك معي في مركبتي

فلما سمع ديك هذا الكلام قفز قفزة الغلام وقال : لعمركَ وهل ارضى بان اكون محبوسًا واياك في منزل بيت لحم (وهو منزل المجانين في لندرة)

فقال ساموئيل : لو اصغيت لي سمعًا عشر دقائق لشكرت لي معروفي على اختياري اياك دون غيرك لمرافقتي

قال ديك : هبْ اني ابيت الذهاب فماذا تعمل

قال ساموئيل : ولن تعمل ذلك

قال ديك : وان فعلت

قال ساموئيل : فبعد ذلك سانطلق وحدي

قال ديك : هات لنا لنرى حديثك لعلَّ فيهِ ما يُقنعني

قال ساموئيل قُم لنتحدّث يا صاح ونحن على مائدة الفطور وبعد ان وصلا الى المائدة وجلسا متقابلين قال ديك : لعمري كيفما قلبتُ مقصدك

وجدته ضرباً من الضلالة والوبال وأراه نوعاً من المحال وعرياً من كل تعقل وافوار

قال ساموئيل : سنرى ذلك عند الامتحان اذ عند الامتحان يُكرم المرء او يُهان

قال ديك : لله درك كيف تمتحن الامر والواجب عليك عدم الامتحان

قال ساموئيل : ما ترى يعنيني

قال ديك : هل يخفى عليك ما سيحيق بك من المصاعب والاخطار والمهالك

قال ساموئيل : اما المصاعب يجب على الانسان الظفر بها واما الاخطار فمن تراهُ يتحاشى عنها ويتنزه وقد جاء ان زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا واذا جلستَ على المائدة واردت تناول الطعام فلا يخلو الامر من الخطر علينا ان ننظر الى ما سيجري كأنهُ جرى ونعتبر المستقبل كأنهُ حاضر لان المستقبل ليس الّا بحاضرٍ مقبل

قال ديك : وهذا قليل لديك أمثالك ممن يتكلون على القدر

قال ساموئيل . نعم ولكن على الوجه الحسن . فليس لنا ان نهتم عما أُعدَّ لنا من النصيب بل الخليق بنا ان نتذكر المثل الانكليزي القائل : من خُلق ليُشنَق لن يُغرَق

فاجاب ديك لذلك المقال بما يطول شرحهُ ويضيق بنا المجال لذكره وبعد ان فرغ من القيل والقال والتنازع والجدال قال واذا كان لا بدَّ من الترحال فلمَ لا تسير بالطريق التي سلكها الرجال

قال ساموئيل : أتسألني لماذا لا اسير في الطريق التي سلكها المسافرون من قبلي وانت عالمٌ ان جميع السياح الذين قصدوا بطون افريقية ذهبت

مساعيهم هدراً وهلكوا اشر الهلكات وأُصيبوا بامر الرزايا والافات فقد ذُبح منغوبرك عند نهر النيجر وفقد فوجل في معاوز وادي الشاسعة ومات اوذني في مُرزُق وكلابرتون في سكاتو وتقطع مران العرنسي اربًا وقُتل لايك من التوارج وذُبح المسيو جي سنة ١٨٦٠ . فهلك جميع هؤلاء لانهُ ضربٌ من المحال ان يتحمل المرء طويلاً الجوع والعطش والمشاق والامراض وان يبارع ويباطح الوحوش الكاسرة والاقوام المتوحشين البرابرة فبما لم يتم بطريقة عسى ان يتم بطريقة اخرى وحيث انهُ يمتنع المرور في وسط تلك الاقطار وجب علينا ان نمرّ من فوقها

قال ديك : والحالة هذه فلنمرّ من فوقها طائرين

قال ساموئيل : وما لي ان اخشى وارتاب وقد رتبت وهيأت جميع الاسباب فاني جهزت مركبتي الهوائية بنوع لا اخشى بهِ السقوط واذا فرضنا وسقطت المركبة فاتمم الرحلة على سنة من سبقني في ذلك ولكني واثق انهُ لجهة نظامها وترتيبها لا تسقط ولا تنهار

قال ديك : كلا يا صاحبي لا تثقنَّ بهذه القبة الهوائية

قال ساموئيل : كن على بصيرةٍ اني بعونهِ تعالى وتوفيقهِ لا افارق مركبتي الّا بعد وصولي الى افاق افريقية الغربية لان بها يتم كل شيء وبدونها اقع في وهاد المخاطر والوبال وبها لا اخشى الحرّ ولا الصبر ولا الزوابع والزعازع ولا الحرور ولا السموم ولا الاهواء السقيمة ولا الارياح المشؤمة ولا الحيوانات الكاسرة حتى ولا الاقوام الغادرة فاذا احسست بحرارة ارتقي الى علٍ واذا شعرت ببردٍ انزل الى اسفلٍ واذا قابلني جبل او طوط امرّ من فوقهِ فاقطع الجبال والوديان والبطاح والغيطان واجوز الانهار والبحيرات واتنزه عن جميع الافات واطير في الجوّ طيران البواشق دون ان يلاحقني ملاحق

فلما سمع ديك هذا الخطاب ارتاع فؤاده وخالجهُ الاضطراب واخذ يحدق بصاحبه ويظن بنفسه انهُ طائر في الجو ومترجرج في عباب بحور الفلاء. ثم قال وهل وجدت وسيلة لقيادة المركبة الهوائية

قال ساموئيل كلا

قال ديك اذًا الى اين تذهب بها

قال ساموئيل اذهب حيث شاء ربك ولكن من نيتي ان اسافر من الشرق واحط في الغرب

قال ديك ولم ذلك

قال ساموئيل لاني اسير مع ريح الصبا التي تهب ثابتةً من الجهة الشرقية الى الجهة الغربية

تأمل ديك برهةً ثم قال لستُ بمنكرٍ ان ريح الصبا . بالحصر . تقدر . تو . . فق . رحلتك

قال ساموئيل قل رحلتنا هل لك اعتراض آخر يا ديكًا

قال ديك كيف ولي الف اعتراض وقبل كل شيء اطلب اليك ان تقول لي كيف تريد الارتقاء والنزول والرحيل في تلك الطلول دون ان يفرغ الغاز الذي به تطير المركبة

قال ساموئيل وانا اقول لك اني لا افقد ذرة واحدة من الغاز

قال ديك وتحط في الارض كيف ومتى شئت

قال ساموئيل نعم يا صاح فاني احط كيفما شئت ومتى شئت

قال ديك وكيف ذلك

قال ساموئيل هذا سري الخفي فثق بي وكن على أهبة وقل معي السيرُ الى ما فوق

فحاول ديك ان يظهر راية مطلقاً لرأي صاحبه ولكن في نيته ان يقاومه في مقصده مقاومة الاسود

فختم ساموييل الحديث بقوله قد رخصت لي الحكومة الانكليزية في سفينة تكون تحت امري وتدبيري فلا بد من ان اطلب حريتي وابحار قبل ثلاثة اشهر فهناك اطلب مركبتي الهوائية وطير بها انا واياك



## الفصل الثالث

### في ذكر الرحلات التي عاناها المسافرون في بطون افريقية ومفاوزها بقصد الاكتشافات الجديدة

واما الناحية التي اختارها العلامة ساموئيل مركزاً للانتقال منها الى الطبقات العلوية على اجنحة المركبة الهوائية فهي زنجبار وكانت نعم الخيار . وزنجبار جزيرة واقعة في جهة افريقية الشرقية في عرض جنوبي ٦° اي تحت خط الاستواء باربعمائة وثلاثين ميلاً انكليزياً او نحو ٢٦٨ ميلاً هاشمياً (والميل الهاشمي عبارة ٤٠٠٠ ذراع) فيليق بنا ان نستطرد لذكر بعض الرحلات التي باشرها المسافرون في افريقية بقصد الاكتشافات الجديدة

وكان من قصد العلامة فرغوسن ان يعيدها وهما اثنتان ذات اهمية حريّة : الاولى رحلة برث سنة ١٨٤٩ والثانية رحلة الملازمين برتون واسبيك سنة ١٨٥٨

اما برث الهمبورجي فقد أُذن له ان ينضم هو وابن وطنه اوفرورك الى الانكليزي ريشردسون الذي كان قاصداً بلاد السودان ببعثة من الحكومة وبلاد السودان واقعة بين ١٥° و ١٠° من العرض الشمالي ويقتضي للوصول اليها المسير في مسافة تنيف عن ١٥٠٠ ميل في وسط افريقية

والى ذلك الوقت لم تكن تُعرَف تلك البلدان سوى بسفرة دنهام وكلابرتون واودناي من سنة ١٨٢٢ الى ١٨٢٤ فتتبع الرفاق المذكورون آثار سلفائهم وبعد ان وصلوا الى تونس وطرابلس تقدموا الى ما قدام وبلغوا مدينة مُرزوق عاصمة الفزّان

ثم انثنوا عن الخط المستقيم وداروا نحو غات الى الغرب وهم مقادون بقوم من التوارج وبعد ان سُرقوا ونُهبوا وداقوا اشرّ المصائب واضطروا مرارًا الى المناضلة والكفاح وصلوا اخيرًا الى غوطة الاصبان في شهر ت ١ وهناك فارق برث رفاقه وتقدم الى مدينة اغادس ثم رجع الى القافلة واتحدوا في المسير في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول فوصلوا الى اقليم دامرغو وتفارق الرفاق هناك وعمد المعلم برث الى مدينة كانو وكان وصولهُ اليها بعد العناء الجزيل وتحمل الصبر الجميل ودفع المبالغ العظيمة لرؤساء اقوام تلك البلدان الطائلة

ثم هجر مدينة كانو في ٧ اذار برفقة خادم واحد وكان مصابًا بداء الحمى ومع ذلك قد صمم النية على مشاهدة بحيرة شاد وبقي لهُ للوصول اليها ثلاثمائة وخمسون ميلًا فتقدم نحو الجهة الشرقية ووصل الى مدينة روريكولو في اقليم بُرنو وهذه المدينة محط لمركز اواسط افريقية وهناك بلغهُ خبر وفاة رفيقه ريشردسون من شدة الضنك والتعب وقلة القوت والمشاق اخرى حلت في اسباب متعودي الرجاء في معيشتهِ ثم رحل الى كوكا عاصمة بُرنو عند سواحل البحيرة وبعد ثلاثة اسابيع بلغ مدينة يعوبو في ١٤ نيسان بعد هجره طرابلس الغرب باثني عشر شهرًا ونصف

وفي ٢٩ اذار سنة ١٨٥١ سافر ورفيقهُ اوفروك الى مملكة اداموة في جنوبي البحيرة ووصل الى مدينة يولا ثم عاد الكرة في شهر آب على مدينة كوكو وهناك طاف حول مندارا وبرغمي وكانم واقصى جهة من المشرق وهناك مدينة مربا الواقعة في ٢١َ ١٧° من الطول الغربي

وفي ٢٥ من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٥٢ بعد ان قضى رفيقهُ نحبهُ تقدم الى الجهة الغربية وعرّج على مدينة سوكوتو وجاز نهر النيجر ووصل اخيرًا الى مدينة تمبكتو وهناك التقى الشيخ القص عليهِ ولبث بعدهُ وبديقة امرّ الوبال

والتربة نحو ثمانية اشهر اما قوم الوّلاَن فهاجوا وماجوا لانهم لا يحتملون زماناً بقاء رجل مسيحي في تلك المدينة فافلتهُ الشيخ ورحل المعلم برث منها في ١٧ اذار سنة ١٨٥٤ واجتمع بتخوم المدينة ومكث ثلاث وثلاثين يوماً محروماً كل ضرورياته ثم رجع الى كانو ودخل كوكا ولبث فيها اربعة اشهر ومن هناك سار في الطريق التي خطها دنهام حتى عاين اخيراً مدينة طرابلس الغرب في اواخر شهر آب سنة ١٨٥٥ ثم سافر الى لندرة وحده في ٦ ايلول دون رفيق ولم يتجاوز °٤ من العرض الشمالي ولا الدرجة الدرجة °١٧ من الطول الغربي

فهذه رحلة المسافر الباسل برث الذي حاز الشرف الخطير لدى اعين العلماء واصحاب الفنون والذكاء

ولكن لم يقدر قط احد على الوصول الى عيون النيل السرية وعلى ما قرره الطبيب الالماني ورديند ورن ان المسافرين الذين بعثهم محمد علي سنة ١٨٤٠ لم يبلغوا سوى الى عندوكورو بين °٤ و°٥ في السمت الشمالي

وفي سنة ١٨٥٠ تسمى برون روليت قنصلاً لدولة سردينيا في مملكة السودان الشرقية خلفاً لمن مات قبلهُ موت الشقاء والعذاب وهو واداي فهذا القنصل الجديد سافر من الخرطوم ودعا نفسهُ باسم يعقوب وتقدم الى ما قدام وهو يتاجر بالصمغ والعاج حتى وصل الى بلاديــا فوق درجة °٤ ثم عاد الكرة على خرطوم وهو مبتلي بمرض عضال بلغ به الى القبر سنة ١٨٥٧

فلم يقدر احد على مجاورة الحدود المعلومة لا العلامة بنه الذي تقدم الى قرب عندوكورو لانهُ رجع فمات في خرطوم وهو ضنٍ من التعب وخور القوى ولا السائح ميانى من البندقية ولا التاجر المالطي اندريا دِبُنو الذي اهتمَّ في الوصول الى عيون النيل لكنهُ لم ينل مرامهُ

وفي سنة ١٨٥٩ بعثت الحكومة الفرنسية موسيو غيليوم ليجان الى بلاد

للخرطوم واصحبتهُ باحد وعشرين جنديًا فسافر في البحر الاحمر ثم نزل الى ضفة النيل ومع هذا كلهُ فلم يتمكن من مجاوزة تخوم غندوكورو واحاقت بهِ المخاطر العظيمة لداعي ثورة ثارت ما بين الزنج

وطالما قد اوقف هنا الحدّ شجاعة المسافرين والسياح وكثيرون هم الذين ارادوا الوصول الى عيون النيل برحيلهم الى جهة افريقية الشرقية فلم يتمكنوا من ذلك فمن سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢ رحل السائح بروس الاسكتسي من ماصوَّة وهي مينا بلاد الحبشة ووصل الى خراب اكسوم وشاهد عيونَ النيل حيث لا وجود لها ولم تأتِ اتعابهُ بثمرة

وفي سنة ١٨٤٥ سافر السائح الفرنسي مزان الى بغامايو قبالة زنجبار ووصل الى مدينة دجلاهورا حيث اذاقهُ سيد قومها امرّ العذاب والبلاء وفي سنة ١٨٥٩ في شهر آب سافر الشاب روشر المعرجي صحبة قافلة تجار اعراب وبلغ بحيرة نياصًا وهناك ذُبح في رقادهِ

اخيرًا سنة ١٨٥٧ بعثت الجمعية الملوكية الجغرافية في لندرة الضابطين برتون واسبيك المشهورين ليستقروا بحيرات افريقيــة العظيمة ففي ١٧ حزيران قاموا من مدينة زنجبار وتوجهوا الى الناحية الغربية فبعد ان قضيا اربعة اشهر في معاوز الضيق والعذاب الشديد حيث نُهبت حوائجهما وقتلت ناقلوها وصلا الى مدينة كازه وهي مركز اجتماع التجار والقوافل وهذه المدينـــة كائنة في اواسط بلاد القمر وهناك اكتنزا لهما ذخائر الفوائد بالاستخلاص عن اخلاق اقوام تلك البلاد وطباعهم وحكومتهم ودياناتهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم ثم تقدموا الى اول البحيرات العظيمـــة وهي تنغانيكا الواقعة بين ٣° و٨° من العرض الجنوبي وكان وصولها اليها في ١٤ شباط سنة ١٨٥٨ وهناك شاهدا اقوامًا مختلفة واكثرهم برابرة ومتوحشون

وفي ٢٦ ايار رجعا الى كازه وهناك مرض برتون واعتراه سقم شديد فمكث مليًّا به مضع شهور في تلك المدة جار اسبيك ثلاثمائة ميل انكليزي في الجهة الشمالية ووصل الى بحيرة اوكراوي لكنهُ لم يعاين سوى طرفها الواقع في درجة ٣٠ُ ٢° عرضاً

ثم رجع الى كازه في ٢٥ آب وسافر مع رفيقهِ الى زنجبار فوصلا اليها في شهر اذار من السنة الثانية ومن هناك قصدا لندرة وخصصت لهما الجمعية الملوكية الجغرافية معاشاً سنوياً

وقد لاحظ العلامة فرغوس ان المسافرين المذكورين لم يجوزوا درجة ٢° من العرض الشمالي ولا درجة ٢٩° من الطول الشرقي

ولذا اراد ان يجمع بين رحلة برتون واسبيك ورحلة برث ومن ثم يقطع عرضاً ناف عن ١٢ درجة



# الفصل الرابع

## في اهمية الرحلة الافريقية

وكان العلامة فرغوسن يهم في تجهيز لوازم السفر العلوي ويهيء بناء القبة الهوائية بحسب اصلاحات اخترعها ويكتم سرها وكان منذ زمان اخذ بدرس اللغة العربية ولغات الزنج المختلفة ونجح فيه ليس بيسير لشدة قوة الذاكرة واتساعه على كل ما ابتغى قنيته

واما رفيقه ديك فلم يكن يفارقه بتة كأنه على خشية ان العلامة يفلت ذات يوم خفية عنه وكان ينتهز كل فرصة مناسبة ليرجعه عن مقصده . الّا ان كلامه لا تأثير له في عقل صاحبه الغير المبالي به

وعليه كان يتنهد سرًّا ويقول في نفسه : لا بدّ لك ياديك لابدّ لك من تلك الرحلة المشؤومة وعندها يظن نفسه صاعداً الى الجوّ وطائرًا في الفضاء لعبة للارياح ويضيق صدره ويخفق منه القلب وينتضح عرقًا بل انه كان يشعر وقت الرقاد باهتزاز وارتجاح مريعين يقلقان نومه ويرعبان جنانه ويعدمانه راحة الليل ولم تمض ليلة الّا احسّ بسقطة هائلة من اعالي طبقات السماء وفي الحقيقة سقط من فراشه اقله مرتين وهو في هذا الضغط والاضطراب

وقد اعتنى في اول الامر ان يظهر للعلامة فرغوسن الورم الذي طرأ عليه في رأسه من جرى سقوطه هذا وقال له اذا كان من علوّ اشبار بليت بهذه النائبة فترى ما تكون قد حلّ بي لو سقطت من طبقات العلاء

اما فرغوسن فلم يتحرك فؤاده لهذا الاضطراب بل اجاب وقال : انا لا نسقط . فقال ديك : واذا سقطنا فما الحيلة

قال فرغوسن : كلاّ فانا لا نسقط وكان جوابًا قاطعًا باتًا اذ لم يتفوه ديك بعد ذلك بكلمةٍ البتة

لمّا اعظم باعث لاغتياظ ديك فكان ان العلاّمة لا يعتبر شخصهُ بذاتهِ بل كأنهُ من متعلقاتهِ ومن بعض املاكهِ وعلى الخصوص فانهُ كان ينفعل عند ما يسمع من فم فرغوسن التكلم في الجمع اذ كان يقول دائمًا سنسافر (نحن) سنتقدم (نحن) وقال دائمًا قبتنا ورحلتنا ولم يقل قط قبتي او رحلتي

فكان الامر مما يزيد ديك جزعًا واضطرابًا ولو انهُ عازمٌ على ممانعة الرحلة او اقلهُ على عدم اشتراكه فيها ومع ذلك لم يرد قط ان يغيظ صاحبهُ وخله العزيز وعليهِ كان قد ارسل سرًّا الى مدينة ادمبرج يطلب بعض حاجات له وملابس واحسن انواع سلاحهِ للصيد

في ذات يوم اخذ يفاوض صاحبهُ على هذه الرحلة قصدًا في صدهِ عن معاناتها فبدأ يعارض العلامة على مقاصد رحلتهِ فقال أهل من امر ضروري لاكتشاف عيون النيل وهل يستفيد بذلك الجنس البشري وهل تتمدن اقوام تلك البلاد وتحظى بسعادة اوفر مما هي عليهِ الان وما نفع الاسراع الى ذلك اذ لابدَّ ان يأتي يوم يجوز فيهِ المسافرون بافريقية كلها دون صعوبة وهلمَّ جرًّا فاجابهُ حينئذٍ العلامة فرغوسن وقال أتريد يا ديك بئس الادياك ان اترك هذا الفخر لغيري واتوقف عند موانع لا اهمية لها البتة فاعترض ديك كمألوف عادتهِ وقال ولكن . . .

قال سامويل : ولكن ألا تعلم ان رحلتي تساعد نجاح الرحلات الحالية التي يعانيها المسافرون أيخفى عليك ان مسافرين حديثين متقدمون الان نحو مركز افريقية وان البحيرة المعروفة باسم اوكاراوي الواقعة في الدرجة °٣٣ طولاً ظنها قوم انها تمتد من الدرجة ٣٠ َ٢° من العرض الجنوبي الى الدرجة °٢ من

العرض الشمالي وعسى ان منها تنبجس عيون النيل فقد تطرت جمعيــة لندرة الملوكية الى هذا الامر بعين الاهمية وبعثت القبطان إسبيك برفقة غرنت احد قواد الجنود الهندية واصحبا معهما جنوداً وجهزوا رحلتهما تجهيزاً بليغاً وفي نيتهم ان يبلغوا البحيرة المذكورة ثم يرجعون الى غندوكورو على شاطئ النيل وقد امدّتهم الجمعية بخمسة الاف ليرة فرحلوا من زنجبار في اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٨٦٠

وفي تلك المدة ورد امر من الحكومة الانكليزية الى جون بتريك في الخرطوم ان ينزل في سفينــة في الخرطوم ويحملها زاداً وحوائج كثيرة ويذهب لينتظر القافلة في غندوكورو وأرسل له لنفقة ذلك سبعمائة ليرة انكليزية

قال ديك : نِعمَ ما عملوا

قال ساموئيل : أ رأيت الان ان الوقت قد ضاق معنا ومست الحاجة لسرعة الرحيل الى تلك البلدان وما عدا ما ذكرتهُ لك من عمد البعض لاكتشاف منبع النيل فقد رحل اناس كثيرون الى اواسط افريقية ليكتشفوا اراضيها وبقاعها وبطاحها

قال ديك : أ فأهم مُشاة

اجاب ساموئيل : اي نعم مُشــاة ولا يخفى عليك ايضاً ان السيد دي هكلن وكيل قنصل النمسا في الخرطوم رتّب قافلة ذات اهمية للرحيل الى اواسط افريقية وجلّ قصدها ان تطلب المسافر وُجِل الذي أُرسل الى السودان سنة ١٨٥٣ ليشارك العلاّمة برث باكتشافاته وفي سنة ١٨٥٦ رحل من برنو وقصد اكتشاف ذلك الاقليم المجهول الواقع بين بحيرة شاد ومملكة درفور فمذ ذلك الوقت لم يسمع عنهُ خبر ولم يُرَ لهُ اثر فارسل بعض الناس كتباً الى الاسكندرية يقولون فيهــا انهُ قُتل بامر ملك الواداي في بلاد السودان

ولكن كتب العلامة هرمان كتاباً الى ابي وليم يقول له به ان ابنه لم يمت بل على ما قرره بدويٌّ من بعد ان رحل ألقي القبض عليه في دارة وبقي هناك اسيراً وقد تألفت جمعية لطلبه وسافر وفدها في شهر حزيران الماضي

فقال ديك : وحيث جميع الامور سائرة على قدم النجاح والاتقان فما لنا من المشغلة في تلك الاقاليم والبلدان

فلم يجب ساموئيل على هذا الكلام بل تحوَّل عنه وانصرف وهو يهزّ باكتافهِ



# الفصل الخامس

## في خادم العلامة ساموئيل وزبة المسافرين

وكان للعلامة ساموئيل خادمٌ اسمهُ يوسف وهو شاب اديب ذو اوصافٍ حسنى اذا امرهُ مولاه بقضاء حاجةٍ لباهُ بالنشاط والامانة وقد نهج في صدقهِ نحو سيده طريقة غير مطروقة واتاهُ على رغباتهِ بهمةٍ غير همة وخليقة غير خليقة اشبه بالعراقي الامين الذي ارسلهُ يشوع بن نون ليجتس ارض الكنعانيين وكان العلامة يترك لهُ التدبير في مهامهِ وخدمهِ لانهُ صاحب ذوقٍ لطيف ولا يتهامل في امر من الامور

ومن العجب العجاب ان يوسف لم يكن يراجعهُ في احكامهِ اصلاً بل اذا تفوه ساموئيل بكلمةٍ دعاها بدقــة وتحري وكل ما فــكر بهِ ساموئيل كان لدى يوسف مصيباً وكل ما قالهُ كان اريباً وكل ما امرهُ بهِ كان مرعي الاجراء وكل ما نحا نحواً كان مستطاعاً وكل ما تمم امراً كان لديه من العجــائب والغرائب فلو تقطع يوسف ارباً لمــا رضي قط في حياتهِ ان يخالف سيدهُ في امر البتــة

ولهذا لما خطر ببال فرغوسن الرحيل على اجنحة المركبة الهوائيــة وعلم بهِ يوسف فطابق رأيهُ بذلك دون ممانعة وتحقق انهُ يســافر مع سيدهِ لانه كان خفيف الحركات والاطوار ويساعد ساموئيل في امور كثيرة ذات اهمية جزيلة وقد طال ما اتبعــهُ في اسفارهِ العديدة وكان من آرائه الغريبــة استصواب الامور جميعهــا واستهوان المصاعب والمتــاعب ولم يعلم قط في زمانه جنس التشكي والتذمر ومن صفاته ايضاً القوة في جسمــهِ والتبصر في الامور وعدم

افتخاره بجميع محاسنه وشمائله . فلما كان هذا الخادم منقاداً لسيده وقد طاقه على رأيهِ في رحلته فلا عجب فيما جرى من الجدال والمناقشة بينهُ وبين ديك لان احدهما كان واقفاً في اليقين الاعمى والآخر في الشك والارتيـاب والعلامة فرغوس كان بين الشك واليقين غير انهُ لم يعبأ لا بهذا ولا بذاك

في ذات يوم قال الخـادم لديك يا سيدي وكيف احوالك ألا ترى انا عن قريب نرتقي الى طبقات العلاء لنبلغ القمر

قال ديك : أتعني عن المصر الملقب بجبال القمر فانهُ اقرب من القمر ومع ذلك لا يخلو بلوغهُ من المصاعب والاخطار

قال الخادم : وهل مع العلامة ساموئيل تقوم المصاعب وهلاَّ تعلم انها تتبدد امامهُ كغيم جهام

قال ديك : اقول قولًا لا يخشى عليهِ من نكير ان معاناة مولاك لهذه الرحلة ضربٌ من الجنون

قال الخادم : كيف ولم تر مركبة سيدي وقبتهُ في معمل الخواجات متشال الواقعة في ضاحية هذه المدينة

قال ديك : معاذ الله ان انطلق الى هناك لأشاهد مثل هذا المشهد

قال الخادم : ولعمري يفوتك منظر جميل جداً لأنهُ ما من شيء اجمل من تلك القبة الحريرية او احلى من ذلك القارب المعلق بها ليحملنـا براحة تامـة

قال ديك : اذاً من نيتك الثابتة ان ترافق مولاك في رحلتهِ

قال الخادم : وهل اتركهُ وحدهُ طائراً في طبقـات العلاء وان لم اتبع مولاي ساموئيل فمن يأتي بيدو اذا احاق بهِ الويل ومن يمدّ لهُ ساعدهُ ليجوز مهواةً ومن يمطر اليه ديمةً من الملاطفـة والمواساة اذا اصابهُ المرض واعتراهُ

السقم ولعمري ما دمت حياً فلا ازال محيطاً بمولاي لاداريه مداراة الانسان للعين

قال ديك : يا لك من شهم فريد عصرك ويوسف وحيد مصرك

قال الخادم : أليس مرادك مرافقتنا في هذه الرحلة

قال ديك : لا شك في ذلك قلت لا شك في ان ارافقكما في رحلتكما الى زنجبار وابذل وسعي في صد ساموئيل عن ارتكاب هذه الجريرة

قال الخادم : لعمري انك لن تصده البتة عن قصده لان مولاي ليس بانسان محشو مخافة مطعم للخزعبلات بل اذا قصد امرًا تروّاه من جميع انحائه وقد صمم لا محالة والمحتال بنفسه مع حيلهِ لا يوقفهُ عن اجرائهِ

قال ديك : ان شاء الله عن قريب يخيب امالك

قال الخادم : وعلى كلٍ لا يخيب امل حضرتك لانهُ يكثر الصيد في بلاد افريقية وانت من الصيادين الشهيرين فلا بد من ان تجد هنالك ما يسرك ويطربك

قال ديك : ان ما يسرّني ويطربني هو ان يرجع العلامة عن غيهِ ويرعوي عن ضلالهِ

قال الخادم : ولكن لا يخفى عليك ان اليوم يوم الزنة

قال ديك : وما الزنة

قال الخادم : لا بدّ ان مولاي يزن ثقلنا ليرى ما يعادلهُ من الارطال

قال ديك : لا حول ولا قوة الّا بالله العظيم

قال الخادم : ولا تخاف من انهُ يطلب منك قلة تناول الطعام لترق وتخف اذا وجدك ثقيلًا

قال ديك بعيد ان يزنني

قال الخادم : ولكن البابي ان ذا الامر ضروري لمسير مركبته

قال ديك : وما لي ومركبته عسى ان يعتريها بسببي داء المفاصل او الفالج

قال الخادم : واذا اصابها هذا الداء فلا يمكنا الارتقاء

قال ديك هذه رغبتي وطبق منيتي

قال الخادم . وانت تقول ذلك لان مولاي ليس هنا ولكن اذا اتاك في هذه الساعة وقال لك من بعد اداء الاكرام تفضل للميزان فاجيب عليك انك حاضر للذهاب في الساعة والدقيقة

قال ديك : حاشى فاني لا ارضى بالميزان اصلًا

وفيما هما خائضان بحر هذه المناقشـة اذ دخل العلامة ونظر الى ديك فضحكان هذا معبساً وجههِ فقال لهُ تفضل يا ديكا انت ويوسف لان مرادي ارى كم تعـادلان اثاثكما من الارطال فاراد ديك الاستدراك

فقـال لهُ ساموئيل : انتِ والبرنيطة على رأسك ولا تخف

فاتبعه ديك ولم ينطق بكلمة وسار ثلاثتهم الى معمل الخواجات متشال حيث كان الميزان المعروف بالميزان الروماني منتصباً وفي الحقيقـة كان مرادهُ وزن رفقانه ليعرف ميزانية مركبته فصعد ديك على لوح الميزان فسمعه العلامة يقول بصوت منخفض لا بأس بذلك فان الميزان لا يقدم ولا يؤخر في المسألة.
ثم قال العلامة بصوتٍ عالٍ : وزن ديك خمس وعشرون رطلًا وسطر ذلك في دفتره

فسـأل ديك : أليس ثقلي بزائدٍ

فاجابهُ الخادم وقال : كلاَّ وهب انك ثقيل فانا خفيف وهكذا اعوض

عن ثقلك

ثم صعد يوسف بخفةٍ ووقف منتظراً الحكم واذا صوت العلامة يقول :
عشرين رطلًا

ثم طلع بنفسه وقال : الان دوري وسطر لحسابه أثنا وعشرين رطلًا

قال الخادم : واذا لزم الامر لرحلتك يا مولاي فاني لا اتناول طعاماً
لانقص من ثقلي ثلاثة او اربعة ارطال

قال العلامة متبسماً : لا فائدة في قلة اكلك يا شاكا امينًا وعليه خذ
فهذه حصتك ( واعطاهُ ريالًا ) لتأكل بها ما شئت وتشرب ايضًا



## الفصل السادس

### في تفاصيل المركبة الهوائية من القبة والقارب والالة السرية وتجهيز حاجات الرحيل الضرورية

فلا غرو في ان المركبة الهوائيـة قد اشغلت بال العلامة سامويل ليلًا ونهارًا وما زال عاكفًا على تجهيزها وترتيبها باتقان لئلا يطرأ عليها في العلاء حادث من طوارق الحدثان فعزم في اول وهلةٍ على ان يعبي القبـة الحريرية بغاز الإدروجين احد عنصرَي المـاء وهو اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف وحصول هذا الغاز سهل جدًا وهو ما اجدى المركبات الهوائية نفعـاً جزيلًا في ارتقائها الى الطبقات العلوية

على ما حسبهُ سامويل بتدقيق ظنَّ ان لوازم رحلتهِ التي ينبغي عليهِ اخذها في المركبة تتطلب ثقل نحو ٦٦٦ رطلًا فاخذ يبحث كيف يجهز القبة الهوائية لتتمكن من حمل هذا الثقل وما يقتضي ان يكون وسعها

اما ثقل ٦٦٦ رطلًا فتوازي وزن ٤٤٨٤٨ قدم هواء مكعب او ١٦٦١ مترًا مكعبًا فاذا اوسع القبة الهوائية ١٦٦١ مترًا مكعبًا وملأها غاز الإدروجين عوضًا عن الهواء . وغاز الإدروجين اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف فيبقى حامل في الميزانية وقدره ٦٢٠ رطلًا اذ ان غاز الادروجين لا يزن سوى ٤٦ رطلًا وهذا الفرق الكائن بين ثقل الغـاز الداخل في القبة وثقل الهواء المحيط بها هو الذي يخوّل القبة الهوائية قوة الصعود الى الطبقات العلوية

ومع ذلك اذا أُدخل القبة ١٦٦١ متر غاز مكعب لامتلأت بتمامها وهذا لا يوافق بل يأتي بالضرر حيث ان القبة الهوائية بارتقائها الى الجوّ تصادف في

الملاء هواء اقل ثقلاً من الهواء الكائن على سطح الارض فيأخذ الغاز في الاتساع والامتداد فيشق القبة في العموم لا يملأ اصحاب الفنون القبب الهوائية غازاً سوى بنسبة الثلثين

اما العلامة ساموئيل فرغوسن فعزم على ان لا يملأ قبتهُ الّا بنسبة النصف وذلك لقصدٍ خفي كان كامناً في ضميرهِ واذ كان في عزمهِ ان يأخذ معهُ ١٦٦١ متراً مكعباً من الإدروجن قد اوسع القبة اتساعاً مضاعفاً

ثم رتب القبة على الهيئة المستطيلة المفضلة على غيرها وبلغ قطرها الافقي ٧٥ قدماً وقطرها العمودي ٥٠ قدماً (١) فكان وسع هذه الكرة ٩٠ الف قدم مكعب

وقد فكر العلامة فرغوسن في صنع قبتين هوائيتين مختلفتي الكبر والاتساع وجعل الواحدة داخل الاخرى فالصغيرة بلغ قطرها الافقي ٤٥ قدماً وقطرها العمودي ٦٨ قدماً ووسعها ٦٧ الف قدم مكعب وقصد ان يجعل لولباً يفتح من قبةٍ الى قبة لتتصل وقت الحاجة بعضها ببعض

ولهذه الوسيلة فوائد جمة منها اذا اراد اخراج الغاز ليحط على الارض فيخرج الغاز الذي تتضمنهُ القبة الكبرى حتى واذا أفرغ بكمالهِ فتبقى القبة الاخرى على حالتها ويمكن اذا مست الحاجة ان يرمي عنهُ هذه القبة الكبيرة المثقلة عليه ويمكث متمسكاً بقوة القبة الثانية ومنها اذا حدث عارض او انخرقت القبة الكبرى فلا يمس القبة الصغيرة ضرر البتة

اما القبتان الهوائيتان فصُنعا من القماش الحريري المصلب ثم دُهنا بمادةٍ صمغية يؤتى بها الهند وتُعرَف عند الافرنج باسم غُتابركا وهذه المادة تمنع الموائع

(١) لا يتعجبنَّ القارئ من هذا الكبر الفاحش فان العلامة مُعلَّميه صنع سنة ١٧٨٤ قبةً بلغ وسعها ٢٠٠٠٠ متر مكعب وكان من طاقتها ان تحمل ٢٠ الف كيلوغرام

من ان تتخلل الاقمشة ولا يمسها انواع الحوامض ولا اجناس الغاز وجعل القماش في الافق الاعلى على طاقين حيث هناك القوة الشديدة

وصنع الحبال لحمل القارب من القنّب الشديد الصلابة والمتانة وقد بذل وسعهُ في اتقان اللولبين اتقاناً محكماً كما يقتضي اهل السفن في احكام دقة المركب

اما القارب العتيد ان يحمل المسافرين فبناهُ من الخيزران على هيئةٍ مستديرة وبلغ قطرهُ خمسة عشر اقدام ثم مكنهُ بلفائف حديدية حولهُ فلم يبلغ ثقلهُ مع ثقل الحبال سوى ٤٦ رطلًا

وصنع العلامة ايضاً اربعة صناديق من الصفائح الحديدية وكانت متصلة بعضها ببعض بمجار ذات لوالب وضم الى هذه الصناديق انبوبة يبلغ قطرها بالمبين وفي آخرها فرعان غير متساويين وطول الفرع الاكبر خمس وعشرين قدماً وطول الآخر خمسة عشر قدماً فقط ثم جعل هذه الصناديق في القارب بنوع مرتب حتى لا تشغل مكاناً واسعاً وحيث ان الانبوبة لا تترتب الا وقت صعوده الى المركبة جعلها في مكان منفرد مع كرةٍ كهربائية وجميع هذه الصناديق لم يبلغ ثقلها مع ثقل صندوق مملوء ماء سوى ١١٦ رطلًا

اما الآلات التي اراد استصحابها معهُ فهي ميزانان لمعدل الهواء (بارومتر) وميزانان للحر والبرد (ترمومتر) وابرة لمعرفة الجهة الشمالية (بوصلة) ومقياسان للوقت (كرونومتر) وأفق صنعي وآلة لقيس الاشياء البعيدة

وعدا هذا جميعهُ فانهُ اخذ للقارب ثلاثة مراسٍ وسلماً حريريًا متينًا طولهُ نحو خمسين قدماً

واما الزاد للاكل والشرب فكان شايًا وقهوة وكعكًا ولحماً مملحاً وقليلًا من العرق وماء عذبًا ثقل مائة ليتر ومن الواضح البين ان هذا الزاد

يجب ان ينقص شيئاً فشيئاً وبذلك تنقص ميزانية المركبة الهوائية لان المركبة اذا نقصها ادنى ثقل عما ركبت عليه يأتيها بتأثير ولم يهمل العلامة ان يأخذ معهُ حيّة ليغطي بها جهة القارب ولحفاً لتغطية الاجسام وقت الرقاد وبواريد الصياد ديك مع كمية وافرة من الرصاص والبارود

فهاك خلاصة تفصيل الاحمال المتيدة ان تحمل في المركبة الهوائية

| عدد ارطال | | |
|---|---|---|
| ٢٢ | ثقل | العلامة ساموئيل |
| ٢٥ | = | ديك كادي |
| ٢٠ | = | يوسف الخادم |
| ١٠٨ | = | القبة الهوائية الكبرى |
| ٨٥ | = | القبة الهوائية الصغرى |
| ٤٧ | = | القارب والحبال |
| ٣١ | = | المراسي والالات والبواريد |
| ٣٧ | = | الخيمة وغير ذلك |
| ٦٤ | = | المأكل والمشرب |
| ٦٦ | = | الماء |
| ١١٦ | = | الصناديق الاربعة |
| ٤٦ | = | الإدروجن |
| ٣٦ | = | من رمل يُستعمل صابورةً |
| ٧٠٣ | | الجملة |

# الفصل السابع

## في ركوب السفينة وايضاح القوة التي ترقي القبة الهوائية وتنزلها حسب المراد

ولما كان نهار ١٦ شباط وافت السفينة الانكليزية التي اتينا بذكرها آنفاً وارست بازاء غزاويش وهي متأهبة لقبول العلامة فرغسن ومركبته الهوائية فنقلت اليها المركبة في ١٨ شباط وذلك بانظار ساموئيل لئلا يمس شيئاً ضرر البتة ثم نقل اليها ايضاً عشرة براميل مملوءة روح الكبريت وعشرة براميل مملوءة قطعاً حديدية عتيقة وذلك لاجل احصال غاز الإدروجين ولم يهمل ان يصحب مع هذا كله البراميل اللازمة لنشر الغاز وعددها ثلاثون

ثم ركب السفينة ورفيقه ديك وخادمه يوسف اما ديك فمع كونه قسم الايامين المحرمة انه لا يريد السفر مع العلامة فرغوسن رأيته يوم ركوب السفينة نزل اليها وهو مصحوباً بجراسة كاملة من سلاح الصيد

وفي اليوم العشرين صنعت الجمعية الجغرافية الملوكية مأدبة فاخرة للمسافرين وحضر هذه المأدبة رئيس السفينة ورجاله وقد دارت بينهم كأس الندام فشربوا المدامة بسر الاحساء متمنين لهم ان يعيشوا السنين العديدة والايام المديدة واما ديك فانته التهاني لرحلته العلوية من جميع الحاضرين في ذلك المحفل فانهم بعدان شربوا بسر فرغوسن ومجد انكلترة شربوا بسرّ رفيقه الشجاع ديك الصياد

وفيما هم جالسون على مائدة الطعام اذ وفد رسول من الملكة وبلغهم تهنئتها للمسافرين وتمنيها لنجاح الرحلة الجوية ففي الحال شرب جميعهم تحية

حلالتها الفخمة وبعد قليل انصرف كلٌّ الى مكانه ليستريحوا تلك الليلة

ولما اصبح الصباح وكان اليوم الواحد والعشرين قلعت السفينة من مرسيها وسارت تقدم السرعة قاصدة زنجبار في البحر الاحمر وفي ١٥ نيسان وبعد ان ارست في اماكن جمة وصلت اليها بالامن والسلام

وفي غضون سفرهم كانت المناقشة قائمة بين الركاب على الرحلة الجوية وكان يوسف الخادم فرحاً منشرحاً ويحدث كثيرًا رفاقه بواقي السفينة فقال لهم مرةً انه بعد رحلتهم سوف يحدو كثير من الناس حدوهم اذ انه كلما دق الناس مثل هذه الامور زاد فهمهم بها ونما شوقهم لمعاناتها ومزاحمتها فكما انهم الآن مساوون في المركبة بخط منحرف كذلك يسيرون فيما بعد بخط مستقيم الى ما امامهم

فقال احد السامعين  الا ترتقون الى القمر

قال يوسف  حاشى وكلا لسبب ان القمر لانهُ معروف من الناس وخالٍ ايضاً من الماء فيقضي بنا العطش الى الهلاك

فقال احد محبي الغرق  واذا وجدت هناك غرقا الاتستكي به

قال الخادم  كلا لا نريد شيئاً من القمر بل مرادنا ان نرتقي الى تلك النجوم السيارات المتلألئة في القبة السماوية في اول وهلة نحو زحل

فسأله واحد وقال  هل زحل هو اللانس الخاتم

قال يوسف  نعم اللانس خاتم الزواج ولكن الى الآن لم يُعرف ماذا اصاب امرأته المسكينة

فنفر احد البحرية الناظر اليه نظرة الدهشة وقال  ايمكنكم اذاً الارتقاء الى هذا العلاء لعمري ان مولاك فاق المحتال قدرةً وحيلة

قال الخادم  والمحتال نفسه لا يستطيع على صنع مثل هذه الامور

فقال نجريّ وهو ينتظر فرصةً للتكلم وبعد ان تتركوا زحل فالى اين تتوجهوا بالسلامة

قال نتركهُ بالمشتري وبعده دور المشتري فانها بلاد لا يطول بها النهار سوى تسع ساعات ونصف وهذا مما يوافق الكسالى

وهكذا كان يحدث بعضهم بعضاً بالمزاح والمرح وقد اخذ يوسف يتكلم عن نبتون والمريخ والزهرة احاديث مضحكة ومع ذلك مطربة لجميعهم لرشاقة الخادم يوسف وسبك عباراته المولمية

وفي اثناء مناقشته مع الجوية كانت المركبة سائرة على قدم النجاح بين الضباط وبرعوس بخصوص رحلته ومركبته وسيرها فسألوهُ مرةً ماذا يرتأي عن ادارة المركبات الى حيث يشاء الراكب

فقال ساموييل اني لا اظن ان الناس يتوصلون الى ادارة المركبات الى حيث شاؤوا وقد فحصت جميع الهيئات التي ظهرت الى الان فلم ار واحدة منها تصلح لذلك

فاجابهُ واحد وقال ألا يوجد نسبة عظيمة بين ادارة القارب الطيارة والسفن البحرية

قال فرعوس كلا يا سيدي فان النسبة قليلة جداً وربما كلا شيء لان الهواء اخف من الماء كما لا يخفى فالسفينة لا تغطس كلها في الماء بل نصفها واما القبة الهوائية فتغوص في الجو غوصاً تاماً وتبقى غير متحركة بالنسبة للسيال المحيط بها

قال واحد وهل تظن اذاً انهُ غير ممكن لاختراع شيء جديد بهذا الخصوص بواسطة العلوم الطبيعية

قال كلا ثم كلا غير ان اصحاب العلوم يبحثون عن شيء آخر وهو

ان يستمرّ راكب المركبة الهوائية ثابتاً في الطبقات الهوائية في الجوّ الموافقة لغرضهِ لان الهواء في بعض الاماكن العالية يكون متساوياً وثابتاً في اتجاههِ ولا تمنعهُ الاودية والجبال المتكاثرة على وجه الكرة الارضية ولايخفى عليكم ان تغيير الهواء وعدم مساواة مهبهِ هو مسبب عنها في الغالب فاذا ما علا المرء هذه الطبقات وتوصل الى الاعالي فحينئذٍ يتوقف عند الطبقة الموافقة لغرضهِ كما اشرت

قال رئيس السفينة : والحالة هذه لكي يتوصل اليها الراكب لا يقتضيه سوى الصعود والنزول وهنا الصعوبة كلها

قال فرغوسن : ولماذا

قال السردار : مآل كلامي ان هذه الصعوبة او المانع لا يكون الّا للاسفار الطويلة وليس للرحلات القصيرة المقصود بها التنزه وانشراح الخاطر

قال فرغوسن : اكرم عليّ بايرادك سبب ذلك

قال السردار : لان اذا اراد المسافر في هذه القباب الطيارة الصعود الى العلا لزمهُ القاء بعض ما يكون حاملهُ من الثقل واذا اراد النزول لزمهُ ان يفقد شيئاً من الغاز وعلى هذا المنوال لا تمضي مدة الّا ويفرغ زادهُ ان كان من الغاز وانْ كان من الثقل

قال فرغوسن : هنا معظم المسألة فان المباحثة ليست واقعة في هذه الايام عن ادارة المركبات حيث يُراد ولكن حلّ البحث قائم في الصعود الى العلاء والنزول الى الارض من دون ان ينقص غاز الإدروجن الذي تحويهِ القبة اي من دون ان يخسر شيئاً من قوة القبة الهوائية

قالوا : ولكن ألم يكتشف احدٌ بعدُ هذه الواسطة

قال ساموئيل : بلى

قالوا : ومنو الذي اكتشفها

قال هذا الداعي: ولو اني اكتشفتها لما كنت حملت نفسي على المرد بافريقية لاني لا اسير مدة اربعة وعشرين ساعة الّا ويفرغ الغاز من قبتي

قالوا: ألم تتكلم عن ذلك في بلاد انكلترة

قال: كلاً بل ما زلت لسري كاتماً وقد امتحنت الامر بنفسي وما كنت الفلاح فما الحاجة للتكلم عنهُ

قالوا: أتكرم علينا بكشفك لنا هذا السرّ

قال: سمعاً وطاعة ثم بدا في الكلام واخذ الحاضرون يصيخون سمعاً لخطابهِ



## الفصل الثامن

### في المنى المتقدم ذكرهُ

قال سامونيل : قد طالما اراد اصحاب الفنون ايجاد واسطة للارتقـاء والنزول في المركبة الهوائية دون ان يخسر الراكب غازاً او يرمي من الثقل الذي ثقلهُ معهُ فاعياهم تفتيشهم وذهب سعيهم هدراً

اما الواسطة التي اكتشفتها انا فهي متوقفة على ان ابسط الغاز الموجود ضمن القبة واضغطـهُ حسبما اريد الطلوع او النزول وذلك بواسطـة الحرارة ثم البرودة وهاكم كيفية العمل

لا بد انكم بصرتم مع المركبة بخمسة صناديق لا تعرفون ماذا يفيـد استعمالها فان الصندوق الاول يحوي مائة ليتر ماء واليهـا أضيف بعض نقط روح الكبريت لتزيد كهربائيتها وكما لا تجهلون فان الماء مركب من عنصرين عنصر الإدروجين وعنصر الاكسيجين فبواسطة الالة الكهربائية التي استعملها وهي معروفة باسم صفائح بنزن يسرب الاكسيجين الى صندوق ثانٍ ويدخل الإدروجين في صندوق ثالث وهذان الصندوقان يتصلان بصندوق رابع يدعى صندوق المزج ووصيلتهما لولبان مختلفـا الضخامة وفي هذا الصدوق يمتزج الغازان الناشئان عن انحلال الماء ووسع هذا الصندوق ٤١ قدماً مكعباً وفي اعلاه قصبة من النحاس الابيض لها ايضاً لوالب

وليكن معلوماً عندكم ايها السادة ان آلتي ما هي الا شكل قصبـة يحصر فيها غاز الإدروجين والاكسيجين وتضرم ناراً مستعرة اللهيب اشد تأججاً من نيران اكوار الحدادين واذ تقرَّر ذلك نأتي بذكر الجزء الثاني من الآلة

فمن اسفل القبة الهوائية المتقدمة خلقاً محكماً يخرج انبوبتان مفترقتان الواحدة عن الاخرى بمسافة جزئية فالاولى تبتدئ من وسط طبقــات غاز الادروجين العليا والاخرى من الطبقات السفلى وكلاهما ينزلان الى القارب بل الى داخل صندوق من حديد ذات هيئة عمودية اسمــهُ صندوق الحرارة وهذا الصندوق مغلق بطرفيه بدوائر حديدية ايضاً

فالانبوبة البارزة من طبقــات القبة السفلى تدخل في هذا الصندوق العمودي من الدائرة التحتانية وتتلوّى داخله على هيئة البرغي وقبل ان تخرج من الصندوق تتوجه الى مخروط ذات دعائم مجوفة على شكل طاس كريّ ومن اعلا هذا المخروط تخرج الانبوبة الثانية وهي تتجه الى طبقات القبة العليا كما ذكرته آنفاً وهذا الطــاس الكريّ معمول من الذهب الابيض لئلا يذوب بقوة القصبة حيث انها موضوعة في عمق الصندوق الحديدي في وسط الانبوبة الملتوية على هيئة البرغي وطرف لهيبها يمسّ هذا الطاس الكريّ

فــكلما ذكرته لكم ايها السادة ليس هو الأشبه المدخنة المعروفــة منكم وهي المستعملة لتدفئة المخادع ولايخفى عليكم كيف ان هواء المخدع يمرّ بالانابيب ويستحرّ فيدفأ المخدع

وهــكذا يصير في آلتي فان القصبة اذا سخّنت الإدروجين الكائن في الانبوبة يسخن الطــاس الكريّ ويصعــد الإدروجين بسرعة الى الانبوبة المتوصلة الى وسط القبة الهوائية ثم يحصل الخلا من اسفل ويجذب بذلك غاز الطبقات السفلى فيسخن هنا بدوره ويصعد الى اعلا ويقوم مقامه وهــكذا يتحــكون بين اللوالب والانابيب مسير غاز سريع جداً يخرج من القبة ويرجع اليه مزيد حرارة

والحال ان الغاز يزيد حجماً ٨٠/١ في كل درجة من درجات الحرارة فاذا

تأجج لهيب للحرارة بثمانية عشرة درجة ينبسط الإدروجين بقيمة ٤٨٠/١٨ او ١٦٦٤ قدم مكعب فهنا يزيد قوة القبة للصعود ستة وعشرين رطلًا واذا رفعت للحرارة الى ١٨٠ درجة ينبسط الغاز بمعدل ٤٨٠/١٨٠ فيقوم مقام وسع ١٦٧٠ قدم مكعب وتزيد قوّة صعودها بمائتين وست وستين رطلًا

فمن هنا ترون انهُ يحدث فرق عظيم في ميزانية القبة الهوائية مع اني ازمعت ان ابقيها بمعدل النصف بنوع ان الهواء الذي يقوم مقامهُ الإدروجين يعادل قماش القبة ومحمولها من المسافرين وما يقتضيهِ السفر من اللوازم الضرورية والحالة هذه فان القبة تساوي ميزانية الهواء اي انها لاتصعد في العلا ولا تنزل من تلقاء نفسها

فلكي اصعد ارفع الغاز الى درجة حرارة عالية بواسطة القصبة فمن زيادة الحرارة يمتد غاز الكرة الهوائية وتتقبب وترتقي الى العلاء

واما وقت النزول فاني اخفف حرارة القصبة فالارتقاء كما ترون يكون اسرع من النزول وهذا من الفوائد حيث ان الاخطار هي على الارض وليس في العلاء ومع هذا كلهِ فاني حملت كمية من الثقل حتى اذا لزم الامر القيتهُ خارجًا لارتقي بسرعة واما اللولب الكائن في اعلاء المركبة فلا امسهُ بل تبقى القبة الهوائية حافظة الغاز الذي املأها بهِ وما احدثهُ من الحرارة والبرودة في هذا الغاز هو الذي يرفعني وينزلني

ولزيادة الايضاح اقول: ان من احتراق الإدروجين والاكسيجين في طرف القصبة يحصل بخار الماء فوضعت في طرف الصندوق العمودي انبوبة لها لولب اذا اضغطت ارتفع منها البخار

وهاكم الارقام بالتمام

ان مائة واثني عشر ليتر ماء اذا انحلّ عنصرها احصلت ٣٣ رطلًا من

الاكسيجن واربعة ارطال من الادروجين فيكون ذلك بمعدل ٧٠ مترًا مكعبًا من الاكسيجن و١٤٠ مترًا مكعبًا من الادروجين وبجمع العنصرين يكون ٢١٠ امتار مكعبة

فاذا فُتح لولب القصبة فتحًا تامًا يُشعل قدر متر مكعب في الساعة واللهيب يكون اشد سعيرًا من لهيب الاتوار النارية بست مرات في المعدل الاوسط اذا لم ارد ان ارتفع الى علو شاسع لا اوقد الا قدر ثُلث متر مكعب في الساعة فالمائة والاثني عشر ليتر ماء التي ذكرتها تكفيني اذًا لسير ستمائة وثلاثين ساعة او بحو ستة وعشرين يومًا

والحال بما اني اتمكن من النزول ايما شئت فاستطيع ان اتزود ماء واستمر سيري قدرما اشاء

فهذا هو سري ايها السادة الكرام فانه سهل جدًا ويتكفل بالنجاح ان شاء المولى وواسطتي الوحيدة هي امتداد الغاز وتقلصهُ وهذا لا يلزمهُ حركة آلية كالاجنحة او خلافها بل ان هي الا مدخنة اعيد بها الحرارة واقيم مقامها البرودة وبالعكس ثم قصبة لتسخين المدخنة واظن اني جمعت بذلك كل ما يلزم لنجاح رحلتي

فاني سيد قبتي ومولاها لاني اصعد متى شئت وانزل متى شئت واقف متى ما شئت وخصوصًا اذا تهددتني مهبات الرياح باندفاعي الى اماكن لا توافقني

فقال السردار وستلقى منها ما يدفعك في برهة ساعة الى مسافة مائتين واربعين ميلًا

قال فرغوسن فترى هكذا انهُ بهذه السرعة يجوز الانسان افريقية في مدة اثني عشرة ساعة فانهُ ينهض من فراشه صباحًا في زنجبار ويذهب ليبام

في مدينة سن لويس في الجهة المقابلة

فقال صاحب وهل يمكن ان تُدفع القبة الهوائية بسرعة كهذه

قال فرغوسن وقد جرى ذلك في الامتحان

قال الصاحب وهل لم يمس القبة ضرر

قال فرغوسن كلا وقد جرى ذلك عند تكليل نابليون الاول سنة ١٨٠٤ فان العلامة غرنين دفع قبة هوائية من باريز الساعة الحادية عشر مساء (قبل نصف الليل بساعة) وكان مكتوباً على تلك القبة باحرف ذهبية العبارة الآتية باريز في ٢٥ فريمير (هو شهر لمشيخة افرنسه مدته من ٢١ تشرين الثاني او ٢٢ حسب السنين) من السنة الثالثة عشرة لتكليل الامبراطور نابليون الاول

في الغد صباحاً الساعة الخامسة (قبل الظهر بسبع ساعات) شاهد سكان رومة تلك القبة الهوائية تحوم فوق الواتيكان وبعد ان طافت حول الحقول برهة سقطت في بحيرة براشيانو فرايتم اذاً ايها السادة ان القبة الهوائية تعادل هذه السرعة العجيبة

فقال ديك نعم يا ايها العلامة ان القبة تباري هذه السرعة واما الانسان فلا يتمكن من ذلك

قال فرغوسن ولماذا فان القبة الهوائية غير متحركة بالنسبة الى الهواء المحيط بها وليست هي التي تمشي بل الهواء نفسه ولو شعلت شمعة وسط القبة المذكورة فلم يكن يرتج الضوء قط فيها ولو فرضنا ان راكبها انسان فلم يكن يذوق ادنى اضطراب او اختلاج واما انا فليس من نيتي ان امتحن مثل هذه الامور بل ايها لقيت شعوة عالية ارسيت مركبتي عندها وبت ليلتي كلها وقد حملنا زاداً يكفينا مدة شهرين واذا طالت معنا الرحلة اكثر من ذلك على

معنا صياد مشهور يضنينا بزاده اذا اشغل قليلاً

قال احد الضبـاط وهو ينظر الى ديك : سوف تشتهر في تلك البلدان بصيدك ياسيدي

فقال آخر : وفضلاً عمـا تشعر من اللذة وقت الصيد فان مسـاعيك ستتوجك بتاج النصر والمجد

فقال ديك : ايها السـادة اتشكر . . . معروفكم . . . على تهنئتكم اياي ولكني لست اقبلها . . .

فقال كثيرون سوية : فاذاً لست عازم على الرحيل

قال : كلاَّ

فقال واحد : ولا تصحب العلاَّمة فرغوسن

قال : ليس فقط لا اصحبهُ بل انني اتيت معهُ لاصدهُ عن مقـاصده .

فنظر جميع الحاضرين حينئذٍ الى العلاَّمة فرغوسن كأَنهم يستفهمون منهُ عن رائهِ في ذلك فقـال ساموئيل : لاتلتفتوا اليهِ ولا تجـادلوهُ عن ذلك . لانهُ يتظاهر انهُ لا يريد السفر ولكن في قلبهِ يعرف جيداً انهُ يسافر بلا شكٍ

فصاح ديك وقال : وحياة رأْسك سافعل . . واصدك . . .

فاردف فرغوسن قائلاً : لن تفعل شيئاً يا ديك لانك معـيرٌ وموزون بجسـمك وبارودك وبواريدك ورصاصك فارجوك اذاً ان لا تقول شيئاً

فسكت ديك ولازم الصمت منذ تلك الدقيقة الى حين وصولهِ الى زنجبار ولم يعد يتكلم عن رحلتهِ ولا عن شيء آخر

---

# الفصل التاسع

## في وصول المسافرين الى زنجبار وارتفاع القبة الهوائية الى الطبقات العلوية

وكانت الريح موافقة لمسير السفينة ومياه البحر رائقة لا يهيجها هائج فكان اهل السفينة يتفألون بهذا على ان الرحلة الجوية تكون طبق الرحلة البحرية انتظاماً وهدوءاً وقد عيل صبر الملاحين ليبصروا تلك الساعة التي فيها يركب العلامة ورفقاؤهُ المركبة الهوائية ولما دخل اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ارست السفينة في مينا زنجبار وهي مدينة في جزيرة اسمها زنجبار ايضاً وكان ذلك قبل الظهر بساعة

اما جزيرة زنجبار فهي زمام امام ممتلكات حليف الدولة الفرنسية والانكليزية ويطرق ميناها سفن عديدة من البلاد المجاورة لها وهي معروفة عن بر افريقية مزدرع ليس بمتسع وسكانها يتاجرون بالمر والعاج وخاصةً بخشب الآبنوس وهذه البلاد ايضاً مقرٌّ لبيع العبيد وسوقهم رائج فيها لان فيها تحتشد الغنائم التي يكتسبها رؤساء اقوام افريقية الوسطى بغاراتهم بعضهم بعضاً ويعرضونها للبيع وهذه التجارة ممتدة جداً حتى عند ارياف النيل (١)

عند وصول السفينة الى زنجبار اسرع قنصل الانكليز لاستقبال

(١) ان اهل الخير ساعون كثيراً في هذه الايام في نسخ هذه العادة السيئة التي تستنكف منها كل طبع سليم وقد نجح مسعاهم اذ حُرمت تلك التجارة شرعاً ووُضع قصاصٌ على المخالفين

العلاّمة فرغوسن في منزلهِ لانهُ كان عارفاً بمقصدهِ بمطالعتهِ الصحف الاوربية وهو من جملة الذين ادخلوا رحلتهِ في طي الخزعبلات والخرافات واول ما شاهد العلاّمة وقرأهُ السلام قال لهُ: كنت في شكٍ وعلى ريب من رحلتك ولكن تبين لي الان انك مزمع على تنفيذ اربك فزال مني الشك وتحققت نجاح مصلحتك

فطلب العلاّمة من القنصل استعلامات عن القبطان اسبيك السائح الانكليزي فبلغهُ القنصل تحاريره ورأى انهُ متعب جوعاً وعياء وبالكاد يمكنهُ ان يقدم في المسير على الهويناء

قال حينئذٍ ساموئيل: اننا بحولهِ تعالى سنتجنب هذه الاخطار والويلات ولا نرى منها ما ينقص رحلتنا

ولما تأهب العلاّمة لتنزيل قبته الهوائية من السفينة بلغ بعض الناس القنصل ان لا يعمل ذلك في المدينة لان سكانها يمانعونها بالقوة الجبرية ولعمري لا شيء اقبح من الشهوات المتعصبة تعصباً لا طائل تحتهُ فانهُ لما عرف سكان الجزيرة بقدوم رجل مسيحي يريد ان يطير في الجو غضبوا وحنقوا وهاجوا وماجوا اما الزنج فاخذ منهم الغضب اشد مأخذاً من العربان لانهم رأوا بهذه الرحلة ما ينافي دينهم وظنوا ان القبة تطير قاصدة الشمس والقمر وتضر بهما وبفعل راكبوها بهما ما شاؤوا فكيف يتركون ذا الامر والشمس والقمر لديهما بمقامٍ سامٍ واعتبارٍ فائق فصمموا النية على مقاومة هذا العمل بجميع قواهم وحرفهم

ولما علم القنصل بجميع ذلك اطلع العلاّمة وقبطان السفينة عليهِ اما قبطان السفينة فقال: لا يمانعنا شيء ولا نخشى احداً. فقال لهُ القنصل: يا صاح اننا نفوز بالنصر والغلبة على العربان والزنج وخاصة لان عسكر الإمام يمدون لنا

ساعد الاسماف ولكن لا يخفى على حضرتك ان سهماً واحداً اذا اطلق على القبة اذهب بقوتها وفاعليتها وبطلت الرحلة فيلزم اذاً ان نتصرف بتأنٍ واحتراز علّنا نبدد هذه المصاعب ونزيلها

قال القبطان: وما العمل فانيا اردت ان تركب تجد نفس المانع

قال القنصل: لا شيء اسهل من انكم تنقلوا القبة الى الجزائر الصغيرة التي تردنها بعيدة عن هذه المدينة وهناك لا يصدكم احد البتة

قال سامونيل: هذا رأي صحيح فانا هناك نبقى احرارًا لا يستعبدنا العبيد باهوائهم الخسعة

وبعد ذلك الحديث توجهوا حالّا ونزلوا جزيرة كبي وجعلوا القبة في عمة فسيحة وسط غاب ثم صنعوا صاريين كبيرين يبلغ طول الواحد ثمانين قدماً ووضع الواحد بعيداً عن الآخر بمسافة طول الصاري وفوقهما البكرات وعليها الحبال وهكذا رفعوا القبة وكانت اذ ذاك غير منفوخة والقبة الصغيرة داخل القبة الكبيرة وترتفع كما ترتفع هذه وادخلوا الانبوبة التي منها يدخل الإدروجين عند طرف كل من القبتين واما اليوم السابع عشر من الشهر المذكور فقضوهُ في تجهيز الآلة لاحصال الغاز وكانت مؤلفة من ثلاثين برميلًا وفيها يُحلّ الماء بمرادة الحديد والحمض الكبريتي (اسيد سلفريك) الموضوعين في كمية وافرة من الماء والادروجين يصل قبلًا الى برميل في وسط البراميل بعد ان يُغسل في طريقهِ ومن هناك ينفذ في الانابيب حتى يصل الى القبة وهكذا تمتلئ القبتان بكمية محدودة من الغاز

وقد تطلب هذا العمل ثلاثة الاف ومائتي ليتر من الحامض الكبريتي والفين وستمائة وثلاثة وسبعين رطلًا من الحديد وواحد واربعين الف ومائتي ليتر من الماء فابتدأوا بهِ في الليلة التاسعة واستمر نحو ثماني ساعات وفي الغد

كانت تتمايل القبة في الهواء فوق الزورق وقد ثُقل عليها باكياس كثيرة من الرمل

ثم رفع العلاّمة آلتهُ لامتداد الغاز وانقباضهِ باعتناء جزيل وبعد ذلك وضعوا في الزورق لوازم السفر كما ذكرناها قبلاً

وقد تمّ هذا الشغل نحو الساعة العاشرة من النهار وكانت الحراس تسهر حول الجزيرة لئلا يطرقها احد من العبيد ام من العربان

اما الزنج في جزيرة زنجبار فكانوا يصيحون باصوات الغضب والحنق ويطوف السحرة فيما بينهم ويبثون فيهم روح الغضب واراد بعض المتعصبين ان يأتوا الجزيرة بالسباحة لكنهم مُنعوا عن ذلك حالاً

وبدأ الرقاؤن والسحرة حينئذٍ في المناداة الى السماء لتنزيل الامطار والحجارة الحارة ( والحجارة الحارة بمعنى البَرَد في تأويل اهل زنجبار ) ولاتمام ذلك اخذوا اوراقاً من جميع اصناف اشجار المدينة وغلوها على نار خفيفة وفي غصون الغليان ذبحوا خروفاً وادخلوا في قلبهِ دبوساً كبيراً لكن السماء ما زالت رائقة رغماً عن طقوسهم المضحكة وما ربحوا الّا خسارة الخروف واتعابهم الباطلة

فجعلوا وقتئذٍ يشربون المسكرات ويغني كلٌّ على ميله بدون ترتيب ولا انتظام

ولما كانت الساعة الحادية عشرة من النهار اخذ المسافرون يتناولون الطعام وكان جالساً معهم القبطان وجميع الضابطة واما ديك فكان يدمدم في شفتيهِ ويتمتم بعض الكلمات الغير المفهومة وعينهُ كانت شاخصة دائماً بالعلاّمة فرغوسن

اما الحزن فكان خاطاً رسومه على وجوه جميع الحاضرين لان الافكار

اخذت في الانشغال من دنو الساعة الخطيرة وبدأ جميعهم يرددون في فكرهم ما عسى يحل بهؤلاء المسافرين الابطال وهل يا ترى يعودون الى الاوطان ويشاهدون الاخدان واذا حلّ بهم ويلٌ واضطروا الى النزول بين البرابرة فما تصبح حالتهم

اما العلامة فرغوسن فكان يحاول ان يتخلص من الأسف الذي لاحت لوائحهُ على جميع الوجوه لكنهُ لم يستطع ذلك فتاقل بعض الكلام مع رفقائهِ ولكنها كانت عرية من كل رونق وبهاء

ولما امسى المساء ذهب العلامة ورفاقه ورقدوا في السفينة لئلا تصيبهم مصيبة وعند الصباح والشمس اذ ذاك قد بزغت اشعتها والنسيم رخيم نزل جميع ركاب السفينة في الجزيرة ووقف عشرون ملاحاً عوضاً عن اكياس الرمل التي كانت ماسكة القبة

وفي تلك الساعة وقف ديك امام العلامة وخاطبهُ قائلاً : أعزمتَ عزماً ثابتاً على السفر

قال العلامة : ولا شكّ في ذلك

قال ديك : فاني قد بذلت جهدي لاصدك عن رحلتك وما بقي عليّ عتاب ولا لائمة ولهذا ارافقك في رحلتك

قال العلامة : كنت متوكداً ذلك فلك الفضل الجزيل يا ايها الخليل

ولما وافت ساعة الوداع تعانق الاصحاب مع الاصحاب ثم ركب المسافرون المركبة نحو الساعة الثالثة من النهار فشعل العلامة القصبة فتمتدّ الحرارة وسط القبة الطيارة وبالحال ارتفعت هذه القبة عن الارض نحو عشرين قدماً اذ ارخى الملاحون شيئاً من الحبال التي كانوا متمسكين بها

ثم وقف فرغوسن ورفع البرنيطة عن رأسهِ وقال : فلنسمِّ مركبتنا باسم

يوليا الحظ والسعادة ولقبها المنصورة ( فـكتوريا ) فصاح الجميع قائلين فلتحي الملكة فكتوريا فلتحي انكلترة

واذ نمت قوة الحرارة وقد ودع المسافرون رفاقهم الوداع الاخير قـال ساموئيل : ارخوا الحبـال جميعًا وسوية فارتفعت المنصورة الى العلاء واطلقت السفينة المدافع اكرامًا لها واجلالًا للمسافرين فرنت اصواتها في الافاق



# الفصل العاشر

في مرور المسافرين في بلاد عديدة وبيتهم على شجرة الصبّار
فوق جبل دنتوي

ولما ارتفعت المنصورة الى الاعالي كانت الريح لطيفة والجو رائقاً فعلت نحو الف وخمسمائة قدم فوق الارض بخط مستقيم وقد عرف ذلك ساموئيل من انحطاط البارومتر بخمسة سنتيمترات تقريباً (١) وبعد وصولهم الى ذلك العلو تغيرت الريح قليلاً ودفعت القبة نحو جنوبي غربي افريقية

وكان يتراءى لاعينهم مشهد من اجمل المشاهد اذ ان الحقول كانت متجانسة الالوان والاشكال والاشجار المتمائلة الاوراق تجب النواظر وجزيرة زنجبار كأنها بقعة مستوية الارض وسكانها كأنهم هوامٌ وتتصاعد اليهم اصوات صراخ متواصل من اهل تلك الجزيرة

فسأمت نفس يوسف من السكوت في تلك الفرصة فقال : يا لهُ من مشهد جميل تطيب لهُ الخواطر ويروق الناظر

فلم يجبهُ احد على مقالهِ لان العلامة كان مهتماً بمراقبة التغييرات البارومترية ويدقق الفحص عن تفصيل صعوده وغير ذلك اما ديك فكان يحدق النظر متأملاً ذلك المشهد الغريب العجيب حال وجوده في الفضاء بين الارض والسماء

ولما كانت اشعة الشمس شديدة الحرارة وازرت قوّة القصبة فعلت القبة

---

(١) كلما انحط البارومتر سنتيمتراً يكون راكب الهواء قد ارتفع مائة متر تقريباً

عن الارض نحو ٢٥٠٠ قدم

ولم تعد جبيد تبين السعية لبيهم الاكتارب صغير وكانت رعوة البحر الاحمر تحيط وحدها تخم الافريقيـة العربي والارض الافريقية ملطخـة بنقع حصرا فقال يوسف لرفيقيه ما بالكما لا تتكلمان فاحد العلامة طارة وبدا يتطلع نحو الارض وقال الآن وقت النظر علينـا ان ننظر ما ينبسط لابصارنا

قال يوسف اما انا فلا اطيق السكوت

فقال له سيده تكلم قدر ما تشاء فانك بالكلام جدير

وعليه طفق يوسف يُعبر عما ادركه من الاندهال بازاء كلما يعلمهُ من الفاظ الهتاف والعجب

وفيما هم يجوزون البحر اراد العلامة ان يلبثوا محافظين على ذلك العلو وكان امامهُ ترمومتر وبارومتر فيراقبهما دائما ليعرف على اية حالة هم في الطبقـات الجوية بل وبعض النظر في هيئة جانب افريقيه الشرقي

وما مضى ساعتان الا اندفعت الريح الخفة الطياره الى فوق البابسة واراد العلامة ان يقترب من الارض فخفف حرارة القصبة ونزل حالا الى علو ٣٠٠ قدم فوق الارض وحينئذ وجدوا فوق الجهة الشرقية المعروفة باسم مريغا وهناك اشجار باسقة ملتفة الاغصان والورق ومغروسة العروق وفي الجهة الغربية كان جبل أسورو

فمرت المنصورة بقرية عرفها العلامة قرية مولة سندًا على الرسوم الجغرافية الواردة في الخريطة الكبيرة التي حملها معهُ وفيما هم فوقها سمعوا صجيجًا وصراخًا عظيمًا من سكانها ومنهم من رشق القبة بالسهام فكانت تميس باعينهم عائمةً فوق سهامهم وروعتهم ساخرة

وما زالت الريح تدفع القبة نحو الجنوب فرأى العلامة ان لا بأس بذلك فلته تابع الطريق التي سلكها القبطانان برتون واسبيك

لما كادي خـدى اخيراً حذو يوسف واحب كثرة الكلام فاخذا يتناقلان الاحاديث ويقول الواحد للآخر كيك يا صاح أليس انك تكره العربات والسمن برؤيتك هذه المركبـة الهوائية فقال ديك حتى والسكة الحديدية فيجب وافقة عليها لان الراكب يسير ككتة لا يشاهد ما يمرّ امامه

فقال يوسف : قل ما احلى القبة الطيارة فاننا نطير على اجنحة الهواء ولا نتعب ولا يشق علينا المسير والطبيعة منتشرة امامنا فنطالعها بابصارنا متأملين ونسبح رب العالمين

قال ديك : وما اجمل هذا المنظر وما احلاه وما ابهى هذه الطامة البهية لعمري أكاد اظن نفسي غريقاً في بحر اضغاث الاحلام

فقال يوسف : ان عصافير بطني تصيح مهلاً تريدون ان تتناول طعـاماً

فقال سيده : نعمَ ما افتكرت بهِ فهات ما نأكل

فاحضر يوسف الطعـام حالاً وهو حار ولحم مقدَّد وبعدما انتهوا من الطعام قام الخادم وصنع قهوة لذيذة المشرب حسب معرفته الخـاصة وذاق جميعهم لذة افراح سنية تطيب لها الخواطر

ثم اخذ كلٌّ منهم ينظر الى تلك البلاد ويتأمل بها فكانت غاية الخصب والرونـان ومزدانة بوساد الخضرة والازهار ثم مرّوا بحقول مزروعة تبغاً وذرة وشعيراً وهي بالغة ناضجة وشاهدوا ايضاً قطعان غنم كثيرة العدد محوطة ضمن دائرة لتبقى آمنـة من غوائل الضبـاع فكلما مروا بسكان قرية سمعوا ضجيجاً واصوات حتى تتصاعد الى المنصورة . اما العلامة فما زال مرتفعاً عنهم

بمسافة لاتبلغ اليها السهام وكثيرًا ما لحقها الناس وهم يقذفونها بالشتائم واللعنات لكنهم لا يدرون ما يفعلون وما ابلد عقلهم

وبعد الظهر تطلع ساموئيل برسومة الجغرافية فرأى انهُ فوق مدينة اوزارامو وفي هذه الناحية ايضاً كان الزرع كثيراً والحصاد فارشة تلك الارض والطيور تصدح بالانغام على الاشجار فتمنى ديك لو انهُ استطـاع ان يصطاد منها شيئاً ولكن ما الفائدة اذ لا يطيق احضارها ولو ضربها بالرصاص

وكانت القبة الطيارة تسير مسافة ١٢ ميلًا اونحيًا في الساعة ولم تمض مدة الّا وصلوا الى طول ٢٠ ٣٨° فوق قرية طُبدا

فقال فرغوسن يا رفاق انظرا فان برتون واسبيك انتليـا بالحمى في هذا المحلّ وظنا ان اتعابهما السالفة ذهبت هدرًا ولا يستفيدان شيئاً من بعد فاذا كان التعب والضنك اعيـاهما بوصولها الى هـا فكيف اذًا بتقدمهما نحو ينابيع النيل واضطرارهما الى خوض البطاح والمفاوز التي لا حدّ لها ولا قياس

وكثيرًا ما مرّوا باقوام متسلحـين بالمكاحل ورآوهم يتمون المنصوبة بقصد رشقها بالسهام . فاراد ديك مرة ان يقترب اليهم ليشاهدهم عيانًا فمانعهُ العلامة وقال : ألا تعلم انهم اذا ضربونا بسهمٍ وخرقوا القبة تبدد الغاز وسقطنا على الارض متهورين

فقال ديك : دعنا اذًا بعيدين عن هولاء المحـابين ولكن يا ترى ماذا يحسبوننا ونحن طائرون في هذا الفضاء الفسيح فلا بد انهم يعبدوننا

قال ساموئيل : دعهم يعبدوننا عن بعدٍ فاننا بذلك نربح الاضعاف ولكن الا ترى الان كيف عزّ القرى والضياع فعن قريبٍ نصل الى جبال لا سكان فيها ولا خضار

قال : في الحقيقة اني ارى بعض الاكـام نحو تلك الجهة

قال ساموئيل : وعن قريب نرى سلاسل جبال اوروزارا وجبل دوتومي واومل ان نقضي ليلتنا وراءه ولكن ينبغي لنا الان ان نزيد حرارة القصبة لترتفع الى علو خمسمائة او ستمائة قدم فنجوز منرى الجبل بسهولة

ولما ارتفعوا الى العلاء شاهد يوسف اشجاراً باسقة عظيمة فقال ويلاه ما اعظمها واجسمها فان عشرة منها تكفي لان تؤلف غاباً او حرشاً

قال فرغوسن : هذا شجر البوباب فان منها ما له جزع تبلغ دائرته نحو مائة قدم وانظرا هذه الشجرة العظيمة فعليها رُبط الفرنسي مزان سنة ١٨٤٥ واخذ رئيس القوم الذي القى عليهِ القبض في ان يقطع مفاصله شيئاً فشيئاً وكانت الخدام اذ ذاك يرتلون ترتيل الحرب ثم حسم حنجرته واخيراً انتشل رأسهُ وكان للفرنسي مزان من العمر نحو ٢٦ سنة فأُفتِرَ على هذه القساوة البربرية التي تستنكفها القلوب ولا يطاق سمعها

فقال كنادي : وكيف ان الامة الفرنسية لم تنتقم لهذا الاثم العظيم

قال ان الامة الفرنسية طلبت القاتل فعمل سعيد زنجبار ما عمل وبذل اقصى جهده فلم يحظى بالقاتل

ولما كانت الساعة السادسة ونصف بعد الظهر قابلت المنصورة جبل دوتومي فاضطر العلامة الى ان يرفع القبة الى علو ثلاثة الاف قدم وهكذا مروا بالجبل ولم يمسهم ضرّ البتة

وفي الساعة الثامنة بعد الظهر نزلوا المنحدر المقابل للجبل ورموا حينئذٍ المراسي فتعلق احداها باغصان شجرة صبار عظيمة وبقت متمسكة بها . ثم نزل يوسف للخادم بحبل المرسى ومكنهُ تمكيناً ولما اراد الرجوع الى الزورق أُنزل لهُ السلم الحريري فعاد الى مكانهِ بكل سهولة ثم اخذوا يهيأون العشاء لان الطبقات الجوية فتحت منهم القابلية فسأل ديك العلامة وقال كم جزنا من

المسافة في هذه المدة

فاخذ العلامة يفحص عن ذلك في الرسم الجغرافي المسطر من صاحبه بترمان وهو في غاية الضبط والدقة فرأى انهُ انتقل الى درجتين عرضاً وهما مسافة مائة وعشرين ميلًا

وفيما هم يتناولون الطعام تفاوض بعضهم مع بعض على ان يقسموا الليل الى ثلاثة اقسام وكلّ واحد منهم يسهر في قسم والاثنان يرقدان براحة فسهر العلامة في القسم الاول وكادي في نصف الليل ويوسف عند الفجر

## الفصل الحادي عشر

في حمّى ديك ودوائها ونزوله الى الارض،
مع يوسف طلبًا للصيد

قضى الليل كلهُ بالهدء والاستكانة ولكن لما اصبح صباح السبت نهض ديك من الفراش وقد حسَّ بتصبر وخمول قوّة ورجفة حمى وكان قد تغير الفلك وتبقعت السماء بالسحب وتهددت الارض بالغيث والعواصف لما تلك النواحي المعروفة باسم زنغمرو فلا تزال فيها الامطار متواصلة في جميع فصول السنة ألّا في شهر كانون الثاني فانها تنقطع مدة نحو خمسة عشر يومًا

وما مضت برهة ألّا هطلت الامطار وسالت السيول في تلك الوديان

فقال يوسف: وما ادرى ما هذه البلاد فاني ارى ديكًا منحرف الصحة بعد مرور ليلةٍ عليهِ

فقال الصياد: في الحقيقة اني اشعر بحمى شديدة

فقال ساموئيل: لا بدع في ذلك يا صاح لان هواء هذه البلاد من اسوء ما يكون في البلاد الافريقية وليس مرادنا البقاء فيها بل هيا بنا نسير الى اعلى الطبقات الجوية

وفي الحال نزل الخادم ورفع المرسى ثم عاد الى محلهِ ووفّر ساموئيل حرارة النار فتصاعدت المنصورة الى الاعالي وهي مدفوعة بريح شديدة

ولما اندفع الى ما قدام اخذت البلاد في الاتسام بهيئة جديدة ومن الامور الكثيرة الحدثان في الاقطار الافريقية ان بلادًا تعليقة وحسنة الاهواء

لحم ملاذاً سيئة المناخ والاهواء

وما زالت للحمى تمدب الصياد عدلنا اليا مالتعب مالحاف قائلا الآن ليس وقت الصعب فما لي وله

فقال ورعوس مهلا يا ديك عليك ان تعتصم بحل الصبر قليلا وعلي ان ارمك عد رهة تقدرة المولى

فتعب ديك من هذا المقـال وقال لعمري اذا كنت طبيبا وعندك الادوية والعقـاقير فارحوك ان تداوي حالا لان صدري قد عيل واحب ان اكون سالم الصحة في هذا الرحيل

قال سامويل ساداويك بدوا لايكلفني شيا

قال وكيف ذلك

قال ولا اسهل من ذلك فاني عا م على ان ارتقي فوق هذه السحب واتبعـد عن هذه الطبقة الوبائيـة فقط ارجوك ان تصبر علي عشر دقائق لأنشر النار

وما مضت الدقائق العشر الا ارتفت القبة فوق الطبقة الرطبة واشتم ديك نسيم هواء رحيم ينعش الفؤاد فترمم حاله ورأى نسمة مقبلا على الصحة

فقال يوسف لعمري ان هذه الادوية العجيبة

قال العلامة بل هو امر طبيعي لا عجب فيه

قال يوسف حاشاك اعلم بذلك

قال العلامة كما ان الاطبـاء توعز الى المرضى ان يرتحلوا من محلات الاهواء السيئة الى محلات الاهواء السليمة ليشتفوا رائحتها ويتمشوا بها هكذا انا ارفع ديك الى طبقات الهواء السليم ليشفى من دائه

فقال ديك وما اجمل من هذه المركبة الهوائية فانها سكردوس ارضي

قال يوسف: لا بل تهدينا اليهِ

اما المرأى الذي ابسط لاعين الناظرين فكان بهياً جميلاً اذ السحب تطوي بعضها على بعض وتعكس اشعة الشمس عليها فتجمل منظرها ثم ارتفعت القبة الى علو اربعة الاف قدم ولم يعودوا ينظرون الارض بل شاهدوا في الناحية الغربية ذرى جبال رويبهو وهي على حدود بلاد اوغوغو في درجة ٣٦°٢٠ طولاً. اما الريح فكان مهبها شديداً وتدفع المركبة الى عشرين ميلاً في كل ساعة اما هم فلم يشعروا بسرعة مسيرهم بل كأنهم جالسون على هودج لا يحركهُ محرك

وغب مرور ثلاث ساعات تم انذار العلامة فرغوس ونزل ديك من سقفهِ ثم فطر بقابلية ومسرة

ثم قال: هوذا ما اعتضت به عن سلفات انكيتا وعندي انهُ افخر منهُ

قال يوسف: نعم الهواء هواء هذه الطبقات وان شاء المولى سآتي اليها لاقضي فيها آخر ايام حياتي

ولما كانت الساعة الثالثة من النهار صحت السماء وتبددت السحب في الافاق فشرعت المتصورة تدنو من الارض شيئاً فشيئاً واراد ساموئيل ان يجد ريحاً تقيدهُ الى شمالي شرقي افريقية فوجدها في علو ٦٠٠ قدم فوق الارض وغب مرور برهة بان امامهم جبل

وفي تلك الساعة اخذت ذرى الصخور في الارتفاع واقتضى الحال ان يحذروا في كل دقيقة من رؤوس بعض الصخور التي كأنها تهددت المركبة

فقال ديك: ان قبتنا فيما بين هذه الصخور كالسفينة التي تسير بين الصخور المتوارية في المياه

قال العلامة: طمن بالك يا ديك فان هذه رؤوس الصخور لا تمسنا

فانفذت المنصورة تمرّ بين ذرى الصخور والجلاميـد ولا يمسها ضرر ولا عارض

ثم قال فرغوسن: لو كنا سرنا مشاةً في هذه الاراضي المائية لخضنا في في بحر حماة لا مـــاص منهُ ولا مفر ولكانت تضورت دوابنا عياءً وتعباً مُذ خروجنا من زنجبار الى هذه الناحيـة وكنا اصبحنا ضعفاء الجسم نحيفي البدن وهيهات ان يجلدنا الصبر ويولج فؤادنا التجمل وأنّى مني من احصاء المصائب الكثيرة والمشاق العديدة التي تحيق بالمســافرين في النهار حرٌّ لافح مضنك يكاد المرء لا يطيق احتماله وفي الليل برد قارس يلسع الجسم فلا يتمكن من مقاساته ومع هذا كلهِ لا تخلو من الذباب التي قيل عنها انها تخرق الاقمشة واذ لسعت البدن حبلت عقل الانســان هذا مع قطع النظر عن الوحوش الكاسرة والاقوام البرابرة

قال يوسف: اسأل لطف المولى ان لا يرميني في هذه المهوات

قال ســاموئيل: لعمرك اني لم اغالي في الوصف بل اذا سمعت قصص السواح ورواياتهم في رحلاتهم الافريقية اغرتك على سكب ماء العيون من الجفون

ولما كانت الساعة الواحدة قبل الظهر مروا بحيرة إيجيجي والاقوام اذ ذاك في تلك النواحي يتهددون المنصورة بالسلاح فلم يظفروا بالنجاح ثم وصلوا الى الارض المموجة الكابية قبل جبل روبهو وهناك السلسلة الثالثة السلمية من جبال اورلغارا

فاخذوا يتأملون جيداً هيئة تلك الجبال فكانت الاقسام الثلاثة مفروقة بعضها عن بعض ببطاحٍ فسيحة وبين الصخور والجلاميد ترى الحجارة والحصى مشتتة ومبعثرة . فالجهة المقابلة لزنجبار هي ذات منحدر وعر جداً واما في الجهة

الغربية فالمنحدر لا يشبههُ بل هو ساحات منحنية قليلاً ولا تخلو من الجداول التي تصب في نهر كنغاني في الجهة الشرقية حيث اشجار الجميز وتمر الهندي والنخل والقرع متكاثرة بل على هيئة رياض

فقال ورغوس : علينا الآن ان نأخذ حذرنا من هذا الجبل العالي وهو جبل روبيهو الذي تأويلهُ في عرف اولئك الاقوام ( مرور الرياح ) فينبغي لنا ان نرتفع الى العلاء وعلى ظني اذا ما وصلنا الى علو ٥ الاف قدم فقط فلا نجو من الخطر ولا نظفر بالوطر

فقال يوسف : وهل كثيرًا ما يقتضي الحـال ان نصعد الى مثل هذا العلو الشاهق

قال ورغوس : كلاً لان جبال افريقية ليست سامية الارتفاع كسائر جبال اوربا واسيا اما نحن فانا ولها اذ لنا عرجها يقتنا دون صعوبة وعلى الاثر اسعر العلامة النار فازدادت الحرارة ودفعت القبة دفعًا هائلاً حتى اوصلتها الى علو ستة الاف قدم

فسأل الخادم سيده قائلاً : أنجوز هذا الحدّ من العلو

اجاب سامويل : اذا كانت القبـة كبيرة فيتمكن الانسان من الصعود الى درجة اسمى من هذه كما فعلهُ بريوسكي وغاي لوساك ولكن اخذ الدم يمج من انافهما واذانهما وعدما التنفس ومنذ بضع سنين تجرأ رحلان افرنسيـان على الارتقاء الى الاعالي فاخترقت قبتهما . . .

فسأل ديك حالاً وقال : هل سقطا على الارض

قال سامويل : لا شك في ذلك لكنهما سقطا سقوط العلماء الذين لا يمسهم ضرر البتة في سقوطهم

فقال يوسف : سـادتي انكم احرار اذا اردتم تجربة هذا الامر اما انا

قلست بعالم بل جاهل واوثر ان ابقى في الحالة الوسطى وقد قيل حب التناهي غلط خير الامور الوسط ولا اود ان ابقى في علو باسق ولا في وطوء دني فان الطمع ضرَّ ما نفع

ولما بلغوا علو ستة الاف قدم اخذ يخف ثقل الهواء ولم يعد الصوت ينتقل الا بصعوبة كلية واختلطت الاشياء على بصرهم فامسوا لا يشاهدون الا اجراما غير مختلطة ولا تبين الطرق الا كشبالك والبحيرات الا كاحواض

وكان الهواء الجوي يدفعهم فوق الجبال المكسوة ذراها بالثلوج كلها باقية على حالتها الاولى من يوم خلقها المولى سبحانهُ وتعالى

ورسم فرغوس هيئتها وجميع ما يجاورها بتمام الضبط والدقة

ثم نزلت المصورة الى منحدر جبل روبيهو وكان هناك غاب واحراش فيها من الاشجار اعظمها ولحصار اعجبها واغربها فدنا سامويل من الارض والقى المراسي فتعلق احداها بشجرة جميز . ثم نزل يوسف ومعكهُ باعتناء وترك سامويل القصبة في حالة الحرارة ثم قال للصياد : اذهب للصيد انت ويوسف فعليكما ان تاخذا سلاحكما وتصطادان ما يحلو لخاطركما لتمتدي الان بين هذه الاحراش ونتشرح برهةً

فنزل حالًا الى الارض ولما خفت القبة ثقلًا تمكن فرغوس من اطفاء نار القصبة

فقال لهُ يوسف من اسفل : حذار يا سيدي ان تطير وتتركنا

فقال فرغوس : كن على راحة بال فان القبة متمكنة جيدًا فاذهبا بالسلام فاني اتمنى لكم النجاح والتوفيق ولكن كونا على حذر دائمًا واذا ما دهمني داهٍ فاني اطلق الرصاص حالًا فيكون ذلك علامة لاقتضاء حضوركم السريع . وهكذا تم الاتفاق وانطلق الاثنان للصيد

## الفصل الثاني عشر

### في هجوم السعادين على القنة الهوائية
### ووصول المسافرين الى كاره

لما الارض التي كانوا يسيرون فيها فكانت من فخار وهي تتشقق من الرمضاء (شدة الحرّ) وشاهدوا فيها بعض اثار القوافل وشيئاً من عظام الحيوانات والناس معاً

وبعد ما مشوا نحو نصف ساعة ولج يوسف وديك غاباً ذات اشجارٍ متنوعة وهما يرصدان طيراً أم حيواناً آخر ليصطاداهُ ولم يكونا يعرفان ما هي اجناس الحيوانات والطيور الموجودة في تلك النواحي.

فقال يوسف : ان لنـا نفعاً في مسيرنا على اقدامنا ولكن يا ليت هذه الارض سهلة وحسنة الانتظام

اما ديك فأومى اليهِ بالسكوت والوقوف لانهُ نظر عن بعد بعض الحيوانات الشبيهة بالايل واراد ان يكمن لها لكنهُ لم يدنُ منها قليلاً الّا احست بالخطر المحيق بها . فكانت واردة مورد الماء تستقي منهُ فعند احساسها بدنو عدوها شرعت تلحق لعقةً وتنظر الى الهواء اما ديك فتوارى عنها ودار حول صخرٍ ثم اورى زناد سلاحهِ فولت جميعهنَّ مدبرات ولم يصب سهمهُ الّا واحدة منهن فسرَّ سروراً بليغاً لهذه الغنيمة الفاخرة ولما اقترب اليها رأى لونها ضارباً على الزرق واللون الرمادي وبطنها مع ساقيها ذات لون ابيض اشبه ببياض الثلج

فقال ديك لصاحبهِ : لله هذه الالوان ما اجملها فان مرادي حفظ جلدها

قال يوسف : ولماذا يا ديك

قال ديك : أما ترى هنا البهاء والجمال

قال يوسف : اما ترى انت ان هذا حملٌ يثقل على صاحبنا فرغوس اذ انهُ يفسد موازنة قنته

قال ديك : هذا صحيح ولكن يشقّ عليَّ ترك هذا الحيوان

قال يوسف : كلاّ لا نتركهُ كلهُ بل نستنتج منهُ اولاً ما يقيتنا ويمعنا ثم نترك ما تبقى واذا شئت هيأت لك الان لحمانهُ

قال ديك : افعل ماتشاء وتريد وانا ايضاً لايصعب عليَّ تهيئة لحمانه كما لايصعب عليَّ صيدهُ بالرصاص

قال يوسف : لاريب في ذلك ولكن اتركني اتحمل الان هذا التعب فيما تهيأ لي دجاقاً على ثلاثة حجارة وبعد ذلك تكلف خاطرك بجمع قليل من الحطب لنورث النار ونشوي عليها اللحمان

قال ديك : على الرأس والعين فان جميع ما امرت بهِ يتمّ برمشة عين واخذ حالاً بانشاء الوجاق ولم تمضِ برهة الاّ جمع الحطب واشعل النار فصعد لهيبها وطار شرارها وكان يوسف قد انتشل من جوف الحيوان السلسلة وغيرها من اللحمان الطرية وجعلها على النار لتشوى

وفيما هما على هذه الحال قال ديك لرفيقهِ : أتعرف ما خطر في ذهني

قال ديك : خال في ذهنك ان اللحمان ستنضج عن قريب وهي شهية للطعام

قال يوسف : كلاّ بل طرق ذهني فكر وهو انهُ ما عسى يحلّ بنا لو

فصنا ولم نشاهد القبة الطيارة

قال ديك : وما هذا الفكر الذي تفتكر به أتظن فرغوس يتركنا في هذه البلاد

قال يوسف : كلاَّ فليس الامر كذلك ولكن على فرض ان المرساة فلتت من الشجرة فترتفع القبة ويصعد معها مولاي

قال ديك : ومن المحال ان يفلت الآخر على هذا المال وهبهُ جرى فان العلاَّمة سينزل في مكان آخر لينتظرنا ولعمري ان آلتهُ من افخر الالات واحكمها ترتيباً وانتظاماً

قال يوسف : ولو هبت ريح شديدة فانها تدفعهُ الى حيث لا يمكننا الوصول اليهِ

قال ديك : ارجوك الصمت يا مبشراً بالسوء فان حديثك هذا لا يبسط الخاطر

فقال يوسف : يا سيدي ان جميع ما يحدث في هذا العالم هو طبيعي والحال كل امر قابل للحدوث فاذاً ينبغي على المرء ان يأخذ حذرهُ قبل فوات الفرصة

ولم ينتهِ ديك من التفوه بهذه الكلمات الاَّ دوت طلقة باروده في الآفاق

قال ديك : مه مه يا يوسف . ما الذي تاب فرغوس ليطلق الرصاص

قال : ربما اعاق بهِ خطرٌ هلمَّ اليهِ راكضين

فجمع الرفيقان ما كان جهزاه من الصيد وعلقا على المسير نحو القبة الطيارة وكانت الاشجار المتكاثفة في ذلك الغاب تمنعهما عن مراقبة القبة عن بعدٍ ولم تمضِ برهةٌ الاَّ أُطلقت رصاصة اخرى

فقال يوسف اعجب العجائب الظاهر ان المخاطرين ميجب عليا النجدة كيف ترى يا خليلي

قال هلم فلنسرع واظن انهُ يدافع عن نفسه

ولما قطعوا الغاب شاهدوا القبة الهوائية مرتكزة في محلها والعلامة ساموئيل جالساً على مركبته

فقال ديك ربي ما هذا وما الذي خطر ببال فرغوسن

قال يوسف اما ترى هنالك السودان المحيطين بالقبه

فتطلع ديك جيداً فشاهد عن بعد نحو ثلاثين شخصاً يزحم بعضهم بعضاً وهم يثبون ويصيحون ويتسلقون على شجرة الجميز ومنهم من كان قد ارتقى على الشجرة واخذ في التقدم نحو الاغصان العالية فكان الخطر على القبة مبينا

فقال يوسف اواه ما هذا الخطب لسيدي

قال ديك لاتخف بل اسرع في مسيرك وهرول رضحكما فانا نحوله تعالى سنسدد شمل هؤلاء الاعدا قبل وصولهم الى فرغوسن فهيا بنا هيا

ثم أطلقت رصاصة اخرى فاصابت حبشياً كان يتسلق على حبل المرساة وفي الحال شاهدا جسماً مسا يتساقط من غصن الى غصن الى ان بلغ علو عشرين قدماً من الارض فعلق جسمه في العلا وبرلت ذراعاه ويداه تتدليان في الفضا

فقال يوسف يا ويلاه وباي حبل يعتصم هذا القرد الكبير

قال ديك مالك وله فقد قربنا من القبة

قال يوسف وهو يقهقه ضحكاً أما ترى يا ديك انهُ معتصم بحبل ذنبه فانهُ سعدان وجميع هؤلاء السود هم سعادين

وفيما هما يتساقلان هذه الاحاديث اذا وصلا اليهنّ فدخلا فيما بينهنّ ورياهنّ شرذمة من السمادين البالغين في التوحش والبربرة ولهنّ انياب هائلة كانياب الكلاب فأخذا يطلقان عليهنّ الرصاص فبددا شملهنّ وطرحا على الحضيض كثيرًا منهنّ

ثم دنا كادي من القبة وارتقى الى المركبة على السلم واما يوسف فتوارى بين اغصان الجميز ليحل المرساة ثم اقتربت اليه المركبة فحلها سهلة وفي الحال ارتفعت القبة الى الاعالي واتجهت نحو الشرق بقوة هواء لطيف

فقال يوسف: لقد نجونا من معركة شديدة

قال ديك: كنا قد ظننا انك محاط بقوم من السودان

قال فرغوسن: ولا يختلفون عنهم كثيرًا اسمًا وفعلًا اذ انهم سمادين

قال ديك: لا يمكن تمييزهم عن بعد

قال يوسف: حتى ولا عن قرب

قال فرغوسن: وعلى جميع الاحوال فانّا نجونا الان من خطب جسيم لانهُ لو فلتت المرساة من الشجرة بحراك السمادين فلا اعلم الى اين كانت لتنتهي الرياح بكم

قال يوسف لديك: اما قلت لك ذلك من برهة

قال ديك: لقد اصبت في ظنك هذا ولكن لا يخفى عليك اني كنت وقتيئذٍ مهتمًا بتجهيز لحم الصيدة ومشتاقًا لمناولة ذلك الطعام الشهي الناضج

قال فرغوسن: بالحقيقة ان لحم هذا الحيوان الشبيه بالايل لذيذ وتشتهي النفس اكلهُ

قال يوسف: ذُق منهُ اذا شئت يا سيدي فانهُ حاضر واحكم لنا بصحة الامر

قال الصياد : نعم ان هذه الحيوان وحشية لكنها انيسة الحنجرة ولا تجها المعدة

فقال يوسف وهو يأكل : لعمري اني ارضى بان يكون لحم هذا الحيوان قوتي اليومي الى اخر يوم من حياتي ولكن ما الذّه اذا كرع معهُ بعض جرعات من العرق اللذيذ ليحسن هضمهُ في المعدة

وفي الحال احضر شيئاً من هذا الشراب وناول رفاقه ثم تجرع حصتهُ وفي تلك الساعة سأل فرغوسن صاحبهُ ديك وقال قل يا صاح ما رأيك الان هل ندمت على مرافقتنا

فاجابهُ ديك وقال : لعمري ما من احدٍ كان يطيق ان يثنيني عن مرافقتكما ومساعدتكما

وكانت تلك الساعة الرابعة بعد الظهر فهبت ريح واسرعت المركبة سيرها فكانوا يشاهدون الارض كأنها ترتفع امام اعينهم فدلهم البارومتر على انهم في علو ١٥٠٠ قدم فوق مساواة مياه البحر فاضطر العلامة الى ان يزيد حرارة القصبة لئلا تقترب القبة من الارض وعند الساعة السابعة حامت القبة فوق بحيرة كيلمه وعلم فرغوسن من رسومهِ الجغرافية انهم في اراضٍ تأسست فيها حديثاً بعض القرى المشتتة بين اشجار البوباب وغيرها وهناك مقر احد سلاطين أُغوغو حيث خف التوحش على وجهٍ من الوجوه . لانهُ قلما باع فيها احدٌ عضواً من عيلتهِ . اما الناس فيسكنون هناك مع البهائم وليس لمنازلهم ترتيب ولا انتظام بل كأنها اكواخ حقيرة تُشبه كداديس عشب يابس

وبعد ان جازوا بحيرة كيامه مرُّوا بأرضٍ صخرية ومحجرة الى ان بلغوا لوناً ذات خضارٍ وزرعٍ رطيب ولكن كان الهواء مستكناً ورأيت القبة واقفة غير متحركة

فانتهز العلامة هذه الفرصة الملائمة ليقيم الليل كله في الجو اذ ليس ما يحرك قبته فيستريح ورفاقه في الطبقات العلوية باستكانة وطمأنينة ولذا قد ارتفع عما كان عليه علو الف قدم فكانت السماء اذ ذاك رائقة وفي كبدها تتلألأ النجوم والكواكب فسبح الجميع مولاهم على عجيب خلائقه ورقد الصياد مع يوسف لان النوبة الاولى كانت على فرغوس ولما دخل نصف الليل ايقظ فرغوس ديكا وفوّض اليه المحافظة واوصاه ان يكون حريصا واميناً في وظيفته واومأ اليه لن اذا دهمهُ ادنى عارض فعليه ان يوقظه حالا من فراشه وقال له اياك ان ترفع الملاحظة عن البارومتر لانه لنا بمنزلة البوصلة

اما الهواء في تلك الليلة فكان بارداً لان ميزان الحرارة نزل ٢٨ درجة عن حرارة النهار وما زالت الحيوانات الخارجة من مرابضها هرباً من الجوع والعطش تضج وتصيح اثناء الليل والضفادع تنق في مراقدها وابن آوى ينبح ويعوي

ولما اصبح الصباح واستفاق الرفاق من الرقاد نظر فرغوس الى البوصلة فعلم ان الهواء تبدل وتغير اتجاه القبة الطيارة لانها منذ ساعتين من الصباح اختطت مسافة ثلاثين ميلاً في الجهة الشمالية الغربية وتطلع برسومه الجغرافية فعلم انه مارٌّ ببلاد مابنغورو المحجرة وقد شاهد المسافرون فيها من حجر السيناء ذات الصقل الجميل وصخوراً كثيرة محدبة ومتنوعة البناء والخطوط وعظاماً مشتتة ومبعثرة من الفيلة والجواميس ولم يشاهدوا فيها شجراً بل عن شمالهم قامت احراش وغابات متسعة ووراءها بعض القرى والضياع

وعند الساعة السابعة تراءى لاعينهم صخر مستدير ذات مسافة ميلين شبيه بترس سلحفاة عظيم

فقال العلامة فرغوس : الحمد لله انا في سبيل الهدى فطريقنا مستقيمة

وما هي بلاد جيهو لمكوّا فلي رغبة في ان احلّ بها برهة لاجدد زاد الماء الضروري لآلتي فلنحوب لذا ان تتعلق بمكان

فقال ديك: قلما يوجد اشجار في هذا المقرّ

قال: علينا ان نجرب علنا تتعلق بخلل صخر واوعز الى يوسف ان يلقي المراسي فالقاها ولما كانت القبة قد فقدت شيئاً من قوتها الرافعة دنت من الارض واذا بمرساة تمسكت بثقب صخرٍ موقفت المصورة ثابتة غير متحركة

فلا يظن القاري انهُ ضاع للعلامة اخماد الحرارة في حالة وقوفه لان موئنة القبة حُسبت على مساواة سطح البحر والحال ان تلك البلاد هي في ارتفاع وقد بلغوا فيها علو٦٠٠ الى ٧٠٠ قدم عن سطح البحر فعلى هذا المنوال كانت القبة تميل الى النزول وقد التزم العلامة ان يترك الغاز شاعلاً قليلاً ليحافظ على لموئةِ في ذلك العلو من الارض

وقد نظر العلامة فرغوسن الى الرسوم الخرافية معرف لنهُ في الجهة الغربية من سفح بلد جيهو لمكوّا حيث يوجد بعض غدران ماء فذهب اليها الخادم وحدهُ حاملاً برميلاً صغيراً وقد شاهد المحل الذي دلهُ عليهِ فرغوسن واملأ البرميل واتى بهِ المركبة بعد مرور نحو ثلاثة ارباع الساعة ولم يشاهد في طريقهِ شيئاً غريباً خصوصياً الّا حفراً واسعة لايقاع الفيلة وقد كاد يهوى في احداهنّ

وقد احضر معهُ جنساً من الترسيم وهو حضرة كانت تأكلهُ السعادين بتلهف فعرف العلامة ان هذه الخضرة تعرف بافريقية باسم امبنبو وهي كثيرة الوجود في نواحي جيهو لمكوّا الغربية وقد انتظر فرغوسن خادمهِ بقلق لانهُ كان يخشى من طارئ يطرأ عليهم في تلك البلدان التي لا يراعى فيها ذمام الغريب وليس لهُ امان على نفسهِ

ثم وضعوا البرميل في المركبة بكل هينة لانها كانت قريبة الى الارض

كثيرًا وبعد ان رفع يوسف المرساة طلع الى المركبة وجلس امام سيده فأضرم لهيب القصبة وامتد الغاز وارتفعت المنصورة سائرة في طريق الرياح وكانت المركبة اذ ذاك بعيدة عن مدينة كاره ذات الاهمية الخطيرة في اواسط افريقية نحو مائة ميل وقد ربما المسافرون ان يصلوا اليها في النهار ذاته نظرًا لوجود الرياح الجنوبية الشرقية وكانت المركبة تسير مسافة ١٤ ميلًا في الساعة ولكن قد صعب على فرغوسن في تلك الدقيقة ادارة مركبته لانهُ لم يكن يمكنهُ ان يرتفع الى علوٍ باسق بدون ان يعد الغاز كثيرًا لان تلك البلاد كانت شامخة الارتفاع وعلوها الاوسط ٣٠٠٠ قدم فبذل ساموئيل غاية مجهوده لان لا يعد الغاز كثيرًا وقد مرَّ بجبال واكام كثيرة ثم بقريتي طمبو وتوراولس وهذه القرية كانت ببلاد اوينام وارى فيها الاشجار الباسقة ومنها شجر شبيه بالصبير يرتفع الى علو شاهق

ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكانت السماء صاحية حامت المنصورة فوق مدينة كاره الكائنة في مسافة بعيدة عن ساحل البحر ثلاثمائة وخمسين ميلًا

فتطلع فرغوسن وقتئذٍ في مفكراتهِ وقال رحلنا من زنجبار الساعة التاسعة صباحًا وبعد ان سرنا يومين طفنا مسافة ٥٠٠ ميل جغرافي اما القبطانان برتون واسبيك فلبثا مقيمين اربعة اشهر ونصف يسيران في الطريق نفسها التي مررنا بها

---

# الفصل الثالث عشر

في مدينة كاره وسوقها واولاد القمر وهنه رقصهم وعادة قوم تلك البلد لوسف وظهور حمرس في العمه السماويه

اما كاره فليست بحصر الكلام مدينة ( لان ليس مدينة في اواسط افريقية ) بل هي مركز ذات اهمية حربية في افريقية الوسطى لكنها ليست الا مجموع ست اودية وفيها عدة اكواخ لأوى اصحابها وشاهدوا معصا منها محتاطا مساتين مزروعة بصلاً و طماطة وبادنجان وحشا (شبه الكماة) وغير ذلك مما يروق للخاطر. اما اونياوري فهي بلاد القمر ولا تخلو من الخصب وجمال المنظر وفي وسطها مقاطعة اونيه عمه وهي بلد جميلة ايضا وهناك يقيم بعض آل عمان من عرب الغرباء الذين يتاجرون بالفراء والصابح والعبيد مع بلاد العرب والقوافل تاتيهم بصناعة الصحة وغير ذلك مما هو غالي الثمن لانهم عائشون مع نسائهم وعبيدهم بصفا البال وطيبة العيش ولا ينغص عيشهم حادث من طوارق الزمان فيتمددون ويمرحون ويدعون اناء الليل واطراف النهار ولقد شاهد اكواخ كثيرة حول تلك الاودية واسواق واسعة لعرض البضائع يحيط بها اشجار كثيرة وهناك محل اجتماع القوافل فان منها ما يأتي من الجنوب مصحوبا بالعبيد والعاج ومنها ما ياتي من الجهة الغربية مصحوبا بالاقطان والادوات الزجاجية لاقوام الخيرات العظيمة

ولهذا ترى في تلك الاسوق اضطراب مستديم وصخب وسباق ولغط غريب فانك لا تنقف برهة الا وتسمع صراخ المكارين وطنطنة الطبول والزمور ودقدقة الدولاب ونهيق الحمير وعواء النساء وزقزقة الغلمان ودقة الحمدار رئيس القافلة

وشاهدوا تلك الصنائع المروشة من العاج واسنان الفيلة المتنوعة والسلل والقطن وغير ذلك من الاشكال المختلفة

في الساعة والحال عند ظهور القنة الهوائية فوق كاره بطلت الضجة وزال الصراخ وفر كل من ذلك القوم الرجال والنساء والعبيد والتجار والغربان والزنج مهرولاً الى كوخه ليختبئ فيه ولم يعد احد ظاهراً للوجود

فقال ديك لفرغوس اذا انت قنتنا دائماً بهذا المعمول صعب علينا جداً تمكين العلاقات التجارية مع مثل ذلك القوم

قال يوسف ولكن اذا تعطف ان لنا الان معاملة تجارية سهلة جداً وهي ان ننزل بهدوء وطمأنينة الى الاسواق ونحمل ما نحب حملاً وغلاً قيمة من دون ان نعامل التجار وهذا نصح من الاغنياء الموسرين

قال فرغوس سقياً لك انما الغباء الرعبة في اول وهلة على هؤلاء الاقوام ولكن لا يلبث ان نرى الجميع راجعين سواء كان باعتقاد باطل ام رغبة معرفة ما شاهدوهُ

قال يوسف هذا رأيك يا مولاي

قال لا شك في ذلك وعن قريب تراهم مقبلين ولكن حذار من ان نقرب اليهم لان قنتنا ليست قنة مصفحة ولا مدرعة بل اذا اطلق علينا ضربة رصاص ام اذا سلبنا سل وخرق قمنا هلكنا لا محالة

قال ديك الا تعزم على ان تحاور هؤلاء الافريقيين

قال فرغوس بلى اذا سمحت لنا المقادير لان مدينة كاره لا تخلو من التجار والغربان المثقفين والمتمدنين نوعاً وانا اذكر جيداً ما حُكي عن برتون واسبك لهما بالاضافة حسنة من سكان المدينة فترى اذاً انه لا يوجد مانع للدخول بينهم والمحادثة معهم

ولما اقتربت المنصورة من الارض تعلقت احدى مراسيها براس شجرة عالية قرب محلة السوق

وفي تلك الساعة ظهر القوم وخرج كل من خبائهِ لكنهم لم يخرجوا ألاَّ قليلاً قليلاً بحرص واحتراز

ثم هرول بعض السحرة المعروفين عندهم باسم وغنغــا وهم حاملون القرع المدهون بالشحم والاصداف وغيرها من الاشياء المشهورة بقلة نظافتها

ولم تمض برهة ألاّ وازدحم القوم واحاطت بهم النساء والغلمان وصحبت الطبول بضوضاءها ثم رفعت الايدي نحو السماء

فقال فرغوسن: هذه عادتهم في الدعاء والتضرع وعلى ما ارى فانهُ عن قريب يصير لنا اهميــة جزيلة عند هؤلاء الافريقيين وانت يا يوسف لربما ستمسي عندهم الهاً

قال يوسف: لا ازهد في مثل ذلك الامر ولا اكره رائحة البخور

وفي تلك الدقيقة قام احد السحرة المعروف باسم ميانغا وارمى الى الناس بالسكوت فسكتوا جميعهم ثم تقدم نحو المسافرين في المركبة وخاطبهم بلغــة مجهولة لديهم فلما لم يفهم فرغوسن كلامهُ تفوه على الفور ببعض الالفاظ العربية فاجيب على كلامهِ بهذه اللغة ايضاً

ثم خطب امامهُ الساحر خطاباً طويلاً انيقاً فخص فرغوسن من مآلهِ ان هؤلاء القوم اتخذوا المنصورة نفس القمر وان هذه الالهــة المحبوبة تنازلت ان تدنو منهم مع اولادها الثلاثة وان هذا لشرف عميم شمل لفيف سكان تلك المدينة فاصبحوا لهــا من الممنونين ومعروفهــا هذا لا يُنسى من تلك الارض المحبوبة من الشمس

فاجاب فرغوسن بامارات العظمة والكبر وقال: فليكن معلوماً عندكم ان

القمر يطوف حول بلاده مرة كل الف سنة اذ انهُ يرغب في الظهور لاعين عابديه ويريد منهم ان يعرضوا لحضرته الالهية ما لهم من الحاجات والضرورات ولا يرتكنوا ويرتبكوا في توسلاتهم بل يجب ان تكون غير مشوبة بالطمع والخديعة

فقال الساحر ان سلطانا ( ويعرف باسم موالى ) قد انس فراش المرض منذ سنين عديدة فالتيالة عنهُ اتوسل الى جلالة القمر ليرثي لحاله ويدعو اولاده يشروبة بحضورهم اذا شاؤوا

فلم فرعوس رفقاه تلك الدعوة فقال الصياد وهل مرادك ان نوجهه الى عند هذا الملك الحبشي

قال وما المانع فاني ارى هؤلا القوم حسني الالتفات نحونا ولا ياتونا ضرروها ان الحوراني فلا نخاف على مركبنا

قال ولكن ماذا تصنع هناك

قال فرعوس لاتخف فاني اقضي شغلي بشيء من الادوية الطبية الموجودة معي

ثم التفت نحو الجمع وقال لهم اليوم حين قلب القمر على سلطان في اويام وارى ونا بخاطره ان يسلمنا دوا شافيا لدائه فليكن اذا مناها ملاقاتنا لاننا ذاهبون اليه

فصحت حينئذ اصوات هولاء الرهط بالغنا والنعاق واخذوا في المسير الى البيت الملوكي

ثم قال ساموييل لرفاقه يجب ان تكونوا على حذر واهبة للرحيل اذا اضطررنا لترك هذه المدينة حالاً فليق ذلك في المركبة محافظاً على ما يكفي من القوة الرافعة بواسطة القصبة اما المرساة فهي ممكنة غاية التمكين ولا نخشى

عليهـا وانا نازل الى الارض ورافقني يوسف الى عند طرف السلم وهناك يستريح على خاطره

قال الصياد وهل تعب وحدك لعند ذلك الحشي

قال يوسف الا تريد يا سيدي ان اتبعك الى النهاية

قال فرعوس لا اقتضـاء لذلك فان هؤلاء القوم ظنوا ان الههم القمر آتٍ لزيارتهم فاعتقادهم هذا الباطل لا يمكنهم مضرتنا فارجعوا انتم وليبق كل منكم محافظا على وظيفته

فقال الصياد سمعا وطاعة يا ايها المالى

اما صراخ القوم فاخذ في الازدياد وكانوا يظنون ان القمر ليقضي وطرهم

قال يوسف وما هذا الامر الظاهر انهم متحيرون نحو الههم واتيانه

ثم نزل فرعوس من مركبه واخذ معه بعض الادوات المقوية وسار يوسف امامهُ ولوائح العظمة والوقار لائحة على محياه ثم جلس عند طرف السلم وقعد على ركبتيه حسب الزي الشرقي فاحاط به قوم من الافريقيين باحتشـام لائق

اما العلامة فرعوس فسار وراء الآلات الموسيقية الشادية بانغامها الشجية (ولله درها) واحاطت به السحرة وغيرهم من المعتبرين وما مشوا قليلاً الا وجد ان السلطان الذي كان وحيد الارث الشرعي دون اخوته الشرعيين ملقى ومعه لان القمر اما فرعوس فانهضهُ حالا لحركة لطيفـة ثم مشي معهم في تلك الطرقات المظللة بانواع الاشجـار والنباتات وما مضى نحو ثلاثة ارباع الساعة حتى وصلوا الى سراية السلطان الكائنة في سطح اكمة وهي نوع من البناء المزع المدعو في لغة اهل تلك البلاد باسم ايتيتيبا وحول جدرانها قطع

حجارية منها على هيئة رسم انسان ومنها ما كان احسن انتظاماً وهو على هيئة الحيات واما سقف المنزل فمفصول عن الجدران بعمد والهواء يتلاعب في الجذوع من ذلك العلو لان الشبابيك غير موجودة فيها والباب يكاد يستحق اسم ماب لصغره وهيئته الغريبة ولما بلغ فرعوس الى ذلك المحل لاقته الحرس ورجال الدولة عند الاحلال وكانوا جميعهم اناسا يمثلون حسنا هيئة اقوام افريقية الوسطى ذات بنية حسنة وقوة مشهورة ومرح سايم وشعورهم مجدولة على هيئة الضفار مسدلة على اكتافهم وخدودهم مخططة بالحمرة والسواد والزرق من المصادع حتى الفم وعلى اذانهم المقدودة قطع خشب مستديرة والواح عراة صدورهم ولباسهم مرقش وما ن وكانت الجند واقفة وهي حاملة العصي والاسنة والقوس والسيوف المحدبة الهامات

فدخل العلامة ذلك البلاط الملوكي وما زال الصراخ والضجيج قائما عند دخوله رغما عن تذمر السلطان خلاف السقم وشاهد عند اسكمة الباب اذناب ذراب ونواصي اعيار (جمع عير وهو الحمار الوحشي) معلقة بطير طلاسم سحرية فلاقاه جمٌّ غفير من نساء السلطان وهن يضربن بالطبل ويزمرن بالمزمار وكثيرٌ منهن ديعات في الجبال حكى يشربن اللحاء بالعلائين المكسرة السود وهن ضاحكات لا يكترثن بشيء وقد لبسن من اثوابهن المرقعة قطع من الجوخ والالياف المسدلة على حقويهن ركحا

لكنه لحظ ان بينهن ستة لم يكن فارحات اقل من سائر رفيقاتهن وان كن معدات لان يجعلن في القرحيات مع السلطان عند مماته

وبعد ان رمق فرعوس لحظة عين جميع ما تراءى لديه تقدم نحو تخت السلطان المصنوع من خشب وشاهدهُ رجلاً بالغاً سن الاربعين سنة وقد طرحتهُ في الفراش ودوختهُ المسكرات المختلفة ولا يمكن اتوا دائه بدواء وعلى

المخصوص لان المرض قد نالهُ منذ سنين جمة وكان هذا السكير البائس قد اضاع حواسهُ وزال ادراكهُ ولو جمع لهُ جميع نشادر العالم لما كان كافياً لان يعيده الى نفسه

وفي مدة زيارة ابن القمر لجلالة السلطان خرت النساء ساجدات لهُ وتحت ظهورهن فاخرج العلامة شيئاً من الدواء المقوي الذي كان معهُ وسقى منهُ السلطان فتحرك جسمه قليلاً ولما كان قد مضى عليه بعض الساعات ولم يبد ادنى حركة تدل على بقائه في قيد الحياة سر القوم بالحركة التي بدت منهُ في تلك الدقيقة وضجوا بالصراخ علامة الشكر والممنونية واجلالاً للطبيب السماوي

وعلى الاثر ارتد فرغوس عن المريض واوسع فسحة بين هؤلاء القوم المزدحمين حولهُ وسار قاصداً مصورته لان الساعة كانت وقتئذٍ السادسة بعد الظهر

اما يوسف فكان منتظراً سيده بكل طمأنينة وراحة بال عند سلم السلم وحولهُ قوم من تلك المدينة يقدمون لهُ واجبات الاكرام اللائق بابن القمر

وكانت هيئتهُ مشوشة مع عابديه المحدقين به وهو يخاطبهم باحاديث لطيفة من جملتها ما كان يزاحمهُ لهم بلغته الانكليزية قولهُ هذا اعبدوني اعبدوني يا ايها الرجال ويا ايتها السيدات لاني شيطان لطيف رقيق الحاشية وان كنت ابناً للقمر

وقد قدم لهُ هؤلاء القوم الهدايا استعطافاً لسمو ذاته الالهية واستمطاراً عن ذنوبهم وكانت تلك الهدايا بعض سلال من الشعير وشراباً معمولاً من الشعير ايضاً فاضطر يوسف الى ان يذوق شيئاً قليلاً من هذا الشراب ولما

كان مما تمة الحضرة تأثر منهُ وكشر عن اسنانهِ لشدة مرارته فحسب القوم تلك الكشرة تبسماً لطيفاً رائقاً

وكانت الشابات تترنم باصواتهن الرخيمة في ذلك المحفل الديني ومنهن من كن يرقصن الحور رقصة عندهن

فقال يوسف ما لي اراكن ترقصن وانا لا ارقص فانظرن اذاً لتتعلمن كيف الرقص في لادنا

واخذ من ثم ان يرقص رقصة مضحكة وهو يدور ويحوم ويهز رجليه ويديه وركبتيه ويتلوى وينعطف ويقف برهة ويكشر عن اسنانه وهكذا الهى القوم الافريقيين كيف ترقص ابنا القمر

فما فرغ يوسف من حركاته واطواره الغريبة الا نهض كثيرون منهم رجالاً ونساء ولما كانوا منطويين على التقليد بنوع غريب كما يقلد السعادين اطوار الانسان شرعوا في تقليد اطوار يوسف من الدورات والحركات والتكشير عن الاسنان ورأيت من ثم هؤلاء الهمج قد هاجوا وماجوا وعربدوا وازبدوا وفيما هم على تلك الحال اذا اقبل فرعوس متجهاً نحو مقصورة وكان الافريقيون حوله يزاحمونهُ صارخين وسحرتهم ورؤساؤهم مضطربون اما هو فيسرع في مسيره وقد تحقق يوسف غاية التحقق وطن نفسه على ان السلطان هلك من مداواة طبيبه السماوي وتهددوهُ ليلحقوهُ به

وشاهد ليما كادي اضطراب القوم وشغبهم ولم يفهم السبب ثم اقترب العلامة الى سلم السلم وكان القوم صاربين عن المقصرة لشخصه لاعتقاد باطل ما زال يخالج صدورهم وكان ذلك حظاً لفرعوس اذ به تمكن من البلوغ الى السلم و به الى المركبة واتمة حادمة في الحال

فقال فرعوس ليوسف هلم واسرع فان الوقت قد ضاق بنا ولا تكترث

بحبل المرساة لان مرادي ان اقطع الحبل واترك المرساة

فقال يوسف وهو يتسلق المركبة وما الذي جرى وما عسى بات هؤلاء القوم

ثم قال ذلك وهو حامل سلاحهُ متأهباً لاطلاق الرصاص اذا لزم الامر قل يا صاح وما بال هؤلاء الزائرة

فقال فرعوس لرفيقيه انظرا الى الامام

فقالا وما الذي هناك

قال فرعوس هناك القمر فاشار الى القمر الوردي المتلألئ الظاهر في كبد السماء الازوردية فلا شك ان ذاك القمر المألوف

فاحتار القوم وقالوا في انفسهم اما انه يوجد قمران في الساحة الزرقا واما ان الرفاق الثلاثة ما هم الا خداعون ومكارون وليسوا ابناء القمر كما توهما

ولما لما راوا ان العلامة قد تخلص من ايديهم وكاد يطير في الطبقات الجوية رموا الاسنة والحراب وثاروا ليطلقوها على الفئة فقام احد الشيوخ واوعى اليهم ان لا يبدوا حركة فانزل جميعهم السلاح ثم تسلق الشجرة وعزم على ان يمسك حبل المرساة ويجر المركبة الى الارض فمسك يوسف في الحال سكيناً وسأل مولاه وقال هل اقطع الحبل

فقال فرعوس انتظر قليلا لاني امل حفظ المرساة ومتى اضطررنا الى قطع الحبل فلا يمنعنا مانع حتى ولا هذا العبد الخادع

وفي تلك الدقيقة كان هذا الساحر يمد الاغصان التي هي حول المرساة فتخلصت هذه حالا ولما كانت الفئة ذات قوة رفعة جذبت المرساة وجرتها اليها وجرت معها العبد الاسود الراكب على المراساة كانهُ على حصان ذات

الحفة وطار المسكين مع المسافرين الى الطبقات الجوية

فاندهش القوم اندهاشاً لا مزيد عليه عند معاينتهم احد سحرتهم طائراً في الاهوية

وكانت القفة بقوتها الصاعدة قد ارتفعت الى علو شاهق فقال ديك لا بأس من رحلته برهة في هذه البلاد لانها توليه انشراحاً بتغيير الهواء

فسأل الخادم سيدهُ وقال هل يرجع هذا الاسود على الفور

قال فرعوس حاشا ليس هذا من دأبنا ولكنا نقترب من الارض بعد برهة ونصعهُ بكل هدوء وراحة وارى انهُ بعد هذه الحادثة الغريبة سيعظم شأنه لدى قومه وتزيد قوتهُ السحرية عندهم

فقال يوسف وربما يعبدونه كاله

وكانت القفة قد بلغت علو الف قدم والعبد الاسود مستمسك بحبل المرساة استمساكاً شديداً وعيناه شاخصتان بالمركبة وهو ساكت ولهان

ولما ابتعدت القفة عن المدينة خفف العلامة حرارة اسطوانة ودنا من الارض فلما راى الساحر نفسهُ قريباً انتهز الفرصة ورمى نفسه من علو عشرين قدماً وولى الادبار قاصداً مدينه كازه فخف حينئذٍ ثقله عن المركبة وارتفعت حالاً الى الجو



# الفصل الرابع عشر

في العاصفة الشديدة والنجاة منها وفي ارض بلاد القمر الارضية وسطحها

فقال يوسف هوذا قد تنبيا للقمر بلا استثناء فاننا ما دمنا وكدنا نقع بين ايدي البرابرة وبذهب فريسة لتوحشهم ولكن لم تقل لنا يا مولاي هل لم تحس تطبيبك لجلالة السلطان بحف مقام القمر عندهم

وسأل ايضا ذلك العلامة وقال هات اخبرنا عن ذلك السلطان الجليل الشـــأن

قال فرغوسن ان السلطـــان رجل نشوان سيوصلهُ سكره الى دركات المنية بسرعة وحيرة ولايتاسف احد على فقده اما ما ينتج مما جرى اخيرا هو ان كل مجد رسمي زائل لايلزم الانسان ان يلتصق به اسماً فيه

فقال يوسف كان ذا امرٌ يوافقني فاني قد بلت اجلالا وتجيلا فانتقي الجد واصبحت الها على خاطري محسدني القمر على ذلك وظهر حالا في الافق ملونا بالاحمرار وهذا مما يدل على انهُ قد ساءهُ صنيعنا

وفيما هم يتســـاقطون هذه الاحاديث اذا شاهدوا عن بعد سحابا وصابا كثيفا يتحكم برياح عصبة معا وهو مقبل من الشمال ثم عصفت ريح دفعت المقة الى بين الشمال والشرق اما الدبابة الزرقاء التي فوق المركبــة فكانت رقيقة لاسحاب فيها ولاضباب الا ان المركبة ثقيلا جداً

ونحو الساعة الثامنة ليلا وصل المســـافرون الى درجة ٣٢°٤٠ طولا و٤°١٧ عرضاً ولما كانت الريح متأهبة للعاصفة كانت تدفعهم مســافــة ٣٠

الى ٣٥ ميلًا في الساعة مررنا فوق صحارى أمموتو الاريحة ذات الخضار والنضار وكان منظرها مدهشاً يسحر الابصار

قال فرغوسن: هوذا نحن في اواسط بلاد القمر وقد دعيت هذه البلاد باسم بلاد القمر من الازمنة القديمة لقدمية عهد عبادة القمر فيها لعمري انها لارض رائعة الجمال

قال ديك. قلما يشاهد في العالم ارض ذات نضارة وخصب شبيهة بها

قال يوسف: لو كان ذلك حول لندرة لما كان طبيعياً عيران القلوب لهامت به وراقت لمشاهدته الابصار ولكن يا للعجب لماذا هذا الريحان قد جعل في بلاد يسكنها الاقوام البربرية والوحوش الكاسرة

قال فرغوسن: ومن يعلم هلاً يأتي يوم وتصبح هذه البلاد مركزاً للتمدن لانهُ بعد ما تكل الاراضي الاوربية عن ان تنبت لسكانها زرعاً وتفرغ منها وسائط المعيشة لربما يهجرونها ويقصدون هذه المحلات ويجعلونها سكناً لهم

قال ديك: وهل تصدق في قولك هذا

قال فرغوسن: بلا شك ايها الخلّ العزيز ألا ترى جريان الحوادث في العالم منذ ابتدائهِ الى الان فانك اذا اتبعت على ممر الاجيال مسير الشعوب ومعيشتهم ورحيلهم من بلاد الى بلاد توصلت الى نتيجتي نفسها تأمل اولاً في المشرق التي كانت مهد الجنس البشري فانها قد لبثت مدة اربعة الاف سنة تنمي زرعاً وتنبت نباتاً كافياً لاعواز سكانها جميعاً ولما شاخت وفسدت اكثر اراضيها اخذت الاقوام في الانتزاح عنها واندفقت متهافتةً الى بلاد المغرب التي كانت تزهو وتتشح بجمال الصبوة وما زالت هذه في دورها تكفي سكانها مدة الفي سنة حتى اخذ خصبها في الخمول وبدأت تنقص قوتها النامية يوماً فيوماً

وصارت الامراض تبلي محصولاتها وزرعها في كل سنة وكأنك بها انسان قد دهمت ايام صبوته فشاخ وهرم ووهنت قواه الحيوية وفسد منهُ الدم في العروق ولذلكم السبب جعلت الآن الاقوام الاوربية تهجر بلادها وتتهافت مندفقة الى البلاد الاميركانية ليرضع من حليبها الخصب ولا يحسبنَّ احدٌ ان ينابيعها غير قابلة النضب بل سيأتي يوم وتنفد كنوزها وتنطمس في الرمس وتزول اخراجها وعلاماتها بفوس الصناعة وتضعف الاراضي التي انبتت زرعًا كثيرًا فحينئذٍ تتجه الالحاظ نحو البلاد الافريقية ويتهافت الناس لاقتطاف اثمار كنوزها التي ما زالت تحتشد فيها من قديم الازمنة ويتعودون مناخ اقليمها في مدة قليلة وستصبح هذه البلاد التي نحوم عليها الآن اكثر ريعانًا من غيرها وتقوم فيها الممالك العظيمة وفيها تكتشف الاكتشافات الغريبة التي تفوق لرغا البحار والكهربائية عجبًا ودهشة

فقال يوسف: سيدي حبذا لو رأيتُ ذلك

قال فرعوس مهلًا مهلًا يا يوسف فقد انكرت في رغبتك

قال ديك وقد بان لي ان الجيل الذي فيهِ تفتني الصناعة جميع الكنوز الارضية سيكون جيلًا سيئًا وعندي انهُ لا تلذ فيهِ المعيشة لان الناس لكثرة ما يخترعون من الآلات والادوات المحسنة سيكون مصيرهم ان يُبتلعوا منها وقد خال بالي دائمًا ان اليوم الاخير يكون اليوم الذي فيهِ يصنع الناس ماعونًا عظيمًا نارًا تعادل قوتها قوة ثلاث مليارات من حرارة الهواء فتأثر كرتنا من هذه القوة النارية المحيية وتطير متشتتةً في الفضاء الفسيح وتذهب كالهباء المنثور

قال يوسف: ويكون الاميركان لم يتقاعدوا عن الاهتمام في اختراع مثل تلك الآلة

فقال العلامة: نعم ان الاميركان قوم يحبون شغل المواعين اعني بذلك

اختراع الالات ولكن ... لنا ولهذه الاحاديث علينا ان نتأمل مناظر هذه الارض البهية حيث اوتينا مشاهدتها

فكانت اشعة الشمس الاخيرة تتلألأ في تلك الاراضي ا ربية بالاشجار الباسقة والحشائش والغصار الحميلة الشاهقة المثمرة ثمرا عجيبا ولم تخل الغابات والاحراش من فضاء فسيح في وسطها فكان ... يا فيها بعض القرى وحولها الاجام والسياحات العظيمة

ثم شاهدوا نهر الملزاري الذي يصطف حوية تمساحيكا وهو يمشي بين الغصار ويتناول المجاري الكثيرة المتجمعة في الاراضي الحزمية وقت فيضان المياه اما الطائرون في العلاء فكانوا يشاهدونها كنسيج شلالات ملقاة على الجهة الغربية من تلك البقعة

ثم شاهدوا المواشي السمان ترعى في الغياض الاريضة وتتوارى بين الحشائش المتصلة اما الاحراش فترآت كافة زهر تحتمي فيها الأسد والضباع والنمورة ليأمنوا فيها من شر حرارة النهار

فقال ديك ما احلى هذه البلاد للصيد فان رصاصة واحدة اذا أطلقت على الحيرة صادت طريدة جديرة بها فيا ترى هل لا يمكننا فحص الامر

قال فرغوسن كلاً ايها الخليل فان الليل يتهددنا بالعاصفة والعواصف شديدة في هذه البلاد لان ارضها المسخنة بنيران الشمس تشبه المدافع الكهربائية

قال يوسف تكلمت في الصواب ايها المولى لان الحر متزايد والهواء فاسد وكل ما يحس يقرب حدوث شيء خارق العادة

قال فرغوسن . ان الجو محمل بالكهربائية وكل ذات حية تشعر بحالة الهواء السابقة تناقص العناصر واقر معترفا باني لم اتأثر قط من ذلك مثل هذه المرة

فقال ديك . حيث الامر كذلك ألا يوافقنا النزول الى الارض

قال فرعوس . حسنٌ عليَّ الصعود من النزول ولا اخشى سوى ان يدفعني الى خارج طريقي تصلب المهبات الجوية

قال ديك أتريد ان تسير الى جهة غير التي سرنا اليها حتى الآن

قال فرعوس اذا استطعت فاني اتجه ذات الشمال مدة سبع الى ثماني درجات لكي ارتقي الى عروض ينابيع النيل الموهومة واشاهد هنالك بعض آثار رحلة القطبان اسبيك او لقافة دي هكلين وهودا نحن الآن في الدرجة ٣٢°٤٠′ طولاً واربع في ان افقو اثر خط الاستواء باستقامة

فقاطعه ديك في الكلام وقال له انظر الى هؤلاء الزراق كيف تتسلق الارض لتخرج من الحيات وهؤلاء التماسيح التي تصيح ملتمسة الهواء لتستنشقه

قال يوسف لقد صدق نعسها ولكن انما تنظر الى هذه زمرة الحيوانات التي تزاحم بعضها بعضاً في مسيرها لربما هي ذئاب واظن انها تبلغ عدد المائتين

قال فرعوس كلاً يا يوسف فان هذه الّا زمرة كلاب وحشية باسلة لاتخشى مصارعة السباع واذا التقى بها مسافر فيالتعاسته لانها تمزقه آرابا في الساعة والحال

فقال الخادم : وانا لا احد على نفسي ان اصغ لهنَّ الكلمة واذا كانت الشراسة من دأبهنَّ فما لي ولهنَّ

ثم تكاثف الهواء واصبح الرفيق لا يسمع صوت رفيقهُ واختبأت الطيور في الاشجار ودلت الطبيعة كلها على انهُ عن قريب ستغمر الارض بمياه امطار وابلة

وفي الساعة التاسعة مساء حامت المحمورة فوق صيع قطر مسنة وكانت ما تكاد تمتار للمصر لتكاثف الظلام

فقال ديك وهو يستنشق ملء رئته من ذاك الهواء المتراحي وما هده الحال فان اوشك ان احتنق والناس اما لا نتحرك في هدا الفضاء هلاّ يوافق نزولنا الى الارض

قال فرغوس وهو في اضطراب : ألا تبالي بالعاصفة المقبلة

قال ديك. اذا كنت تخشى ان يدفعك عصف الرياح فلا حيلة لك الاّ النزول وتطمأن هناك من كل غائلة

فقال يوسف : وربما لا تبدو العاصفة في هذه الليلة لان السحب عالية جداً

قال فرغوس . وهذا الامر مما يجعلني ان ارتاب في الارتقاء الى فوقها حيث يلزمنا الصعود الى علو شاهق جدا ولا نعود نعرف ليلتنا كلها اذا كنا سائرين ام واقفين

قال ديك بدار ان تبتّ رأيك الآن لئلا يفوتك الاوان

قال يوسف لسو حططنا سقط الهواء ولو ذلك لكان دفعنا بعيداً عن مقرّ العاصفة

قال فرغوس : ان ذا مما يوجب الكدر فان السحب هي لنا ذات خطر مبين حيث انها حاوية مجاري متضادة قابلة ان تدفعنا في هاوها وبروقاً نارية نخشى منها ان تحرقنا . ثم اذا نزلنا الى الارض وربطنا المرساة في رأس شجرة فان هبة واحدة من الريح العاصفة ترمينا الى الارض وتوهي قوانا وقوة محصورتنا

قال ديك : وما العمل اذاً وما الحيلة

قال فرغوسن : عندي ان نبقى في طبقة وسطى بين ويلات الارض واخطار السماء لبيما يفرجها المولى ويفتح لنا باب الرحمة وله الحمد فان عندنا ماء عزيزًا لاضرام نار القصبة وثلاثة وثلاثين رطلا من ثقل الرمل نلقي منهُ عند الحاجة

فقال الصياد : ونسهر معك في هذه الليلة

قال فرغوسن . لا حاجة الى ذلك يا خليليَّ بل ضعا رادبا في لحفى وناما بسلام واذا مست الحاجة ايقظتكما حالًا

قال يوسف ولكن ألا يوافق ان تنام انت ايضا اذ ليس ما يتهددنا الان

قال فرغوسن . كلاَّ يا يوسف فاني احبُّ السهاد ونحن الان غير متحركين واذا لم يحدث شيء . فنبقى غدًا في اعال نفسه الذي نحن فيه

فتدثر ديك ويوسف باللحاف وتمددا في المركبة ورقدا ومكث فرغوسن وحدهُ ساهرًا في السماء الوسيعة

ثم اخذت الغيوم بالنزول رويدًا رويدا وتكاثفت الظلمات وتراكمت بعضها فوق بعض واحاطت السوداء كدائرة حول الكرة الارضية كأنها مزمعة ان تسحقها

وعلى الاثر صاء برقٌ سريع في ذلك الظلام ولم ينتهِ من لمعانهِ الَّا قصف الرعد ودوى صوتهُ في اعماق السماء

قال فرغوسن هيا بنا يا رفاق انهضا

فللحال نهض ديك ويوسف من قوة قصيف الرعد الذي رَدَفهُ صوت فرغوسن ووقفا ينتظران اوامر العلامة

فقال ديك . وهل ننزل

قال فرعوس · كلاَّ فانا لا نطيق النزول ولنحكم هيا بنا ان نصعد الى العلاء قبل ان تتحول هذه السحب الى مياه وتعصف زوابع الرياح

ثم اضرم نار القصبة بقوة واحدث المحصورة في الارتفاع

اما العواصف في تلك البلاد فانها تمتد سريعًا وتشتد كثيرًا وما مضت برهةٌ الَّا اومض البرق ولمع في الغيم ثم ارتدفهُ عشرون برقًا اخر حتى امست السماء مختلطة بشرر كهربائية احدث في التساقط مع الامطار الوابلة

قال فرعوس قد تأخرنا في تمهيد مرامنا ويبغي علينا الان المرور بطبقة نارية فقتنا المفعمة هواء قابل الاشتعال

اما ديك فما زال يراجع كلامهُ ويقول علينا في النزول علينا في النزول

قال فرعوس سواء صعدنا ام نزلنا فلا يزال خطر الصاعقة محيقًا بنا ورد على ذلك اننا اذا نزلنا الى الارض تشققت قبتنا حالا باغصان الاشجار

فقال ديك · ارى اننا نعلو الان

قال فرعوس : طلاع طلاع

وما برحت البروق المتتابعة في وميض ولمعان كالاسنة في القتال والرعد في قصيف وعجيج وشوهدت السماء كأنها شعلة نارية ماجحة اللهيب والريح تهب هبوبًا شديدًا في دامس الظلام وتاوي لها السحب المستنيرة بالبروق وكأن آلة نارية عاملة من العلاء على اضرام النار ونشرها

ومكث فرعوس محافظًا على قوَّة حرارة القصبة والقبة تمتد وتصعد الى العلاء وكان ديك جاثيًا على ركبتيه وسط المركبة وهو ماسك باطراف الخيمة لكن القبة كانت تدور دورانًا يدوخ الراس وقد اضطرب المسافرون من شدة حركتها والرياح تصدم القبة وتحوّرها في بعض الاماكن فتضغط ضغطًا عظيمًا ثم امتد البرَد في الطلال واتبعهُ صحة ولغط واما القبة فما انفكت تسير مرتفعة

وحولها تدور البروق كخطوط نارية يلاقي بعضها بعضاً

فقال فرغوس - في حفظ الله تعالى ها نحن بين يديه فليفعل بنا ما يشاء ومنهُ وحدهُ نرجو نجاتنا من تهلكتنا وعلينا يا صاحبيَّ ان نكون على حذرٍ من كل طارقة وبلية وربنا تخترق قبتنا ولا يكون سقوطنا الى الارض سريعاً جداً

فلكاد يلفظ صوت فرغوس اذن الرفيقين لكنهما كانا يشاهدانه في صفاء وهدوء تامين وسط البروق وعيناه شاخصتان بأجيج النيران المحيقة بقبتهِ

وما مكثت القبة تدور وترتقي الى فوق فمضت ربع ساعة واذا قد تجاوزت حدود منطقة السحب واحد المسافرين حينئذ في مراقبة تلك الاشعة الكهربائية تحتهم كأكاليل ناري يترجح السحب وكأن ذلك الاكاليل مركوز في اسفل المركبة وكان هذا المنظر من اجمل المناظر الطبيعية التي يشاهدها الانسان لان العاصفة اسفل والسماء اعلا مرصعة بالنجوم والكواكب وهي صافية لا غيم فيها والقمر يلقي اشعتهُ على تلك الغيوم المضطربة

فتطلع فرغوس في البارومتر ورأى انهم في علو اثني عشر الف قدم عن الارض ونظر الى الساعة فكانت الحادية عشرة ليلا

ثم قال : شكراً لمولانا فقد زال عنا الخطر ولسنا مبالين وينبغي علينا ان نحافظ برهة على هذا العلو

فقال ديك - ويلاه ويلاه ما كانت ارهب تلك الساعة

قال يوسف - وقد شاهدنا هذه المرة شيئاً جديداً في رحلتنا واني مسرور الخاطر لمشاهدتي العاصفة من المعالي فانهُ مشهد يروق للناظر

# الفصل الخامس عشر

## في بحر الخضرة ومصارعة الفيل والعشاء في العربة والمبيت فيها

ولما دخلت الساعة الرابعة صباحاً تراءت الشمس من وراء الافق وتبددت السحب من السماء وهبت في تلك الدقيقة نسيم الصباح وهو نسيم رخيم ينعش الفؤاد

ثم ظهرت لديهم الارض المتأرج عرفها اذ انهم لم يحيدوا عن الناحية التي مكثوا فيها مدى الليل كله فخفف فرغوس حرارة القصبة وابتدأت الفئة بالنزول وذلك لكي تتجه الى الناحية الشمالية فبذل العلامة مجهوده ليجد طبقة هوائية موافقة لغرضه فما نجح مسعاه بل ما برح الهواء يدفع المسافرين الى الجهة الغربية حتى اتوا على مرأى من جبال القمر المشهورة التي هي على هيئة نصف دائرة حول رأس بحيرة تنغانيكا وسلسلتها الظاهرة في الافق اللازوردي والوعرة جداً والصعب الصعود عليها واشبهت بحصن منيع يصد المسافرين عن المرور وفي حضن ذراها قامت ثلوج مستديمة

فقال فرغوس: هوذا نحن في بلاد لم يأتها المسافرون للفحص عنها وقد توغل القبطان برتون كثيراً في الجهة الغربية لكنهُ قط لم يتوصل الى هذه الجبال العظيمة بل انهُ انكر وجودها خلافاً لرأي رفيقهِ اسبيك الذي اثبت وجودها وزعم برتون انها خالت في عقل رفيقهِ كشبح خيالي. اما نحن الان فقد تأكدنا وجودها ولا يعترينا الريب بذلك

فسأل ديك وقال: هل نجوز هذه الجبال

قال فرغوس: ان شاء المولى فلا نفعل ذلك واومل وجود طبقة هوائية

يكون فيها مهب ريح تدفعنا الى خط الاستواء واذا لزم الامر انتظر وهلة الى ان تهب ريح موافقة لغرضي كما يُعمل في المراكب التي تلقي المراسي في البحر عند هبوب رياح مخالفة لمسيرها

واذ كان يتحرى ساموئيل الطبقات الهوائية صادف ما وافق مسعاه فسارت القبة في جنوبي شرقي افريقية بسرعة وسطى

فتطلع في البوصلة وقال ها نحن سائرون في الجهة الموافقة وعلو على الارض نحو مايتي قدم فليس ما يصدنا عن مشاهدة الاصقاع التي نمر بها ولما كان القبطان اسبيك منطلقاً الى اكتشاف بحيرة اوكروي سار الى الناحية الشرقية ومر على خط مستقيم فوق مدينة كاره

قال ديك وهل يطول مسيرنا هكذا

قال فرغوسن. ربما يطول قليلاً حيث مرادنا ان نتقدم الى جهة ينابيع النيل ولكي نبلغ الحد الذي بلغه المسافرون القادمون من الشمال فيجب علينا المسير مسافة ستمائة ميل ونيف

فقال يوسف وهلاّ ننزل الى الارض لنحرك اقدامنا المخدرة

قال فرغوسن بلى ومع ذلك يجب علينا توفير زادنا ولكن عند نزولنا سيأتينا ديك بلحم طري

قال ديك هذا بين يديك يا حبيبي

قال فرغوسن. ويلزمنا ايضاً ان نجدد زاد الماء ولا اعلم هل تدفعنا الريح الى اصقاع قاحلة وبناء عليه يلزمنا ان نأخذ احتياطنا من ذلك القبيل

وعند الظهر حامت المنطورة في درجة °١٥ °٢٩ طولاً و °١٥ °٣ عرضاً وقد اجتازت بقرية ايوفو وهي حدّ اونيسام وادي الشمالي بعد مرورها على بحيرة اوكروي

اما الاقوام القريبة من خط الاستواء فتفوق تمدنًا على غيرها من اواسط افريقية ويتولاها ملوك ذات سلطة مطلقة فيجورون على رعيتهم ويعيثون بغيًا عظيًا والاقاليم الذي تكثر فيه السكان متألفون جميعهم مع بعض هو الاقليم المعروف بقراغوا

واجتمع راي المسافرين الثلاثة على ان ينزلوا الى الارض في اول محلة مناسبة لغرضهم وكان مرادهم ان يمكثوا فيها برهة طويلة ثم نظر فرغوسن الى الافق وجمع اطرافها ليرى اذا كان افقها شيء من الخلل. فحصل العلامة حزمة القصبة وبعده تدلت المراسي فاخذت تجر على حشائش كثيفة مساوية السطح يبلغ علوها نحو سبعة الى ثمانية اقدام

ولم تكن تلوي تلك الخضار ان المركبة فوقها ولا تتخللها حجارة ولا اشجار بل انها كبحر عرمرم لا هادية فيه

فقال ديك اري انا نسير كثيرًا في هذا المرج الفسيح لاني لا ارى شجرة يمكن ان نتعلق بها واظن انه قد قامت دون الصيد موانع ومصاعب كثيرة في هذه الاماكن

فقال فرغوسن مهلًا يا ديك مهلًا ألا ترى انك لا تستطيع الصيد بين خضار تعلو قامتك فانا عن قريب نصل الى مكان يوافقنا

وفي الحقيقة كان مسيرهم الهوينا في ذلك البحر الاخضر العابقة منه النسيم مما يطرب الفؤاد ويسر الخاطر وقد اتى اسم المركبة طبق اسمي لانك كنت تراها كأنها تشق الامواج والطيور ذات الالوان البهية تتطاير احيانًا من تلك الخضار ساعية باصواتها الشجية في تلك الروضة الزهية وقد خطت المراسي المتدلية خطًا شبيهًا بالخط الذي ترسمه السفينة في البحار

وفيا هم سائرون هكذا اذا صدمت القبة شيئًا انتفضت منه فطن

المسافرون ان المرساة تعلقت باحدى الصخور المتوارية بين تلك الخضار

فقال يوسف قد تعلقنا يا مولاي

فقال ديك . عليك في القاء السلم

فلم تفوه بهذا الكلام الا صح صراخ حاد في ذلك الفضاء فاندهش المسافرون من ذلك ورفع جميعهم صوتًا واحدًا قائلين . وما هذا

فقال وحد . هذا صوت غريب

وقال آخر . العجب العجاب انا سائرون

وقال آخر . قد انحلت المرساة

فقال يوسف : وهو ماسك بالحبل يحاول جره الناس انها متمسكة جيــدا

فقال ديك ويحك وهل يسير ما الصخر

فلما مضت برهــة الا شاهد المسافرون شيئًا مستطيلا ومتلويا دون الخضرة

فقال يوسف لا ريب في انها حية رقطاء تمشي بنا

فقال ديك أ هي حيــةٌ . ودك سلاحهُ متهيئا لاطلاق الرصاص عليهــا

فقال فرغوسن . كلا ولم تصيبا نصكما يا خليليَّ فان ما هذا الا خرطوم فيل والفيل هو الذي يجرنا

فتأهب الرفيقان واستعدا لاطلاق الرصاص عليه

فقال فرغوسن . اصبرا قليلًا فان ينطلق بنا الى ناحية موافقة لنا

وبعد ان سار الفيل في ذلك النحو الاخضر تراءى لاعينهم في بقعة خالية من الخضرة باكثر جلاء وامتياز ومن قامته الشاهقة العلو علم فرغوسن انهُ ذكر

من طائفة حسنة جداً وله نابان يلمعان بياضاً ذات انثناء لطيف ويحكى ان طولهما يبلغ ثمانية اقدام ثم نصروا المرساة ان اطرافهما تعلقت بنابيهِ وتمكنت بهما

فما برح الفيل يسعى ويحاول التملص منهُ فذهب سعيهُ هدرا

فقال يوسف وقلبهُ طافح بالسرور هيا بنا هيا يا فيلا امينًا فقد تنوعت كثيرًا هيئة سفرنا في هذه البلاد اذ احد فيان يجرّ مركبتنا كما تجر احيانًا السفن بعضها بعضًا ونعم السفر على هذا النحو

فقال ديك. والى اين ينطلق بنا (وكان سلاحهُ بيده وقد عيل صبره من انتظار امر فرغوسن لاطلاق الرصاص)

قال فرغوسن اعتصم قليلا بحبل الصبر يا خليلي لاننا منطلقون الى جهة حسنة

اما يوسف فما زال يحث الفيل بكل انواع الالفاظ والعبارات الطبيعية ويصيح باعلى صوتهِ. خوخو هيا يا محبين البراري الافريقية سر بنا سر بنا الى قــدام

ثم ابتــدا الفيل في العدو السريع وهو يلوي خرطومهُ ذات اليمين وذات الشمال وفي قفزه كانت تهتز القبة هزة شديدة فهيأ العلامة فأسًا ليقطع الحبل المعلقة عليهِ المرساة اذا الجأته الى ذلك الضرورة

لكنهُ قال: لا ارغب في ان اعتقهُ الآ وقت الضيق

فدامت تلك العــارة نحو ساعة ونصف والفيل لا يحس بتعب ولا كلة وقد قيل عن هذه الحيوانات ذات الخراطيم انها تعدو عدوًا مليمًا ومن يوم الى يوم تشاهد في امكنة بعيدة بعضها عن بعض بمسافات شاسعة وتشبه كثيرًا الحيتان البحر العظيمة بحسمها وسرعة عدوانها

فقال يوسف في الحقيقة ما صيدنا الا ويشبه صيد صيادي الحيتان لاننا دنينا لخطاف فتعلق به الفيل كما تتعلق الحيتان بخطاطيف صياديها

اما ورعوس فاضطر الى ان يغير مسيره ويسلك من قائده لما تراءى امامه في شمالي المرج من تغيير هيئة تلك الاراضي اذ شاهد عن بعد ثلاثة اميال حرشا فيه الاشجار المتكاثفة فارعز الى خليله ديك قائلاً دونك والفيل فانه يجب علينا توقيفه عن مسيره برمي ديك سلاحه واطلق الرصاص ولما كان في مركز لا يتمكن به من تحكيم طلقته اصابت الرصاصة راس الفيل فسقطت على جانبه لكنه لم يرتع من تلك اللطمة بل عند ما طرق آذنه دوي تلك الضربة رمح في سيره واخذ يعدو عدواً شبيهاً بسباق الخيل

فقال ديك ويلاه فان الرصاص لم يؤثر في راسه

قال يوسف ان راسه لاصلب من الصخر

قال ديك ومرادي ان اطلق الرصاصة على كتفه ثم دك سلاحه واورى الزناد فصاح الفيل بصوت هائل وما برح يعدو

فقال يوسف سيدي ديك يلزمني ان اتي بانيك والا لا ينتهي العارض فدك سلاحه واطلقا كلاهما رصاصتين فاصابتا جوانب البهيم

فبعد ذلك وقف الفيل برهة ورفع خرطومه ثم عاد الى جريه وهو يهز راسه ودمه يسيل من جراحه سيلانا وافرا

فقال يوسف علينا ان نحمل ناراً دائمة

فقال ورعوس . ونارا مستمرة اللهيب لاننا لا نبعد عن الغابة اكثر من ستين ذراعا . فاوقدوا النار الدائمة فقمر الفيل قمرة هائلة وارتجت لها القبة ارتجاجاً عظيماً حتى اوشكت ان تتمزق قطعاً ووقع الفأس حينئذٍ من يد العلامة الى الارض

واصبح المسافرون حينئذ في حالة مخيفة اضطرت لها افئدتهم لان المرسا
ككات ممكنة في الفيل فلا يمكن قطع الحبال بالسكاكين التي كانت •
المسافرين وما املك الفيل يتقدم نحو اعاب وعند دنوه منه رفع راسه قليلا
فاصابته رصاصة فقأت عينه فوقف ساعتيد واضطرب ثم انثنت ركبتاه وكشر
حانقه الى الصياد

فقال ديك . هاك رصاصة في قلبك يا فيل السوء ورماه برصاصة
اخيرة

وزأر الفيل وزمجر وهمهم كمدًا ومبادرة ثم نهض على قوائمه وعقّف خرطومه
وسقط بثقله كله الى الارض على احد نابيه فحطمه حطمًا وكانت تلك السا
ساعته الاخيرة

قال ديك قد تحطم نابه وهو من العاج الذي يسوى في بلادنا ك
عشرين رطلا ٣٥ دهنا انكليزيًا

فقال يوسف وهو نازل الى الارض وماسك الحبل في يده منه عا
الثمن على حسابك

قال فرغوسن : وماذا يهمك اسمك ياخليلي ديك هل ترى قد اتينا لنتا
بالعاج ونتّبس الغنى والاموال في هذه البلاد فصمت الصياد

اما يوسف فنظر الى المرساة فرآها محكمة التعليق بناب الفيل السا
سالمًا ثم قفز العلامة وديك الى الارض ولبثت القبة المنفوخة نصفها مرتكز
على جسم الحيوان

فعند نظر ديك الى الفيل قال وما احمله واعظمه فاني لم ار في بلاد الهـ
فيلًا له قامة شبيهة بهذه القامة الجرودية

قال فرغوسن : لا عجب في ذلك لان الفيلة في البلاد الافريقية تحوطا

وجبالاً وطالما قد سعى في صيدها اقوام في سواحل الجنوب ولنا قد هجروا الى خط الاستواء حيث سرناهم مجتمعين نشردمات

فقال يوسف . اما الآن فاني عازم على ان اطبخ طعاماً لذيذاً مدهشاً من هذا الحيوان وانت يا ديك اذهب واصطد ما شئت مدة ساعة او ساعتين ريثما سيدي يباطر القبة ويصلح فيها ما شاء

قال فرعوس . هاك اوامراً مناسبة فافعل اذاً يا يوسف ما شئت

قال ديك اما انا فاني منطلق لاصطاد مدة الساعتين التي تنازل يوسف ان يسمح لي بهما

فقال فرعوس : انطلق يا صاحبي واكن كن حريصاً ولا تبتعد عنا كثيراً

فتسلح ديك ببارودته ودخل الغاب وجعل يوسف يتمم تتميم وظيفته فاحتفر في اول الامر ثقباً في الارض يبلغ عمقهُ قدمان واملأهُ حشباً يابساً كان منتشراً بكثرة على الارض ومحطماً من فيلة قد مرت من هنالك كما دلّ عليهِ اثارها وبعد ان امتلأ الثقب ووضع فوقهُ حطباً كثيراً عالياً عن الارض نحو قدمين واضرم فيها النار

ثم اقبل الى الفيل الساقط بعيداً عن الغاب نحو ثلاثين ذراعاً وحسم خرطومهُ البالغ عرضهُ نحو قدمين في مخرجهِ ثم فصل قُدرةً من لحمهِ وضمّ اليها احدى قوئهِ اللذيذة جداً فان القوائم في الفيل هي القطع الاكثر والالطف من جميع لحومهِ كالرجل في الدب وكالرأس في الخنزير الوحشي

وبعد انحلال النيران في الثقب قام يوسف الرماد والحطب منهُ فكانت حرارة قوية وسط الثقب فلفَّ قدر اللحم بورق العشب ووضعها في عمق ذلك الثقب المتأجج حرارةً ثم غطاها برماد سخن ووضع حطباً فوق الرماد وبعد ما اشعلها مدة رفعها فوجد اللحم قد شوي ونضج على احسن اسلوب

فامدها وحملها على اوراق خضراء ثم رتب الطعام على الحشيش الرطب واخضر الكعك والعرق والقهوة ثم استقى ماء عذباً من ساقية كانت جارية في تلك الجهات

فاضحت تلك الوليمة مما يطرب الخاطر وظنّ يوسف ان تناول الطعام شانه ان يزيد النظر بهجة وسرور

وقد قال في نفسه ما احلى والذّ من هذه المعيشة لانا نسافر في اقطار وسيعة بلا تعب ولا خطر ونأكل ونشرب في الاوقات اللازمة فيا تراه جانسا علينا ومع هذا كله لم يكن الخواجا ديك يشاء مرافقتنا

اما العلامة فرغسن فاشتغل بفحص مدقق عن ادوات القبة الهوائية ورأى انها قد قاومت ما حصل لها من الضغط مدة مدة ولم يحصل لها خلل من ذلك ثم قاس علو تلك الارض المقيم فيها وحسب قوة القبة الرافعة عن رؤيته انها لم تفقد شيئاً من الإدروجين ونظر الى الغطاء الخارج فشاهد ان المادة الصمغية المدهون بها الغطاء لم يعترها ادنى فساد ولا يمكن ان يتخلل القبة جهة من جهاتها لا الهواء ولا الماء

ثم نظر الى الزاد فكان غزيراً وقد مكثوا في رحلتهم من زنجبار الى ذلك المكان مدة خمسة ايام ولم يفقد منه الّا ما قلّ ولم يحتج العلامة سوى الى التزود بالماء من جديد

اما الانابيب وغيرها من ادوات تخفيف الحرارة ونحوها فلبثت سالمةً من كل عائلة ولم يصر بها قط ما حصل للقبة من الاضطراب وقت ربقانها فوق الغيوم وامتطائها الفيل

وبعد ما فرغ من الفحص عن مصورته اخذ يرسم هيئة تلك البرية المحيطة بهم مع المرج الواسع والحرش المقابل لهم ورسم ايضاً القبة منتصبة على الفيل

ذات الجثة الباهظة

وفي غضون ساعتين من الزمان اقبل فيلك ومعهُ الاحمال المذهبة والجاد بعض الحيوانات الذبيحة فعرض الى يوسف ان يشوي منها شيئًا زيادةً على ما هيأهُ من العشاء

قال لهم يوسف : هوذا العشاء حاضر فتفضلوا نأكل وفي الحال قد جلس ثلاثتهم على ذلك البساط الاخضر وتناولوا الطعام ووجدوا لحم الفيل لذيذًا جدا وشهيًا للاكل ثم شربوا على ذكر الاوطان واخذوا في تذكير التمتع في تلك الاراضي الرهيبة التي لم يسبقهم الى التنعيم فيها احد قط منذ نشأتها

وكان فيلك يأكل ويشرب بفرح وطرب ويتكلم كثيرا وقد بلغ منهُ مبلغ الثمول حتى انهُ عرض على رفيقهِ العلامة بعد ان يبنوا لهم هناك كوخا وان يقضوا فيها ما بقي لهم من الايام في الرغد والهناء وعليهِ يعيشون هكذا عيشة زنسون الشهير فيكون يوسف بمنزلة صاحبهِ الملقب بفردي ( اي الجمعة )

ولما رأى العلامة ان هذا الصقع خالٍ من سكان قد اطمأنَّ فعزم على ان يبيت ليلتهُ مع رفيقيهِ على الثرى فقام يوسف وهيأ متراسًا من النيران حول فرشهم لكي يمنع وثبات الوحوش الكاسرة التي لا بد من وجودها في تلك القفار فضلا عن انهُ يمكن ان رائحة لحم الفيل تجتذب في تلك الليلة بعضًا من الضباع وابناء آوى وغيرها من الحيوانات فأطلق كذا في الرصاص مرارًا عليهنَّ ولكن مضت ليلتهم كلها دون ان يدهمهم عارض سوء البتة

———

## الفصل السادس عشر

في ما كان من بحيرة اوكارُوه ومبيت المسافرين على جزيرة قفرة
ومشاهدتهم عيون النيل وامضاء اندريا ديبنو

ولما اصبح الصباح واستيقظ الرفاق من رقادهم نحو الساعة الخامسة اخذوا يتأهبون للرحيل فحطم يوسف باني القيال بالفأس الذي وحده معدان وقع من يد العلامة كما ذكروا ما جلس ثلاثتهم في المركبة ولم يعد يعيقها عائق ارتفعت الى العلى ودفعت الريح المحصورة الى الجهة الشمالية الشرقية فقطعت ١٨ ميلا بالساعة

وكان قد حسب فرغوسن درجة مركزه من علو النجوم في الليلة السالفة فعرف انه في درجة ٢°٤٠ عرضاً تحت خط الاستواء اي على مدى مئة ثانية وستين ميلاً جغرافياً ثم مرّوا بقرى عديدة غير مكترثين عما كانوا يسمعون من الصراخ والصخيخ المتصاعد اليهم من الذين كانوا يشاهدونهم مارين فوق رؤوسهم واخذ فرغوسن رسم تلك الاراضي مع ما ترى له من المناظر ثم جاز بروابت رونعي الوعرة كروُوس جبل اوراغار ولما وصل الى تسعا شاهد بداية ذرى سلاسل كراغواه التي ظنها مشتقة من جبال القمر وقد قرب الى الحقيقة ما كان يقال في الحكايات القديمة ان هذه الجبال هي مهد لنهر النيل لانها متاخمة لبحيرة اوكارُوه وقد زعم كثيرون ان هذه البحيرة هي الخازن الذي منهُ تجري مياه ذلك النهر العظيم

ثم شاهد اخيراً فرغوسن من الافق تلك البحيرة المشتهاة التي نصر بها القبطان اسبيك بدون تحقيق في اليوم الثالث من شهر آب سنة ١٨٥٨ وكان

نظر العلامة اليها من كاوورو وهي مقاطعة وسيعة لتجار تلك البلاد

فتحركت عند ذلك شعائر فؤاده لانهُ قرب الى مركز احدى المقاصد ذات الاهمية الجليلة التي عانى نشأتها تلك السفرة الحوية ووضع المظرة على عينيهِ وجدَّ في التحرفيها والتأمل بجميع نواحيها واطرافها وكانت الارض تحت اقدامهِ جدباء قاحلة وقلما يصادف فيها بعض الوديان النابتة زرعًا

ولما كانت الارض مرتفعة في جملة اماكن رآها آخذة في استواء سطحها كلما قربت الى البحيرة ثم بدأت تتراءى لاعينهِ حقول الارز ويليها حقول الشعير وغيرها من النبات التي يستقطر منهُ الخمر ثم الموالي وهو نبات يقوم مقام القهوة وهنالك غابتة كالقرى المؤلفة من نحو خمسين كوخًا يُغطيها القش وتحيط بها بساتين مزدانة بالزهور

وقد نظر المسافرون من منظورتهم هيئات ذلك القوم الجميلة الباهتة الضاربة الى لون الاصفر المسمر وشاهدوا ايضا النساء ذات الجسم الضخم المتماشية في حقول الزراعة وقد تعجب يوسف وذلك لما اعلمهما فرغوسن ان سمن هؤلاء النساء مسبب عن اتخاذهنَّ اللبن قوتًا يوميا لهنَّ

فبعد الظهر وصلت المنصورة الى درجة ٤٥°١ من العرض الجنوبي وبعد مرور ساعات من الزمن دفعتها الريح الى ما فوق البحيرة

وقد دعا القبطان اسبيك تلك البحيرة باسم نيانزا فيكتوريا وفي تلك الجهة اخذ فرغوسن يقيس البحيرة وكان ثمانين الف متر وعند طرفها الجنوبي لقي القبطان جملة جزائر فسماها جزائر الشمال ثم تقدم الى موانزا في الجهة الشرقية وهنالك قابل السلطان فاواه بالاكرام واضافهُ بلياقة ولطف ودار حول زوايا البحيرة الثلاثة لكنهُ لم يتمكن من وجود قارب واحد ليعبر بهِ البحيرة ويصل الى جزيرة اوكيرازوه الكبرى الكثيرة السكان وقد قيل عنها انها

مسادة من ثلاثة سلاطين مع انهُ لم يتحقق عنها الا انهـا شبه جزيرة عند انحاص المياه المحيطة بها

فالحارث المحصورة الى الجزيرة من الجهة الشمالية على ذكره من العلامة الراغب في ان يجدد دائرتها على جهة الجنوب اما سواحلها فكانت مملوءة ادغالاً كثيرة الاشواك واجمات ملتفة بعضها على بعض وتغطيها نباتات من العوسج الحالة عليها وهي متحمة اللون ولا يطير عن تلك الحلات سوى مسكوية ام قائلة السكين وكثيراً ما كانت تنزع اوراس الماء باحراش القصب ثم تعود راكضة الى الجزيرة لتتوارى في مياهها البيضاء

اما الافق المشاهد على مدى الجزيرة فكان عريضاً ولذا يخال الناظر بها بحر متسع والمسافة طويلة بين الطرفين فلا يمكن لمن وقف على جهة ان يبصر شيئاً من الجهة المقابلة سوى الماء المتراكم ولم تتألف العلاقات بين سكان كليهما وخصوصاً لان الانواء والزوابع فيها شديدة ودائمة الحدوث والرياح فيها عاصفة لانها عالية ومكشوفة

فشق على فرعوس الاتجاه فوق تلك الجزيرة وكان يخشى ان تدفعهُ الريح الى الجهة الشرقية ولكن وافقهُ الحظ ودفعه ذات الشمال ولما صارت الساعة السادسة حلت المحصورة على جزيرة مقفرة في درجة ٣٠° ١ عرضاً و٥٢° ٣٢ طولاً وهي بعيدة عن الساحل نحو عشرين ميلا اوبحياً

فعلق المسافرون مرساتهم على شجرة ولما امسى المساء سكن الهواء فقضوا الليلة بالهدء والطمانينة وفي تلك الجزيرة لا يستطيعون النزول الى الارض لان الناموس والبرغش تستر الارض كسحاب متكاثف ولما نزل يوسف الى الشجرة لتمكين المرساة ثم عاد الى مركزه احس بلسع الهوام ولدغها من كل جانب ولكنهُ لم يسوءهُ ذلك بل قال ان اللسع من دأب تلك الهوام

اما العلامة فرغوسن فلم يستصوب ان تعمل فيه طبيعة تلك الهوام بل رحى ما استطاع من الحبل حشية من ان يتصاعد اليه شيء من تلك العوص النائم اليه هديرها المخيف

وقد عرف فرغوسن علو البحيرة فوق مساواة سطح البحر وكان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين قدماً كما حدده القبطان اسبيك

فقال يوسف وهو يعرك بكميه ها نحن مقيمون بجزيرة

فقال الصياد. كنا نستطيع ان نطوف حواليها في برهة وجيزة ولكن لا يسكنها ساكن الّا هذه الهوام الطبيعة الرقيقة الجانب

قال فرغوسن ان جزائر هذه البحيرة ليست سوى اكام عالية ومغمورة في المياه وقد اصابنا حظ بمصادفة هذا الملجأ على هذه الجزيرة لان سواحل البحيرة لا يسكنها الّا اقوام برابرة فارقدا اذاً يا خليليّ بسلام لان الليلة رائقة

قال ديك وهل لا تغدو حذونا

قال فرغوسن لا استطيع ان اطبق جفوني فان هواجسي تجلب لي السهاد وتجافيني النعاس من جراها وما عدا فاذا وافقتنا الرياح سرنا الى الشمال بخط مستقيم وربما اكتشفنا السر المكتوم وهو عيون النيل فهل تظن اني ارقد وانا قريب من ينابيع هذا النهر الشهير

وقد ديك ويوسف بمحافظة رفيقهما العلامة لان الاهتمامات العلمية لم تكن تسبب لهما الهواجس والافكار

ولما صبح صباح الاربعاء في ٢٣ نيسان رفعت المنصورة مرساتها وكانت وقتئذ الساعة الرابعة وكان غيم الظلام المحيق بالبحيرة يتبدد قليلاً فقليلاً ولكن قد هبت الريح بعد برهة وصيرت غيماً كثيفاً كان مظللاً مياه البحيرة فارتفعت المنصورة الى المعالي واضطربت في اول وهلة ثم اتجهت نحو الشمال

فصفق العلامة بكفيهِ علامة الفرح والانشراح وصرخ قائلاً . ها نحن في سبيل مستقيم وان شاء المولى نشاهد اليوم عيون النيل والّا فلا نعود وراها ابداً ونجوز الآن خط الاستواء وندخل في نصف الكرة الشمالي

قال يوسف وهل تظن يا سيدي ان خط الاستواء مارٌّ ههنا

قال فرغوسن نعم يا خليلي الامين

قال يوسف فارجوك اذاً ان تأذن لي لكي اشرب على صحتهِ فالآن اني ارى ذلك مناسباً

فضحك العلامـــة وقال افعل ما بدا لك واشرب كاس عرقٍ اذ شئت ولعمري ان لك فمّاً خاصّاً بك لكنهُ لا يخلو من الفطنة والحكمة

وعلى هذا النسق كان احتفال مرورهم بخط نصف الكرة الارضيـــة من اعلا مركبتهم الهوئية

ثم هبّت الريح فاسرعت المركبة بالمسير فسارت ثلاثين ميلاً بالســاعة فشاهد المسافرون الساحل الغربي متحصاً قليل العوج وسهلات أوعدا وأرونا المرتفعة بعض الارتفاع

وشاهدوا مياه البحيرة الهائجة تعلو بعضها كامواج البحر واستنتج العلامة ان البحيرة عميقة جداً من مشاهدتهِ بعض الامواج تترجرج مدةً بعد سكون الهواء فرأوا تلك البحيرة كلها ولم يبصروا فيها سوى قارباً او قاربين

فقال العلامة : لا بدع ان هذه البحيرة المرتفعة المركز هي الحوض الطبيعي الذي منهُ تجري مياه الانهر التي في شرقي افريقية وما تختدمهُ السماء اليها من الابخرة تعشيهِ بالامطــار وعندي انهُ امر ماكد ان منبع النيل من هذه البحــيرة

قال ديك . وهذا سنحققهُ ان شاء الله

وبعد الساعة التاسعة اقترب المسافرون من الجهة الغربية فكانت قفرة موحشة ثم هبت الريح نحو الشرق فدفعت المنصورة الى الساحل الثاني من البحيرة فكان منحنياً وفي آخره زاوية مكشوفة في درجة ٤٠ ْ ٢ من العرض الشمالي وفي هذه الجهة الاخيرة جبال شامخة ذات رؤس قاحلة ويخترق هذه الجبال مضيق عميق ذو ثنيات عديدة يجري فيه نهر مزبد المياه

اما العلامة فكنت تراهُ محدقاً نظرهُ بتلك المحلات مع اعتنائه بادارة المركبة وكان باذلاً جهدهُ ان لا يفوتهُ شيء مما وُجد بتلك النواحي

ثم نادى رفيقيهِ وقال لهما لقد صدقت حكايات العرب المتداولة بينهم بقولهم عن نهر منبعهُ تتحوَّل بحيرة اوكارُوه الى الشمال لان هذا النهر موجود بالحقيقة وها نحن سائرون فوقهُ وماؤهُ تجري سريعاً وتحاكي سرعتها سرعة منصورتنا وكل نقطةٍ مما نشاهدهُ من هذه المياه الجارية تحت اقدمنا تسير الى ان تصب في البحر الابيض وما هي الآمن مياه النيل

فصاح ديك قائلاً ها هوذا النيل وقد شارك العلامة رفيقه بانشراحهِ وتعجبهِ منها

اما يوسف فقال حيَّ الله النيل ومن عادة يوسف ان يحيي ايًا كان وقت طربهِ وسرورهِ

وقد قامت صخور وجلاميد بين ضفتي هذا النهر السري فاعاقت مسير مياههِ ومما حقق العلامة في تخميناتهِ مصادفتهُ كثيرًا من مجاري المياه السريعة والشلالات المحكي عنها

وشاهد سيولاً كثيرة لا يُحصى عديدها نازلة من اعلاء تلك الجبال المحدقة بالنهر والساقطة فيهِ وفي الجهة الغربية كانت تتفجر مياه السواقي وتسير جميعها وفي مسيرها تحتشد سوية وتتسابق في الوصول الى ذلك النهر الآخذ

في التعاظم والتجسم شيئاً فشيئاً

فقال العلامة لا شك في ان هذا هو النيل ولقد اشتطَّ العلماء بالتفتيش عن اصل اسمهِ كما اشتطوا باستقراء منبعهِ فمنهم من اصَّلهُ من اللغة اليونانية ومنهم من اصَّلهُ من القبطية ومنهم من اصَّلهُ من الهندية القديمة (١) ولكن ما لنا الان ولاصل اللفظة اذ قد أُوتينا مشاهدة منبع المياه

قال الصياد : وكيف نؤكد ان هذا النهر ليس هو الآن ذاك الذي شاهدهُ المسافرون الذين اتوا من الجهة الشمالية واخبروا عنهُ

قال فرغوس . اذا وافقنا الهواء سنجد حولهِ تعالى عما قريب براهين ثابتة مقنعة لا رادَّ لها

ثم افترقت الجبال بعضها عن بعض وقامت مقامها القرى والضياع الكثيرة والحقول المزروعة سمسماً وذرة وقصب سكر ولما مرت المنصوره فوق سكانها هاجوا واضطربوا واظهروا الغضب والعدوان عوضاً عن ان يتأهبوا للعبادة اذ احسوا ان المسافرين اناس غرباء لا آلهة وكأن من قصد عيون النيل حاول ان يسرق منهم كنزاً مكنوناً او جوهرة ثمينة فاضطرت المنصورة ان تمكث سامية الارتفاع لئلا يبلغ اليها وبيل العبيد ( والوبيل آلة يُرمى بها البندق )

قال ديك : لا نستطيع ان نحط في هذه الاراضي بدون خطر

فحاورهُ يوسف وقال انما هم الخاسرون لانهم يعدمون لذة محادثتنا

قال فرغوس لا بد من النزول في هذا المكان ولو ربع ساعة وإلَّا فلا يمكني ان اثبت نتائج رحلتي

قال ديك : وهل لا بد من ذلك

---

(١) وقد جمع احد العلماء الحروف التي تركب منها ارقام نيلوس على ما في اللغة اليونانية القديمة فبلغ عددها ٣٦٥ يوماً وهي عدد ايام السنة تماماً

قال فرغوسن : لا بد منهُ ولو اضطرتنا الامور الى المحاربة والمناضلة

قال ديك هذا مما يسرني واجد في ملاحظة بارودتي وتأهب لادغارها

قال يوسف نحن بين يديك فمر بما تشاء واستعد هو ايضاً للمبارزة والقتال

قال فرغوسن . لا تكون هذه المرة الاولى التي استنجد فيها العلم قوة السلاح لان ذا الامر جرى في اسبانيا لعلامة فرنسي وهو يقيس ربع الدائرة الارضية

قال ديك طمن روعك يا فرغوسن وثق بمحافظين ماهرين

قال يوسف وهل وصلنا يا سيدي

قال فرغوسن كلا وينبغي لنا اولاً ان نرتفع الى العلاء لنشاهد رسم هذه الناحية حق المشاهدة

فامتد الإدروجين واذا بالمنصورة علت برهة عشر دقائق الف وخمسمائة قدم فوق الارض ومن هناك نظروا شبكة انهر لا يحصى عديدها مختلطة بعضها ببعض تصب مياهها في النهر العظيم وغيرها ايضاً كثيرات تجري غرباً بين الاكام الكثيرة الخصبة بها الحقول المخصبة

وفيما كان العلامة ينظر الى الرسم الجغرافي قال لسنا بعيدين عن غندوكورو تسعين ميلا بل لا نبعد عن الخط الذي بلغه المسافرون الآتون من الشمال خمسة اميال فلنقترب اذًا من الارض بتأنٍ واحتراز

فهبطت المنصورة نحو الفي قدم ونيف

وحينئذ قال العلامة يا رفيقيّ كونا على حذر فاننا لا نعلم ماذا يطرأ علينا

قال ديك ويوسف : ها نحن على حذر

فسارت المنصورة متتبعة آثار النهر وهي تعلوهُ نحو مائة قدم وحسب تخمين العلامة بلغ عرض النهر في ذلك المكان مائة متر وشاهد المسافرون سكان تلك القرى الكائنة على ضفتيهِ في اضطرابٍ وشغب وفي الدرجة

الثانية شلالة قائمة علوها عشرة اقدام ولا يمكن النزول بها

وقال العلامة هذي هي الشلالة التي دلَّ عليها موسيو ديشو

وكان حوض النهر آخذا في الامتداد رويداً رويداً وبدا المسافرون يشاهدون جزائر كثيرة منتصبة في وسطه اما العلامة فما زال محدقا بها ومشددا نظره اليها لكنه كان كالمحتار في امره اذ جعل يبحث عن مركز حتى ولم يكن يقع نظره عليه

فتقدم بعض السودان في القارب الى ما تحت المركبة فقرأهم ديك سلاما جميلا باطلاقه عليهم الرصاص فلم يصب احدا بل القى في قلوبهم الرعب والهلع ولذا هرولوا راكضين الى ضفة النهر

فودعهم يوسف وقال. حفظ الله وامسه يا حلاب ولو كنت مكانكم لما تجرأت قط على الرجوع الى هنا لكنت اخاف جدا من وحش جوي يرمي الصواعق من العلاء على من يشاء

وفيا هم على تلك الحال اذ امسك العلامة نظارته على الفور ووجه نظره الى جزيرة منتصبة وسط النهر

وقال هاك اربع اشجار

وفي الحقيقة كانت اشجار اربع مرتفعة في طرف تلك الجزيرة

ثم قال هذه جزيرة بنما

قال ديك: وبعده ماذا يكون

قال فرغوسن ان شاء المولى نزلنا هناك

قال يوسف ولكن ارى ان العبيد جالسون عليها

قال ديك: ان كلام يوسف طبق واقعة الحال واني اعاين نحو عشرين رجلا مجتمعين في هذه الجزيرة

قال فرغوسن . وهل يصيبنا هؤلاء عن ابعاد مرعوسا فانا سدد شملهم

قال ديك . اذا احس ذلك لديك فانا في يدك

وبعد ما اقتربت المصورة من الجزيرة كانت الشمس قد وصلت الى السمت وباهرت الغروب

اما العبيد الذين هم من قبيلة مكادو فاذ شاهدوا القبة الهوائية صحوا في الصراخ ورفع واحد منهم قلنسوته عن رأسه وحمل نيرها في الهواء فاتخذها ديك هدفاً له ورماها برصاصة فسقطت من يده متمرقعة ودهست شذر مذر وولت الشجاعة عن قلوب العبيد مدبرة وخافوا من تلك اللطمة الجوية خوفا عظيماً وللحال اسرعوا جميعاً بالنزول الى النهر وحاربوه بالسباحة ومن هناك اخذوا يضربون القبة بالمجانق والخلاهق والاسنة لكنها لم تصبها قط ضربة واحدة ثم تعلقت مرساة المصورة بثقب صخر ونزل يوسف الى الارض في الساعة وللحال

فقال له العلامة انصب لنا السلم وانت يا ديك تعالَ معي

قال ديك والى اين ولِمَ

قال هلمَّ بي نذهب سوية لانهُ يعوزني شاهد

قال ديك . هانذا بين يديك

قال فرغوسن وانت يا يوسف كن اميناً في حراستك

قال يوسف . كن مرتاح البال من هذا القبيل فاني مسئول بالجميع

ثم ذهب العلامة برفيقهِ الى مجموع صخور متصة عند رأس الجزيرة وهناك جدَّ في الفحص والتفتيش واخذ ينبش في الاكام حتى تخضبت يداهُ بالدم ثم مسك فجأة بيد رفيقهِ وقال له انظر الى ههنا

قال . ارى حروفاً

وفي الحقيقة كان حرفان منقورين في الصخر وظاهرين للعيان بجلاء وبيان

وهما A D اي ا . د .

قال فرعوس · اعلم يا رفيقي وفقك الله ان ا . د . هما اول حرفي اسم اندريا ديدو وهو من سبق جميع الذين قصدوا اكتشاف عيون النيل في التقدم الى هذا المكان

قال ديك ان ذا امرٌ لا ردّ عليه

قال العلامة وهل عندك اشكال في الامر الان

قال · اما هذا النيل ولا ريب فيه

ثم نظر فرعوس الى هذين الحرفين الثمينين نظرةً اخيرة واخذ رسمها بدقـة تامـة

وبعد ذلك قال الى رفيقه · هلمّ بنا نعود الى قبتنا

قال ديك فلنسرع لان بعض العبيد يتأهبون لعبور النهر والاتيان الى هذا المقر

قال العلامة . لا يهمنـا الان شيء . اذا دامت الريح وهبّت دفعتنا ذات الشمال حتى الى غندوكورو وبعيد ابناء الاوطان

وما مضت عشر دقائق الاَّحتى كانت المصورة تصعد بها الى الاعالي ثم نشر فرعوس الراية الانكليزية في تلك البطاح دلالةً على فوزه بالنجاح

# الفصل السابع عشر

في الحبل المرتجف واقوام نيام نيام وما كان من احاديث العرب
عن تلك البلاد

فاذ شاهد ديك رفيقه العلامة ناظرًا الى البوصلة سأله قائلا وما هو اتجاهك

قال العلامة انا نسير الى جهة شمال الشمالي الغربي

قال ديك. ويلاهُ ان هذه الجهة ليست الشمالية

قال العلامة كلا واظن انهُ يعسر علينا جدا الوصول الى غندوكورو وذلك مما يكدرني . غير انه على كل الاحوال فانا قد وصلنا حيث اكتشافات الجهة الشرقية بالشمالية فعليه لايليق بنا الاسف

وجعلت المنصورة تبتعد رويدا رويدًا من السيل

ولاحت من العلامة التفاتة الى تلك درجة العرض التي امتنع على اعظم السواح قطعها وقال . هناك تلك القبائل العاصية التي عنى عنها بتاريك ودابو وبيانتي فاشات جان الذين تركوا لنا احسن الفوائد المتعلقة بالنيل الاعلى

قال ديك والحالة هذه قد ايدت اكتشافاتنا سابق تخمينات العلماء

قال فرغوسن اي نعم قد ايدتها كثيرًا فان ينابيع النهر الابيض مغمورة في بحيرة عظيمة كالبحر وكثيرًا ما نظمت الاشعار بشانه محاولة ان تأصله من ينبوع سماوي وقد دعاه القدماء باسم اوقيانوس وقرب الى ظنهم انهُ جار من الشمس خطاً مستقيم . ولاشك ان مثل هذه التخيلات الشعرية تخسر شيئًا من رونقها فعلينا ان نستقي من مياه الفوائد التي يأتينا بها العلم فنعدد ما نراهُ

عرياً عن الصحة ونستمسك بما فيه صحة الرأي

قال يوسف وهناك شلالات ايضاً

قال فرغوسن . انما هي شلالات مكدر في ثلاث درجات عرضاً ولا شيء ادق من ذلك واتمنى لو كنا تمكنا من الرحيل فوق خط النيل

قال الصياد وكأني ارى عن بعد رأس جبل

قال فرغوسن . هذا جبل لكويك المعروف عند العرب بالجبل المرتجف وقد طاف اندريا دَنو حول هذه البلاد وهو منتحل لنفسه اسم الخليف افندي اما الاقوام الساكنون بالقرب من النيل فهم اعداء بعضهم لبعض ولا ينفكون من القتال والمصارعة وعليه فلا بدّ من ان يكون دَنو المذكور قد عانى من المشقات والمصاعب والمحذورات معظمها

وقد حملت الريح على اجنحتها مصدرة المسافرين الى الجهة الشمالية الغربية وحدَ العلامة في ان يجد طبقة هواء منحرفة عن الاتجاه الى جبل لكويك لتنحي عنهُ

فقال العلامة . خليليَّ منذ هذه الساعة تبدا رحلتنا الافريقية لانا في ساقين لم تتبع الآثار من سلفنا وها نحن الان نرمي بانفسنا في بحر هذه المفاوز المجهولة ما تقولا لي هل تجمد همتكما ويبرد نشاطكما

فصاح الرفيقان بصوت واحد وقائلين كلا ثم كلا

فقال فرغوسن هيا بنا هيا يا خليليَّ ولنسير بحفظ المولى

ولما دخلت الساعة العاشرة وقد مرّ اذ ذاك المسافرون فوق وهدات واحراش وقرى متفرقة وصلوا اخيراً الى جانب الجبل المرتجف فساتروه ومضوا بغير عاقة

وفي ذلك النهار الخالد الذكر اي في ٢٣ نيسان مرُّوا برهة خمس عشرة

ساعة مسافة ثلاثمائة وخمسة عشر ميلاً جغرافياً وذلك بقوة ريحٍ شديدة

ولكنك كنت تراهم في هذه المدة الاخيرة ملتحفين بشعار كآبةٍ لا سبب ظاهرٌ لهـا وقد ملك السكوت المطلق في افئدتهم فهل يا ترى كان فرغوس غارقاً في بحر التأملات من جرى اكتشافاته ام كان رفيقاه حاملين على عاتقهما عبء الاهتمام بالرحلة المتيدة وسط البلاد القفرة والمفاوز الشاسعة وهم اذ ذاك لا يعرفون لهـا بدءاً ولا نهاية فلا شك في ان جميع هذه الامور تخللت افكار المسافرين وقد خالجها التذكر بالاوطان والخلان

اما يوسف فما لاحت على محياه الّا لوائح عدم الاكتراث بشيء واذا خطر له على بال ذكر هوى الاوطان قد قال لم تعف عني الاوطان بل انا غبت عنها وهذه علة غربتي ومع ذلك قد نظر الى سكوت رفيقيـهِ بعين الحرمة والاعتبار

فعند الساعة العاشرة مساء القت المركبة مرساتها في جوار الجبل المرتجف وتناولوا العشاء بالهناء ثم رقدوا بحراسة كل منهم

وفي الغد طرقت اذهانهم الافكار الصافية وكان الجو رائقاً والريح تتلاعب في تلك الآفاق وهبها من الجهة الموافقة فقام يوسف وقدم لرفيقيـهِ فطوراً لذيذاً فانتعشت منهم الاكبـــاد وتحوّلت اخلاقهم من دار العبوس الى دار الايناس

واما البلاد التي جابوها في ذلك اليوم فهي شاسعة جداً وتخومها من جبـال القمر الى جبال دربور وتلك المسافة تكاد تبلغ مسافة اوربا من اولها الى آخرها

فقال العلامة انا مازون الآن بالبلاد التي زُعم عنهـا انها مملكة أُوزيا ولرأي بعض اهل الجغرافية ان بحيرة عظيمة ممتدة في اواسطها فسنعلم ان كان

في هذا الامر بعض ظواهر الحقيقة

قال ديك وكيف امكن افتراض ذلك الرأي

قال فرغوس. انهم افترضوهُ من حكايات العرب الذين يكثرون من الاخبار والاحاديث فان بعض المسافرين عند وصولهم الى كاره او الى البحيرات العظيمة تلاقوا بعبيد من الاقاليم المتوسطة فاستعلموا منهم عن بلادهم ثم نحوا رزمة اوراق تلك الاخبار واستنتجوا منها أقيسة وذهبوا فيها مذاهب شتى وهي في جوهرها لا تخلو من بعض الصحة والحقيقة وقد رأيت الان ان حكاياتهم عن منبع النيل وقعت موقع الحقيقة وان لم توجد قبلا على محمل الصدق

قال ديك: في الحق تكلمت

فاستتلى فرغوس كلامهُ وقال: انهُ بواسطة هذه الاوراق والاخبار سُطرت الرسوم الجغرافية ولهذا سأسير في طريقي طبقًا لهذه الرسوم واصححها اذا مست الحاجة

قال يوسف: يا مولاي وهل هذه البلاد مسكونة بالاهالي

قال العلامة لا ريب في انها مسكونة ولكن بئس السكن وجميع هؤلاء الاقوام يُعرفون باقوام نيام نيام وما وُضع هذا الاسم الّا مماثلة للمضغ والعلك

قال يوسف: بالتمام والكمال نيام نيام نيام نيام فكأني صامعٌ

قال العلامة. لو كنت سنّاً لهذا اللقب لما طابت لديك

قال يوسف: فسر لي كلامك يا سيدي

قال فرغوس: اعلم ان هؤلاء الاقوام معدودون اغوالًا يأكلون لحم بني آدم

قال يوسف . وهل ذا امر لا يشوبهُ ريب

قال العلامة ولا ريب فيهِ ومن الناس من قال عنهم ان لهم اذناب كالدواب والبهائم ولكن تحقق عندهم فيما بعد ان هذه الاذناب خاصة بجلود بعض الحيوانات التي كانوا يتردون بها

قال يوسف : وما احلى من الذنب فانهُ يصلح لطرد الناموس والبعوض

قال فرغوس : ربما يصلح لذلك ولكن ينبغي ان ندخل هذه الحكايات في طي الخرافات مجانسة لاحد السواح من رؤوس الكلاب الى بعض الاقوام الافريقيين

قال يوسف : ولا احلى من رؤوس الكلاب ايضاً لانها تصلح للعواء حتى وتمنع لأكل بني البشر

قال فرغوس : ان الامر المثبوتة صحتهُ والموجب كل اسف انما هو ان هؤلاء الاقوام متولعون جداً في تلقف بشرة الانسان وطالبوها بغرام عظيم

قال يوسف : اودّ ان لا يغرموا في جسدي

قال الصياد وهذا حسبك يا يوسف

قال يوسف : اذا طرأ علينا يوم قحطٍ وجوع ومست الحاجة الى ان أؤكل فارغب في ان تتمتع بي انت وسيدي ولكن اذا وقعت في ايدي هؤلاء البرابرة وقضي عليَّ بان اكون لهم غذاء لا بد من ان اموت حرباً وكمداً

قال الصياد : حياك الله يا يوسف فقد تم الاتفاق بيننا وعولنا على ان نعتمد عليك وقت الحاجة

قال يوسف : سادتي انا بالخدامة

قال العلامة : انهُ يتفوّه بهذا الكلام لعنتي بهِ وتقيته قوتاً جيداً فيسمن ويحجم

قال يوسف ان ذا رأيٌ محتمل استوجد عليهِ حب الذات المفرط لان الانسان حيوانٌ

ولما كان بعد الظهر تظللت السماء بضباب كثيف يتصاعد من الارض ويمنع المسافرين عن تمييز الاشياء في طريقهم قد عوّل العلامة على ان يرمي المرساة الساعة الخامسة خشية من ان تصدم المركبة رأس صخرة وهم لا يشعرون بذلك

فقضوا ليلتهم حيثما كانوا ولم يطرأ عليهم طارق غير ان مثل ذلك الظلام اوجب عليهم مضاعفة السهر والاحتراز

وبعد الصباح قد هبت الريح بشدةٍ وصار الهواء يدخل متعمقاً في اسفل القبة ويحرك الآلة التي كانت تدخل فيها انابيب امتداد الغاز فسدوا اطرافها بحال شُدَّت بها وقد تمم يوسف هذا الامر باحكام وفطنة

وفحص يوسف في فوهة القبة الهوائية وحقق انها مسدودة سدًّا محكماً

فقال العلامة لنا فائدة من جهتين بسدادة الفوهة فمن الجهة الاولى لا يتلف الغاز الحقيقي ومن الجهة الثانية لا نترك وراءنا دماً قابل الاشتعال لانهُ يخشى عليهِ اخيرًا ان يلتهب ويحرق القبة

قال يوسف. ولا اردأ من هذا حادث السوء في رحلتنا

قال ديك. وهل اذا لا سمح الله نابنا بهِ تهوَّرنا الى الارض بسرعة

قال العلامة. كلاَّ فلا نتهوَّر بسرعةٍ بل يأخذ الغاز في الاشتعال رويداً رويداً وننزل قليلاً فقليلاً وهذا ما جرى للسيدة العربسية بلنشار وهي راكبة مركبة هوائية فقد اشتعلت قبتها وهي ترمي بالاسهام النارية من مركبتها لكنها لم تسقط حالاً ولو لم تصدم في نزولها مدخنة قلبت قاربها لما كان اصابها ما اصابها من السوء

قال الصياد · اومل ان لا يوسا مثل هذا العارض المشئوم لاني الى الان لم ارَ خطرًا في رحلتنا ولا ارى سببًا يصدنا عن الوصول الى ارسا

قال العلامة : ولا انا ايضـاً واعلم يا صاح ان العوارض التي طرأت على راكبي المركبات كانت دائمًا مسببة عن قلة فطنتهم او عن قصور بدا منهم في سياقتها والآلتها ومع هذا كلهِ فلم نسمع عن حوادث سببت الموت لراكبي المركبـات الّا ما قلّ ويكاد يبلغ الواحد في الالف ولكن في العموم ليست الاخطار الّا في الارتفاع فوق الارض والنزول اليها ولذلك ينبغي لنا ان نكون على حرصٍ وحذر وان لا يبدو منا قصورٌ وتوانٍ في الاعتناء الكامل

قال يوسف هذا وقت الغداء يا سادتي فستكون حاليًا في ان نتنـاول لحمًا قديدًا وبعدهُ نشرب القهوة الى ان يتمكن ديك من ان يصطاد لنا بعض الوحوش ذات اللحوم اللذيذة

## الفصل الثامن عشر

### في الاية السماوية والاشجار السامية الارتفاع والمدهشة التنبيه التي تخللتها الوسائط الالهية

ثم اشتدت الريح وهبت من جهات مختلفة ولم يعرف لها اتجاه ولما كانت المصورة تثب وثبات شديدة مديدة تارة نحو الشمال وطوراً نحو الجنوب ولم يستطع فرغوس ان يصادف مهباً ثابتا

فلما نظر ديك الى الابرة المغناطيسية ورآها تضطرب وتتذبذب كثيراً قال: انا نسير بسرعة هائلة لكننا نتقدم قليلا الى ما قدام

فقال العلامة ان المصورة تسير اقله مسافة ثلاثين ميلاً في الساعة وعليك يا ديك ان تميل بنظرك الى اسفل فترى كيف تتوارى الحقول عن ابصارك وانظر الى هذا الغاب ايضاً فكانه مسرع الى ملاقاتنا

قال الصياد اما ترى ان الهدهد قد قام مقام الغاب فما مضت برهة الآ تكلم يوسف وقال هاك القرية قد قامت مقام الهدهد فتأملا في السودان كيف ان الدهشة استولت على محياهم يا ما ابلدهم

قال العلامة: ومن الامور الطبيعية ان تستولي عليهم البهتة والدهشة فان الفلاحين الفرنسيين عند مشاهدتهم القباب الطيارة في المرة الاولى ظنوا انها وحوش جوية فاطلقوا عليها الرصاص ولهذا لا عجب اذا حدقت السودان ابصارهم متفرجين على قبتنا

وكانت المصورة مارة فوق قرية وهي لا تعلوها اكثر من مائة قدم

فقال يوسف طرق ذهبي ان التي لهؤلاء الاثام المنرحين اية فارعة ان أدت لي يا سيدي فاذا وصلت الى الارض سالمة من كل عائلة عدوها كالهة واذا تحطمت كسرًا اتحدوا تلك الكسر كطلمات سحرية

فما فاه بهذا الكلام الّا ورمى بالانية فتكسرت ارانًا اما السودان اضطربوا وصحوا في الصراخ ثم طفقوا ياؤون الى كهوفهم خوفًا من العوايل الجوية

وبعد ان ساروا رهةً قال ديك ها هو شجرة غريبة الشكل لانها من جنس في اعلاها وجنس آخر في اسفلها

قال يوسف . ويحك يا ديك ان الاشجار في هذه البلاد تنبت بعضها فوق بعض

قال العلامة . انما حقيقة الامر هو ان جرع شجرة تبي عليه تراب ساقي هبت الريح يومًا ودفعت بزرة نخل على ذلك التراب فنت النخلة كانها زرعت في حقلة

قال يوسف . لعمري انها لصناعة جميلة ساهتم بحوله تعالى في ان اجربها بحدائق لندرة ان ذلك مما يطرب الخاطر ويعجب الناظر وهي وسيلة طريفة لتكثير الاشجار ذات الاثمار لارقاء الحدائق الى النمو ولا بدّ من ان يسرّ بهذه الصنيعة اصحاب العقارات والاملاك الصغيرة

ثم اضطرت المصورة الى ان تعلو الارض كثيرا لتمرّ فوق اشجار باسقة يبلغ علوها نحو ثلاثمائة قدم ونيف وهي من جنس البان الطويل العمر

قال ديك . وما احلى هذه الاشجار وما اجملها لعمري لم ارَ في حياتي مشهدًا بهيًا كمشهد هذا الحرش ذي الاشجار القديمة الايام وارجوك يا فرغوس ان تقف فيه قليلًا

قال فرغوسن . في الحقيقة ان اشجار هذا الغاب من اعجب العجاب ولكن الاعجب من ذلك هو انه في البلاد الاميركانية توجد اشجار اشمخ وابسق منها

قال ديك : واعجباه وهل من شجر اسمى علوًا وارتفاعًا من هذه

قال العلامة : لاشك في ذلك وتلك الاشجار ندعوها باسم مموث تريس اي اشجار مموث فقد وجد في بلاد كاليفرنيا ارزة بلغ علوها اربع مئة وخمسون قدمًا وهذا العلو يفوق برج لندرة (وهو من الابراج المشهورة في العلو) حتى واعظم اهرم مصر واما قاعدتها فبلغت دائرتها مائة وعشرين قدمًا وقد أستدل من الطبقات الظاهرة فيها ان عمرها يفوق الاربعة الاف سنة

قال يوسف . والحالة هذه فلا عجب في علوها وشموخها لان من عاش كثيرًا طال كثيرًا والشجرة التي عاشت مدة اربعة الاف سنة فمن الضرورة ان يوافق علوها طول عمرها

ولكن ما تمت حكاية العلامة وجواب يوسف الَّا توارى الغاب عن انظارهم ووصلوا فوق أكواخ مبنية حول ساحة مستديرة ووسط تلك الساحة شجرة وحيدة فلما نظر يوسف اليها قال ويلاه اذا كانت هذه الشجرة تأْتي بمثل تلك الاثمار منذ اربعة الاف سنة فلا احييها بالسلام ولا اسرّ برؤيتها

قال هذا واومى الى شجرةٍ سامية العلو وقد غطي جرعها بكومة من عظام بني آدم وقد اعني يوسف بالاثمار عن رؤُوس مقطوعة حديثًا كانت معلقةً على خناجر مشكوكة في قشرة الشجرة

قال العلامة . يا لها من حرب شنيعة تشبه حرب السوس فان الهنود في مثل هذه الحروب يسلخون رأْس الاسير الذي يقع تحت غائلة القتل واما الافريقيون فيقطعون راسهُ تمامًا

قال يوسف : فان لكل فريق عادة

فما مضى برهة الا تركوا وراءهم تلك القرية ذات الرؤوس المخضبة بالدماء وبعد ان اجتازوها وصلوا الى قرية اخرى شاهدوا فيها منظراً يفتت الاكباد ويفرقها تحسراً وتأسفاً اذ نظروا جثث بعض القتلى المأكولة الى نصفها وعظاماً مجردة عن اللحم واعضاء اجسام بشرية مبعثرة هنا وهنالك وتحدث رائحتها الضباع وابناء آوى ليتلقفوا منها ما بقي من اللحوم

قال العلامة لا ريب في ان هذه اجسام المجرمين وفي بلاد الحبشة ايضاً يُعاقب الاثمة بعقاب ليس اقل شناعة ورداءة اذ يلقونهم عرضة للوحوش الكاسرة فبعد ان خنقتهم هذه بهشة من بهشاتها المميتة تأخذ في ان تتنطقهم على خاطرها وهواها

قال الصياد ليس هذا العقاب امرٌ من المشنقة بل انما هو اشنع واقبح كثيرا

قال العلامة ان عقاب المذنبين في بلاد افريقية الجنوبية هو انهم يُجعلون في اكواخهم مع ماشيتهم واحياناً مع عائلتهم ثم تُضرم فيها النيران فيحترق الجميع معاً وانا اسمي هذا العقاب توحشاً لكني اقرّ معترفاً مع صاحبي ذلك ان المشنقة عقاب بربري ايضاً وان كان اقل قساوة وشناعة من ذاك

اما يوسف فتوضح الحوله فلمح بصره بعض شرذمات من الطيور الكاسرة تحوم في الافق

فنظر اليها ذلك بالمنظرة وقال : انما هي نسور جبلية وبسرعة طيرانها تضاهي سرعة مسيرنا الجوي

قال العلامة : وقانا الله من صدمة تصدم بها هذه الطيور قنتنا فاني لنخشاها اكثر من الوحوش الضاريات والاقوام المتوحشين

قال ديك وإنما هذه الحماقة ألا تعلم انا سدد شملها بالرصاص

قال العلاّمة احبّ عليّ ان لا احتاج الى حذقك هذه الدفعة لان قفاش قبتنا ليست من حديد ليقاوم نقرة من نقار مناقرها غير اني اراها قد احتشت قبتنا ولم تحدثها الينا عزانة مصورتنا

قال يوسف ولكن طرق دهي فكرٌ يا خليليّ فان الافكار تداهمني اليوم بالعشرات والمئات وهو لو امكنا ان نلقط زمرةً من النسور الحية ونربطها بمركبتنا لقد جرتنا في الجوّ على اجمل منوال

قال العلامة وقد عُرضت هذه الطريقة بحثّ انما الذي يمنع نفوذ الامر هو الخلق الجموح المفطورة عليه تلك الطيور

قال يوسف. وهلاّ يمكن ترويضها وتهذيبها وعوضاً عن اللجام تحمل عصابة على عيونها فاذا سُحبت عين اليمين سارت النسور ذات شمال والعكس بالعكس واذا سحبت العينان وقفت بغتةً الطيور

قال العلامة : أذن لي يا حبيبي ان أُفصل ريحًا موافقة على نسورك المفطورة لان الريح لا تأكل نظيرها وتُرى لي اين

قال يوسف. الاذن معك يا سيدي لكني ما زلت ضابطًا ما رأيتهُ من الرأي

قال العلامة لا بأس في ذلك

وكان الطير والمصورة اخذت في سير الهوينا في تلك البطاح وعلى الفور طرق آذان المسافرين صخيج وعزيز وصفير فتطلعوا من مركبتهم الى اسفل واذا تراءى لاعينهم ما حملهم على التأسف والكدر ومجع افئدتهم غمًّا وكربًا وهو مشهد قبيلتين متهوشتين في معمعة القتال يبارز بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بمعاندةٍ وضغنٍ شديد وبينا هم يقاتلون ويتناحون مساحة الكلاب اذا مرت

المصورة فوقهم ولم يشاهدوها وكانوا نحو ثلاثمائة نفر محتبكين في حومة المعركة وكثيرون منهم غائصون في دماء قتلاهم وسطرهم مما تمجه الاعين وتأنف منه القلوب

فبعد ما نظروا بالقبة الطيارة وقفوا لحظةً وازدادوا صخبًا وسباقًا وحملوا يرمونها بالسهام فوصلت منها واحدة بالقرب منها وتمكن يوسف من امساكها بيده

فقال حينئذٍ فرعوس فلنرتفع الى الاعالي لئلا يصيبنا سهمٌ ولا تكونّ قليلي الفطنــة فانهُ لا يجوز لنا ان نستقر في هذه الدرجة فاخذت المصورة بالارتفــاع وما زال الذبح والقرار جاريين على قدم وساق فسدت السـال وتكسرت النصـال وتحطمت السمر الطوال واحمرّ بساط الارض من هدر الدماء في ذلك القتال وكلما تحدل عدوٌّ الى الحضيض قتلهُ خصمــهُ بضربةٍ فقطع رأسهُ للحال وقد تقاطرت النساء في تلك المعمعة الهائلة فكنّ يتسابقنَ على جمع الرؤوس السابحة في الدماء المتفجرة ويذهبنَ بها الى آخر ساحة القتــال وكثيرًا ما تصارعنَ لحظوى بتلك غنائم الظفر الكريهة المنظر

فقال ديك وقد شقّ قلبهُ سهام الكدر والنفور مما شاهده في تلك الملحمة الهائلة ويلاهُ ما افظع هذا المشهد وما اسواهُ

قال يوسف ان المحاربين الناس دون صورة قبيحة ولكن لو لبسوا الثياب العسكرية لكانوا كسائر الجنود في الحروب المدنية

فقال ديك ارغب جدًا في ان اتوسط بين هؤلاء المحــاربين في هذه المعركة الهائلة

قال هذا ومسك سلاحهُ متأهبًا لاطلاق الرصاص

قال العلامة حذارِ حذارِ من هذا الصنيع فانهُ لا يأتينا الّا بالاذية والضرر

فلهتم عا يعنيا وقل لي ايضًا هل تعرف مَن من الطائفتين هي المذنبة لتتوسط بينهما وتستنصر لاحداهنَّ . فالخليق بنا ان نمرَّ من هذا المنظر البشع الذي تنفر منهُ القلوب فلو اشرف رؤساء الجنود في الحروب على ساحات الحرب وتأملوا ما يجري فيها من سفك الدماء لذهب ذلك المشهد برغبتهم في المحاربة وحب الفتوحات

وكان احد رؤساء الطائفتين يمتاز بطول القامة وعرض الجسم فانهُ كان يخترق صفوف العدو ويضرب بالبأس ويشك الرمح ثم القى لحظة رمحهُ بعيدًا عنهُ وكان منغمسًا في الدم ورمى بنفسهِ على احد الجرحى ثم جذم ذراعهُ بضربةٍ واحدة من الفأس ومسكهُ بيده رفعا اياه الى فمهِ وجعل يمصهُ بتواتر

قال ديك . ويلاهُ ما هذا الوحش المفترس لقد عيل اصطباري

قال هذا واطلق عليهِ رصاصة فاصابتهُ في جبهتهِ وصرعتهُ الى الارض مستلقيا على ظهرهِ فعند سقوطهِ استولت الدهشة والرعب على قلوب اتباعهِ وارتاعوا من موت رئيسهم العجيب وهاجت منهم الافكار اما اخصامهم فازدادوا شجاعةً وحماسةً وعليهِ قد فرَّ نصف المحاربين من حومة القتال

فقال العلامة . هلموا بنا نرتقي الى طبقةٍ اعلى لنجد ريحًا تدفعنا الى مكان بعيد عن مشهد هؤلاء البرابرة لانهُ قد خبث في قلبي حاسة الغم والكدر ولا عدت اطيق النظر اليهِ

وبعد ان رحلوا برهةً شاهدوا عن بعد الطائفة المستظهرة قد انقضت على القتلى والجرحى انقضاض الجوارح وجعلت تتنازع على لحومهم السخنة لتأكلها بشراهةٍ وحرص

فقال يوسف أفٍّ أفٍّ ان ذا لموجب الاستكراه الفرار الفرار

واما المنصورة فشرعت في الارتفاع والامتداد وتبعهم قوم من اولئك

الدائرة المسوح وهم يصخبون في الصراخ والعزيز ولكن لما دفعتها الريح الى الجنوب توارت عن المدينة الهائلة ومآكلة اللحم البشري

وكانت الارض في تلك المحلات مختلفة الهيئة والمطر وتخططها مجاري المياه الكثيرة السائلة الى الجهة الشرقية ولا بدَّ انها تسبك مياهها في مصاب البحيرة نو او في نهر الغزال الذي القى عنه المسافر خال هوائه غريبة الاشكال والالوان ولما امسى المساء القت المحصورة مرساتها في درجة °٢٧ طولاً و ٢٠° ٤ عرضاً شمالياً بعد ان قطعت مسافة ١٥٠ ميلاً



# الفصل التاسع عشر

## في الغارة الليلية والصوت الصارخ اليّ اليّ وبذل الاجتهاد في نجاة المرسل

وكان ظلام الليل حالكاً لم يسمح للعلامة وعوبس ان يميز تلك البلاد ويعرف مركزه وانما كان متعلقاً بمركبته فوق شجرة عالية فما لكاد تمكن من رؤية اوراقها المتكاثفة في ذلك الظلام الدامس

وقد توكل لحراسة عدة الثلاث ساعات التي تليها نصف الليل فقام ديك ليحرس مكانه بحرصه وعوبس على ان لا يهمل في حراسته عن مراقبة ما يمكن ان يطرأ عليهم من الحوادث وقال . خال لي اني سمعت تمعمعاً واعظا تحتنا ولا ادري ما هو

قال ديك · لربما سمعت اصوات بعض الوحوش الكاسرة

قال العلامة كلاً واني احسبه شيئاً آخر وعلى كل حال عليك ان تيقظنا عند ما يروعك ادنى شيء

قال ديك . لا بد من ذلك

وبعد ان امال العلامة باذنيه الى اسفل ولم يسمع شيئاً ارتمى على فراشه وتدثر باللحاف ونام

وكانت السماء مظللة بغيوم كثيفة ولكن الريح في استكانة وهدوء ولم تتذبذب قط المصورة وان تكن معلقة بمرساة واحدة

فلبث ديك مناظراً قصبة القبة وكان سانداً ذراعه على المركبة ويتأمل احياناً بما حوله من السكوت العميق وينظر تارة الى الافق كي يستخص عن

امر وهو في اضطراب وقلق وحسب انهُ يشاهد ضياء مبهماً

وفي لحظةٍ ظنّ انهُ شاهد جلياً ضياء ساطعاً عن بعد نحو مائتي قدم لكنهُ كان كالبرق السريع اذ توارى عن بصرهِ ولم يبقَ لهُ اثر

فلم يكن ذلك الضياء الّا كتلك الاحساسات المضيئة التي تتراءى لاعين المتأملين في ظلمات الليل الحتلكة

فسكن روع ديك وذهب اضطرابهُ وجعل يتأمل في الفضاء واذا بصفير حادّ دوى في جوّ تلك الآفاق

فسأل ديك في نفسهِ قائلاً. هل هذا هو صوت حيوان ام طير الليل او هل هو صراخ ابن آدم

وكاد ديك يوقظ رفيقيه لخشيتهِ من خطبٍ يلمُّ بهِ وهو على تلك الحال لكنهُ قال في نفسهِ: ان كان هؤلاء رجالاً او وحوشاً فهم غير قادرين على الوصول الى قنتنا ثم نظر الى سلاحهِ واخذ مطرة الليل وجعل يحدق بصرهُ في الفضاء

فخيل لهُ انهُ رأى تحت القمة خيالاتٍ تتسلق على الشجرة ثم ارسل بدر الليل شعاعاً ضعيفاً من بين سحابتين فتمكن ديك من مشاهدة بعض اشخاص متحركين وماشين في الظلام

فطرق حينئذٍ ذهنهُ تلك السعادين اللآئي صارعهـا العلامة وهو اذ ذاك مقيم وحدهُ في المركبة ولساعتهِ وضع يدهُ على كتف العلامة

فاستيقظ فرغوس للحال وقبل ان يستفهم من رفيقهِ عن واقعة الحال قال لهُ ديك صهْ يا فرغوس ولا تتكلم الّا بصوتٍ منخفض

قال العلامة: وهل من حادث طرأ

قال. نعم فليستيقظ يوسف

فلما استفاق يوسف من الرقاد اخذ الصياد في التعبير عما تراءى لهُ

فقال يوسف قبح الله السمادين فانها تودُّ ان تقلقنا

قال العلامة وعلينا باتخاذ الاحتياط اللازم

قال ديك اني انزل مع يوسف الى الشجرة بالسلم لفك المرساة

قال العلامة . اما انا في غضون ذلك ساعدّ الآلة لنتمكن من الصعود الى العلاء بسرعة وخفة

فقال يوسف . هلمَّ يا ديك ننزل

فقال لهما العلامة . اياكما ان تستعملا السلاح اذا لم تحوجكما الى ذلك الضرورة القصوى لان لا فائدة لنا ان يدري بنا احدٌ في هذه النواحي

فاومى ديك ويوسف الى العلامة بالاشارة جواباً عن سؤالهِ ثم نزلا الى الشجرة وارتكزا على اغصان كبيرة كانت المرساة متعلقة باحداهنَّ

ثم وقفا لحظةً ناصتين فسمع يوسف حكاً في قشر الشجرة

فمسك بيد رفيقهِ وقال . انصت ياديك واسمع

قال : اني سامع واخال الصوت يقرب منا

قال يوسف : عسى ان يكون ما سمعتهُ صفير حية

قال . كلاَّ لانهُ كان يشبه صوتاً بشرياً

قال يوسف : احبُّ عليَّ ان يكونوا اقواماً برابرة من ان تكون افاعي مسمة فاني لا اطيقها

ثم مضت برهةً وقال ديك . ان الصحة تزداد رويداً رويداً

قال يوسف : نعم فان الآتي الينا يتسلق ويصعد

قال ديك : انت قم في حراسة هذه الجهة وانا اتوكل حراسة الاخرى

فكانا كلاهمــا منفردين على ذروة غصن كبير نابت بخطّ مستقيم في وسط تلك شجرة البوناب التي تضاهي حرشاً بكبرها واتساعها

فزاد كثيف الاوراق ظلاماً على كثيف الظلام ولكن قد دنا يوسف من رفيقهِ واومأ اليه ان ينظر الى ناحية الشجرة السفلى وقال انهم عبيد سود

ثم سمع الرفيقان كلاماً تداولتهُ العبيد من اسفل

ورفع يوسف سلاحهُ مستعدًا لايراث النار

فقال لهُ ديك مهلًا رويدًا يا يوسف

وفي الحقيقة كان بعض العبيد السود قد تسلقوا الشجرة وهم هائجون ومائجون وكانوا يسيرون على الاغصان كالافاعي وقد تحقق دوهم مما افاحهُ اجسادهم من الروائح الكريهة لكونها ممزوجة بالشحم المنتن

ثم تراءى لانظار ديك ويوسف راسان وذلك بمساواة الغصن المقيمان هما عليهِ

فقال ديك هيا يا يوسف اطلق النار

فاطلق الرصاص معاً وسمع لطلقتهما دويٌّ اشبه بقصيف الرعد ثم خمد الدوي ما بين اصوات الاكتئاب وبعد مرور دقيقة من الزمن غابت تلك الشرذمة السوداء

واما الذي القى اصحابنا الثلاثة في بحر القلق والحيرة هو انهم سمعوا صوتاً تخلل ذلك الصخب ولم يكن يخطر لبالهم انهم يسمعوهُ وظنوهُ مستحيلًا وهو صوت بشري نطق بالكلمات الآتية باللغة الافرنسية بوضوح وجلاء وهي:

A moi! A moi! اليَّ اليَّ

فاندهل ديك ويوسف عن هذا الصوت العجيب وعادا مسرعين الى المركبة

قال لهما العلامة أسمعتما

قال ديك: سمعنا الصوت العجيب الصارخ اليَّ اليَّ

قال العلامة ـ عساهُ صوت رجل ورنسي رماهُ التعس في ايدي هؤلاء البرابرة

قال ديك ـ ربما هو سائحٌ اورنسي

قال يوسف ـ او احد المرسلين

فقال الصياد : واهاً على حظهِ فانهم يقتلونهُ ويذيقونهُ عذاب الشهداء الاليم

فقال العلامة وقد خالج صدره شعائر الاضطراب والتأسف · لا شكَّ في ذلك وهو ان احد الفرنسيس قد اضحى فريسةً لتوحش ذلك القوم المكروه ولكن لا نرحل من هنا الّا بعد ان نكون بذلنا جدنا وجهدنا لنجيهِ من تهلكتهِ ولا ريب انهُ لسماعهِ طلقة البارودة يكون قد خطر لهُ في بالهِ ان يد غريبة قد اتت لمونتهِ وبواسطة عجيبة من العناية الالهية ادركتهُ فلا نخيبنَّ اذاً املهُ يا خليليَّ · كيف رايكما

قال ديك : ان ذا الراي راينا يا فرغوسن وها نحن بين يديك فرنا بما تشاءُ

قال فرغوسن : علينا ان نهيّئ من الان شغلنا وغداً عند بزوغ الفجر نجدّ في انتشالهِ من ايدي قاتليهِ

فسأل ديك رفيقهُ قائلاً : ولكن كيف نبدد شمل البرابرة السودان

قال العلامة : تحقق لديَّ الان انهم لا يعرفون الاسلحة النارية لانهم خافوا منها خوفاً عظيماً وذهبوا راكضين مرتعدي الفرائص فيلزم اذاً ان نغتنم فرصة اضطرابهم بهذه الواسطة ولكن لا نبدا في امرهِ الّا عند الصباح حتى نرى هل يوافقنا المكان

قال يوسف : لا بد من ان يكون هذا المسكين قريباً منا لانهُ . . . .

فما فاه باللفظة الاخيرة الّا اعاد الصارخ صوته قائلاً · اليَّ اليَّ

فقال يوسف وهو مختلج الفؤاد · تعساً لهؤلاء البرابرة وتبٍّ لفعالهم فانهم لا يزالون يعذبونه وعساهم ان يقتلوه هذه الليلة

فمسك ديك يد العلامة وقال له أسمعت ما قاله يوسف عساهم ان يقتلوه هذه الليلة

قال فرغوس ان ظنكما بعيد عن الحقيقة لان هؤلاء الاقوام المتوحشين لا يقتلون اسراهم الّا في النهار ويقتضي انفاذ فعالهم الردية سطوع اشعة الشمس المضيئة

فقال ديك · وهل يا ترى لا يوافق ان انتهز فرصة الظلام وانزل مسرقاً اليهِ وانتشلهُ من عائلتهِ ثم آتي بهِ الى المركبة

فقال يوسف : سيدي وانا اذهب برفقتك

فقال فرغوس · مكانكما يا خليليَّ رويداً رويداً فان قصدكما هذا هو رهان واضح عن خلوص طويتكما وشجاعتكما لكنكما ربما تعرضان بنا جميعاً وعوضاً عن ان توليا ذلك المتعس حظاً سعيداً فانكما تجلبان بصيبة التعس والويل

قال ديك · وما سبب ذلك فان هؤلاء البرابرة دهروا متخوشين مرتعبين ولا عادوا يرجعون الى هذا المكان

قال العلامة · اتوسل اليك طالما ان تسمع لمقالي ولا تنقاد لشعائر حميتك التي تحثك على بذل اقصى جهدك في خلاص المتعذب

قال ديك · أوّاهُ كيف يكون حال هذا المسكين المضطرب الفؤاد الذي لا يجيب احدٌ سؤالهُ ولا يأتيهِ معين ولا مجير وربما ظنَّ ان قد خدعتهُ حواسهُ وليس ما سمعهُ من صوت الطلقة الّا هباءً منثور واضغاث احلام

قال العلامة فها اني اطمئن بالهُ الان

ثم استوى قائماً وسط المركبة ورفع صوتهُ صارخاً باللغة الافرنسية وقال : طأمن من روعك يا ايها الاسير المكتتف وثق بثلاثة اصحاب يحرسونك

فعرّت البرابرة باصواتهم الحــادّة وصحوا صارخين وهكذا منعوا الرفاق الثلاثة من ان يسمعوا جواب الاسير

فقال ديك : واسفاهُ عليهِ فانهم يذبحونهُ او هم مستعدون لذبحهِ وستذهب وساطتنا هدراً ولا تكون نفعت الّا تعجيل ساعة قتله وشدة عذابهِ فعلينا اذاً ان نشتغل الان في امر نجاته

قال العلامة وكيف العمل وما الحيلة وما الذي تظنهُ مناسباً لنعملهُ فيما بين هذا الظلام الدامس

قال يوسف . آه لو كانت تتبدد هذه الظلمات بنور ساطع

قال العلامة وما الذي تصنعهُ اذا تبدد الظلام واستنار هذا المكان

قال الصياد وحينئذ تسهل علينا الامور فاني انزل حالاً الى الارض وابدد شمل هؤلاء الانذال بضرب الرصاص وافعل ما اشاء

فقال العلامة وانت يا يوسف ما الذي تصنعهُ

قال يوسف . سيدي اني اسير في الطريق الامين واتصرف تصرفاً خالياً من الخطر وهو اني اعلم الاسير المكتتف ان يهرب الى صوب معلوم

قال فرغوسن وكيف تعلمهُ ذلك

قال يوسف اعلمهُ بواسطة هذا السهم الذي مسكتهُ لما كان طائراً في الجوّ فاني اربط فيــهِ ورقة واصلها اليهِ او استعمل واسطــةً اخرى وهي اني اخاطبهُ بصوتٍ مرتفع اذ لا يفهم السودان لغتنا

قال العلامة . ان مقاصدكما صعبة العمود ولا تصلح لنجاة الاسير المصوك

لانهُ لم يصعب عليهِ الفرار من ايدي معذبيهِ واما قصدك يا ديك فانهُ ربما ينجح اذ تُلقي الحجار النارية الرعب في قلوب البرابرة وتحملهم يذهبون شذر مذر ولكن اذا خاب مسعاك وحبط عملك فانك تمسي في خطر مبين ونعود نضطر الى الاهتمام بنجاة اثنين عوضاً عن الواحد فالاوفق اذًا ان نهتم ونجد بدون ان نكون عرضةً للخطر

قال الصياد. عليك ان تهتم في الامر حالاً

قال يوسف. سيدي هل انت قادر على ان تبدد هذه الظلمات

قال العلامة. ان ذا ليس بمستحيل

قال يوسف. اذا تممت هذا الامر دعوتك اول علماء عصرنا

فسكت فرغوسن لحظةً وغاص نحو الفكر متروياً في امر النجاة وكان رفيقاهُ محدقين بهِ بعجب وقلق اذ خاشت انفسهم من موقعهم الخارق العادة وما مضت برهة الا واخذ فرغوسن في التكلم وقال. انصتا لمقالي يا خليليَّ فاني فكرت فكرًا وهو انهُ لم يزل عندنا نحو ٣٦ رطلاً من الثقل حيث ما حملناهُ من الرمل باقٍ على حالهِ ولم نمسهُ قط فاظن ان هذا الانسان مع شدة ضعفه وترضرضه تحت مطارق العذاب لا يزن اكثر من واحدٍ منا فيبقى اذًا عندنا نحو ١٢ رطلاً يمكننا ان نلقيها لنرتقي بسرعة الى الاعالي

قال ديك. وكيف يكون اجراء الامر

قال العلامة انك تسلم معي اني اذا تمكنت من وضع الاسير في المركبة والقيت عنها ثقلاً يوازي زنتهُ فلا يحدث خلل في موازنة القبة ولكن اذا رغبت حينئذٍ في ان ارتقي بسرعةٍ الى الجوّ لافر هاربًا من هؤلاء المتوحشين فيلزمني ان التجئ الى قوةٍ مضاعفة لقوة القصبة والحال اذا القيت ما بقي من الثقل في الوقت المعلوم فلا شك اني اصعد بسرعة عجيبة

قال ديك : ان الامر بينٌ لا شبهة فيهِ

قال العلامة . نعم القول ولكن هنا محذور وهو اني عند ما اريد النزول فيما بعد يلزمني ان افتقد كميةً من الغاز مقابلةً لما احتكون القبّةُ من الثقل الزائد والحال ان هذا الغاز ثمين جدًا مع ذلك لا يسوغ لنا ان نأسف على فقدهِ عند ما تمس الحاجة لنجاة انسان من الهلاك

قال في الحق تكلمت يا خليلي ومن الواجب ان نبذل كل ما في وسعنا لنجاتهِ

قال العلامة . فلنبادر اذًا الى العمل وفي بدء الامر احملا اكياس الرمل على طرف المركبة لكي نتمكن من القائها دفعةً واحدة

قال يوسف وهذا الظلام الكثيف

قال فرغوسن : ان هذا الظلام يستر استعدادنا واهتنا ولا يتبدد الا بعد نهاية شغلنا واما انتما فكونا على حذر وضعا اسلحتكما بالقرب منكما عسى ان تمس الحاجة لاضرام النار وعندنا هنا الطبنجة والباروديتان والزوامران فجميعها ترمي سبع عشرة رصاصة نطلقها في برهة ربع دقيقة اذا شئنا ذلك . ولكن ربما لا نضطر الى هذه الطريقة القصوى فلناخذ الان بالعمل أ لعلكما على حضر

قال يوسف : ها نحن بين يديك وقد وُضعت الاكياس على طرف المركبة والسلاح بالجانب منهم

قال العلامة : هيا تحرّصا شديدًا فان يوسف مفوّض بالقاء اكياس الرمل وديك بنشل الاسير ووضعهِ في المركبة ولكن لا يعملْ احدٌ منكما شيئًا قبل ان امرهُ بهِ وانت يا يوسف اذهب الآن وحلَّ المرساة وارجع حالًا الى المركبة

فنزل يوسف متدليًا على الحبل وفعل ما امرهُ بهِ سيده وعاد الى مكانهِ

في رهة وحيزة فامت حيثذ المصورة في الهواء وكادت لا تتحرك

فطر فرغوس الى صندوق المرح وتأكد ان عنده كمية كافية من الفاركي يصرم القصة عند الحاجة ولا يضطر الى استعمال كرة بتزن الكهربائية ثم رفع الاسوتين المتفرقتين عن بعضهما وهما المستعملتان لحل الماء من عنصريهِ وبعدهُ نبش من كيس السفر قطعتي فحم مبريتين وفي آخرهما رأس حادّ فاحكمهما في طرف كل من الاسوتين

فتحص رفيقاهُ متأملين فيما كان يصنعهُ دون ان يفهما غايتهُ اما هو اي العلامة فبعد ان قضي شغلهُ استوى على قدميهِ في وسط المركبة ومسك في كل من يديهِ قطعة من الفحم وقرب رأسيهما الى بعضهما

في الساعة والحال استنار المكان بضياء عجيب وكانت قطعتا الفحم كشعلة نارية فبدد ذلك النور الكهربائي ظلمات الليل الحالكة المحيقة بهم

فقال يوسف متعجبًا يا عمي يا سيدي

فقال العلامة . صَه صَه يا يوسف لا تقل شيئًا

## الفصل العشرون

في الموسل البارازي وامثاله من ايدي البرابرة وسيرته واوجاعه الاليمة وحسن مداراة العلامة فرعوس له

حوَّل فرعوس توجيه شعاع النور الكهربائي من مكان الى مكان ثمَّ وجههُ الى مكان سمع فيهِ اصوات اضطراب وشغب وجعل رفيقاهُ يتفرسان في ذلك المكان

فشاهدا ان شجرة البوباب المتعلقة بها المرساة مرتفعة بين حقلين حقل سمسمٍ وحقل قصب سكر ويتخللهما نحو خمسين كوخاً متشتتة المراكز ويطوف حول تلك الاكواخ رجال الطائفة الحالة في تلك البقعة

ثم نصر الرفاق الثلاثة بخشبة مرتكزة على الحضيض طيرِ الساري وذلك عن بعد نحو مائة قدم من قنتهم وعند اسفل الخشبة شاب مصطجع يبلغ عمرهُ نحو ثلاثين سنة ذو شعر اسود مستطيل وجسدهُ عريٌّ نصفهُ عن الثياب نحيفٌ مهزول العافية مخضب بالدماء مثخن بالجراح ورأسهُ مائل الى صدره كما كان المسيح على الصليب

وشاهدوا في قمة رأسه شعراً محلوقاً مستديراً اشبه اكليل الكهنة

فصاح يوسف وقال انما هو مرسل هو كاهن ولا شك

قال ديك واسفاه واحسرتاه عليهِ

قال العلامة: سنحميهِ الان بحولهِ تعالى يا صاح كن مرتاح البال يا خليلي

فلما نصرت الطائفة السوداء بالقبة الهوائية الشبيهة بالنجم ذات الذنب ولها ذنب ذو نور ساطع بلغت منهم الدهشة والاندهال اشد مبلغ وصحوا في صراخ الفزع والهلع فرفع حينئذٍ الكاهن رأسهُ ولم اذ ذاك نور الامل

على محياه ُ ثم مدَّ يداهُ نحو مخلصيهِ كأنهُ يتوسل اليهم صارعًا وهو كن يرى مناما

قال فرغوس : حمدًا وشكرًا لباري البرايا الذي نجاه من الهلاك اما نحن فلا يعسر علينا نشلهُ لان الرجال السود تكبلوا بسلاسل الخوف والرعشة ومهدوا لنا سبيل الخلاص فهل انتما على حضر يا خليليَّ

قال ديك نعم قل ما تشاء

قال فرغوس : اطفي القصة يا يوسف

فتمم يوسف امر سيده ودفع النسيم الرحيم قبة المسافرين فوق الاسير فيما كانت القبة تأخذ في النزول مع تقلص الغاز لما فرغوس فكان يميل نوره نحو اولئك الرهط ويحركهُ قليلًا ليضيء لامعًا كوميض البرق فاضطرب السودان اضطرابًا عظيمًا وبادروا مسرعين الى اكواخهم ومكث الاسير منفردًا وحدهُ في محلّ عذابهِ وقد اصاب فرغوس قبلًا اذ وثق بما تلقيهِ المنصورة مع نورها الكهربائي من الرعشة في قلوب العبيد

فلما اقتربت القبة من الارض رجع بعض العبيد الاكثر جسارة وجراءة الى اسيرهم اذ دروا انهُ عن قريب سيمحو من ايديهم وكانوا يصرخون صراخًا هائلًا . فمسك ديك سلاحهُ ليرميهم بالرصاص فمنعهم فرغوس عن ذلك

وكان الكاهن جاثيًا على ركبتيهِ اذ ليس لهُ قوّة ان يستوي قائمًا وهو ليس معلق على الخشبة ولا مربوطًا بها اذ لا حاجة الى رباط لشدة ضعفه وهزله . فلما وصلت المنصورة الى الارض وضع ديك سلاحهُ في مكانهِ ومسك الكاهن من تحت ابطيهِ رافعًا اياهُ الى المركبة والقى يوسف وقتئذٍ اكياس الرمل التي اشرنا اليها

فكان فرعوس يؤمل الارتقاء سريعاً وبهمة عجيبة ولكن القبة خيبت منه الامال اذ مكثت في الجو غير متحركة بعد ان ارتفعت نحو اربعة او خمسة اقدام

فلاحت على وجههِ لوائح الفزع وصاح بصوت يخالطهُ الرعب وقال ما الذي يمسكنا

وللساعة هرول بعض العبيد وهم يصوتون بصراخ الوحوش الضاريات

فمال يوسف برأسهِ الى خارج المركبة وقال · سيدي ان احد هؤلاء السود تعلق بمركبتنا

فقال فرعوس · اياك يا ديك وصندوق الماء

ففهم ديك مقصد العلامة وفي ساعتهِ اخذ صندوقاً من صناديق المـاء الذي يبلغ وزنهُ نحو عشرين رطلاً وبعد ورماه حالاً الى الارض

فلما خفت القبة فجأة قفزت قفزة هائلة الى الجو وبلغ علوها نحو ثمانمائة قدم فتمهل القوم السود لخزي والحال اذ فلت الاسير من بين ايديهم وأنتشل ملتحفاً بشعاع نور ساطع

ثم قفزت القبة قفزة اخرى ثانية وعلت عن الارض نحو الف قدم

فقال ديك وقد اوشك ان يفقد موازنة جسمهِ · وما هذا

قال فرعوس · لا تخف يا ديك فقد رمى النذل الاسود نفسه

فمال يوسف للحال برأسهِ الى اسفل وشاهد العبد الاسود ماشراً ذراعيـهِ وهو يدور في الهواء كدولاب ثم سقط على الارض فتهشم

فاخذ وقتئذ العلامة السلكين الكهربائيين وعاد الظلام الى احتكاكهِ وكانت الساعة اذ ذاك الواحدة بعد انتصاف الليل

وفي تلك الدقيقة استفـاق الفرنسي من غشيانهِ وفتح عينيهِ فقال له

العلامة اشرك فانك نجوت من الهلاك

فاجاب المرسل باللغة الانكليزية وقال وهو يتبسم تبسم الاكتئاب · نعم اني قد نجوت من ميتة شنيعة فاني اشكر معروفكم يا اخوتي على صنيعكم وجميلكم ولكن ارى ان ساعتي قد اقتربت وايامي صارت عن قريب ارحل من هذه الدنيا الى الآخرة

ثم عاد الى سباته اذ كان جسمه منهوكاً الى الغاية

فقال ديك · · واسفاه عليه فانهُ في حالة النزاع

قال العلامة · كلاَّ يا ديك ثم كلاَّ لكنهُ خائر القوى لشدة العياء والعذاب فلنحمله تحت الخيمة ليرقد هناك

فمدوا ذاك الجسم النحيف المهزول تحت الخيمة بلطافةٍ وغطوهُ بلحفهم وكان اذ ذاك معموراً باثار الضراب والجراح المتبعة بالدماء وقد اثر فيها الحديد والنار تأثيراً بليغاً. فغسل العلامة جراحهُ ثم غطاها بسائل جمعهُ من حرقةٍ ككتان وكان حاذقاً في هذه الصنعة ويداري المريض كطبيب ماهر ثم اخذ قليلاً من الدواء المقوي من لحرانيته وسكب نقطاً منهُ على شفتي الكاهن

فمسك المريض حينئذٍ بيد طبيبهِ دلالة على الممنونية والحظوى وما لكاد تلفظ بكلام الشكران اذ قال لهُ اشكر معروفك · ايها الفاضل · · ·

ثم رأى فرغوسن موافقاً ان يترك الكاهن لينام ويأخذ راحة تامة لجسده فجرَّ حواليهِ ستار الخيمة ورجع الى مركزه لادارة القبة الهوائية

وقد خفت موازنة القبة مع وجود الضيف الجديد بثقل ثلاثين رطلاً فبالحالة هذه لم يكن فعل القصة لازماً ليستقرّ المسافرون في علوّ مناسب وبعد نزوع الفجر هبت ريح لطيفة فدفعتهم نحو غربي شمال الغرب

فذهب فرغوسن برهةً لينظر الى الكاهن فرآهُ مغمياً عليهِ

فقال ديك  حفظ لنا المولى هذا الصيف الخليل الذي بعثهُ الينا . قل
يا فرعوس هل لنا امل بشفائهِ

قال فرعوس  الامل بهِ تعالى واظن انهُ يبرأ بالمداراة  وطيبة هذا الهواء
الرائق

فقال يوسف وهو مضطرب الفؤاد  أواه كم كابد هذا المتعس من مرّ
العذاب ولكن أتعلمان يا خليليَّ انهُ اكثر شجاعة مما اذ تجرأ على الاقدام الى
هذه البلاد وحدهُ دون رفيق

قال الصياد : لا شك في ذلك

فما اراد العلامة في ذلك النهار ان يقطع رقاد المريض بل تركهُ تائهاً في
مفاوز غشيانهِ العميق لكنهُ كان يتأوه احياناً ويتذمر من اوجاعهِ وهذا ما
اقلق بال فرعوس بشأنهِ

وبعد المساء مكثت القبة ثابتة في الجوّ وسط الظلام واستمرَّت مدى
الليل كلهُ واراد فرعوس ان يحرسهم جميعاً واعتاض عن الرقاد بالسهاد

وفي الغد عند الصباح كانت القبة قد اتجهت قليلاً نحو الغرب واستبان
النهار رائق الجوّ خالياً من كل غاشية ونادى المريض اصحابهُ بصوت خفي
فسرَّ لذلك الرفاق الثلاثة ورفعوا عنهُ ستار الخيمة فاستنشق ذلك النسيم الرخيم
نسيم الصبا نفحة قلب وروح لا مزيد عليهِ

فسألهُ فرعوس قائلاً : كيف حالك اليوم

قال الكاهن  ربما احسن من البارحة ولكن انتم من انتم يا اصحابي
لاذكركم في صلاتي الاخيرة فاني ما شاهدتكم الى الان الا كمن في حلم وما كاد
اعرف ما جرى لي ولكم عند ما سعيتم في تخليصي من التهلكة

فقال العلامة  نحن مسافرون انكليزيون قد قدمنا على ان نجوز بلاد

اوريقية بالقبة الهوائية وفي مرورنا تشرفنا بانقاذك من ايدي معذبيك

قال المرسل - ان للعلم ابطالاً

قال الصياد : وللدين شهداء

قال العلامة . وهل انت مرسل

قال : اني كاهن من رسالة الآباء البازارية وقد هداكم المولى لتأتوا اليَّ وتنشلوني من العذاب فليتمجد اسمهُ تعالى اما حياتي فقد قدمتها ضحية ولكن ارجوكم ان تخبروني عن احوال اوربا وخصوصاً عن احوال البلاد الافرنسية اذ انتم قادمون من اوربا وانا لم اسمع قط خبراً عن تلك البلاد منذ خمس سنوات

قال ديك وقد خطت الدهشة رسومها على محياه : انت اذاً مقيمٌ وحدك بين هؤلاء البرابرة منذ نحو ٥ سنوات يا للعجب

قال المرسل انها امس غيبة مات السيد مخلصا ليفديها وما هم الا اخوتنا لكنهم جهلاء متوحشون وليس ما يعلمهم ويمدنهم سوى الديانة وحدها

اما فرغوسن فاخذ يحدث المرسل عن احوال البلاد الافرنسيَّة بشرح مطول

فاصاخ المرسل باذنيه سمعاً لمقال فرغوسن وكانت عيونهُ تسكب العبرات من الاماق ثم هيأ له العلامة شيئاً من شراب الشاي وسقاه اياه فشربهُ بسرور وابتهاج وحينئذٍ تمكن من ان ينهض قليلاً من فراشهِ واستوى عليهِ وتبسم ثغره بلطافةٍ اذ شاهد نفسهُ محمولاً على اجنحة الرياح في جوّ رائق كثير الصفاء

ثم قال لاصحابهِ : انكم في الحقيقة مسافرون ذوو شجاعة وبسالة وستنجحون في مساعيكم وتشاهدون الاقارب والخلان والاوطان

والحال أمسك عن التلفظ بكلمة اخرى اذ خارت قواهُ واضطرَّ الى ان يسقط على الفراش وقد انحطت قواه انحطاطاً شديداً حتى انهُ لما ارتمى بين يدي فرغوس مدة بعض ساعات كان كالميت لا يبدأ حركةً ولم يتماسك العلامة عن اظهار حاشهِ وكدره وقال في نفسهِ هل ترى يفارقنا سريعاً هذا المرسل المسكين الذي انتشلناه من ورطة هلاكهِ

ثم ضمد جراحهُ من جديد واستعمل كثيراً من ذلك الماء الساقي عدةً ليبرد غليل احشائهِ الملتهبة وبذل غاية جهدهِ وذكائهِ في مداراتهِ وملاطفتهِ. فكانت تنتعش روح المريض رويداً رويداً بين يديه واحدث حراسةً اذا لم تقل حياته في الرجوع اليهِ

فاخبر المرسل المسافرين سيرة حياتهِ بوجيز العبارة وقد تلقى العلامة كلام الكاهن من فيهِ بصعوبة اذ خالجتهُ اللعلعة والهتهتة لشدة ضعفه وعيائهِ وقد كان طلب اليهِ فرغوس ان يتكلم باللغة الافرنسية لكونها اسهل عليهِ اما هو فيفهم بسهولة ما يقال فيها

اما المرسل فكان قد وُلد في قرية ارادون من مقاطعة بُريتان في شمالي فرنسا وقد عطف منذ نعومة اظفاره الى اعتناق العيشة الكهنوتية فدخل رسالة الاباء العازارية المؤسسة من القديس المجيد منصور دي بول قاصداً بذلك خوض المشاق في الاسفار مع كفرهِ بذاتهِ وزهدهِ في الدنيا واباطيلها ولما بلغ من العمر زُهاء ٢٤ سنة هجر وطنهُ قادماً الى سواحل افريقية ثم اوغل في البلاد حتى وصل الى القبائل الحالة في منصبات النيل الأعلى بعد ان قاسى ما قاساهُ من المشقات والاتعاب والجوع والعطش وهو مع ذلك صابرٌ على حالهِ مسرور القلب والخاطر متضرّع الى ربهِ تعالى مجدّ في ارشاد تلك الاقوام وهدايتها الى السبيل المستقيم غير انه لم ينجح وزُذِلت ديانتهُ

وذهبت غيرته باطلاً وعومل بسوء المعاملة جزاء على احساناته وخيريته فحبس عند قوم بربري من قبائل بيامبزّة وكابد في سجنه من الشتائم والاهانات والعذاب . لكنهُ ما برح يعلم ويعظ ويبتهل اليهِ سبحانهِ وتعالى واذا في ذات الايام تشاررت طائفة مع تلك الطائفة التي كان محبوساً عندها فشتتت شملهـا ومزقتها حرائق واذهبتها طرائق وانزلت فيها البوائق كما هي من عادة تلك الاقوام الوحشية ولو لم يُحسب الكاهن الاسير قتيلاً لكان نابهُ التعس والويل . واذ نجا لم يشاء ان يرجع الى ورائهِ بل دخل في اواسط افريقية وهو يقضي مصلحتهُ في الرسالة والهداية وكانت ايامهُ زاهرةً حين أعدّ محبوباً وذلك لمواظبتهِ على تعليم الدين المسيحي واحتمال ما يلمّ فيهِ من المشقات والاهانات . ثم طاف حول تلك الاقاليم البربرية مدة سنتين مستطيلتين متسمّاً بترس تلك القوة الالهية الفائقة الطبيعة التي كانت تدفعهُ اليها . ومنذ سنة كان قد اقام عنـد قبيلة من قبائل بيام بيام المدعوة براوي وهي من البالغات في التوحش وكان في برهة بعض الايام قد مات كبيرهم فتظلموا الكاهن وقالوا انهُ هو السبب في موتهِ الغير المنتظر وعزموا على ذبحهِ وكانوا يعدونهُ منذ نحو اربعين ساعة وقد قرّ رأيهم على ان يقتلوهُ في الغد عند الظهر بحسب رأي العلامة ولما سمع طلقة الاسلحة السارية صاح بصرتهِ وقال : اليّ اليّ وقد خيل لهُ انهُ تائه في مغارة الحلم واذا صوت العلامة قد اتى وطمأن باله وروعهُ

وبعد ما انتهى من قصتهِ قال لا اتأسف على ذهاب روحي الى خالقها ومخلصها

فقال لهُ فرغوسن لاتيـأس بعدُ من الحياة فانا بالقرب منك ونحييك بعونهِ تعالى من الموت كما نجيناك من آفة العذاب

فقال الكاهن وهو صابر على مصابهِ . حسبي ما نلت من كرم المولى

فليتمجد اسمهُ تعالى لاني حظوت قبل موتي بمشاهدة اصحابي افاضل وسمعت لغة وطني

ثم عادت قواه الى ضعفهـا وقضى النهار بين الرجاء والخوف وكان ذلك مرتاع الفؤاد ويوسف يمسح من عينيهِ الدموع على الفراد

وكان مسير المنصورة غير سريع وكأنك بالريح قد ارادت مداراة حيـاة العليل وملاطفتهُ

ولما امست قد لمح يوسف في الافق الغربي ضياء عظيماً فلو وُجدوا في عروض اروم لحسبوهُ فجرا شماليًا اذ تراءت السماء شاعلة نارًا فاجد العلامـة في الفحص عنهُ بتدقيق ثم قال انما هذا هو بُركان يقذف النيران

فقال الصياد ٠ ولكن الا ترى ان الريح تدفعنا الى ما فوقه

قال العلامة ٠ هب انها دفعتنا اليهِ فانا نجوزهُ في علوّ نأمن بهِ من غائلة نيرانهِ

وبعد مرور ثلاث ساعات بلغت المنصورة جبلًا درجة ١٥°٢٤طولًا و٤٢°٤ عرضاً وامامهُ فوهة البركان النارية تقذف سيول موادّ مذوّبة مختلفـة الاجناس وتدفع منها قطع صخور الى علوّ شاهق ومن المجاري النارية ما كان يشبه الشلالات المزبدة تتساقطها من الفوهة الى اسفل ٠ فرقب المسافرون ذلك المشهد البهيّ لكنهُ كان ذا خطر عظيم لان الريح ما زالت تهبُّ بهم وتدفع المنصورة الى ذلك الجوّ المضطرم لهيبًا

ولما لم يمكنهم تجنب هذا العائق بل لزمهم ان يجوزوهُ فاضرم العلامة حرارة القصبة الى ان بلغت المنصورة علوّ ستة الاف قدم وكانت بينهم وبين البركان مسافة نحو خمسمائة ذراع

وقد استطـاع الكاهن المريض من فراشهِ ان يشرف على ذلك الجبل

الناري ويتأمل عواده المرندة المدفوعة منهُ بشدة كسهام ملتهبة

ثم قال . انهُ مشهد بهيّ مستحل من كوَن الكون واعجب في خلائقهِ الرفيعة والهائلة معاً

واما المواد النارية المندفقة من ذلك البركان فكانت تنزل متساقطة على سفح الجبل وتنبسط على الارض فراشاً من لهيب النار المتقدة والمتأججة . وفي الليل كنت ترى اسفل القمة مضيئاً من سطوع النيران المتصاعدة ومعها كانت تتصاعد الى القمة حرارة شديدة . فما تماسك فرعوس ان بادر بالترحال هرباً من وقوع الويل والاخطار

فقبل انتصاف الليل بساعتين من الزمان لم يعد يبين لجبل الناري الّا كتلة حمراء في الافق وما زالت المنصورة سائرة بالامن والسلام في طبقة جوية اقل ارتفاعاً

## الفصل الحادي والعشرون

في موت الكاهن ودمه والنقر الذهبية واضطراب يوسف في جمع الاموال
وما حصل لهُ من الكآبة

وكانت ليلة بهية تطرب الخاطر فاضطجع الكاهن واهي القوى ونام غائباً عن حواسهِ

فقال يوسف : أواه على هذا الشاب الذي لم يبلغ بعدُ من العمر سوى ثلاثين سنة فان رقادهُ ربما هو الرقاد الاخير

قال العلامة : سينطفي نور حياتهِ بين اذرعنا وقد ضاق تنفسهُ اكثر مما كان قبلاً وما لي حيلة لافرحهُ

فقال يوسف بغضب وحنق : قبحهم الله اولئك الصعاليك المجرمين الذين انزلوا فيهِ التنكيل وترى كيف قد وجد هذا الكاهن المتنسك باعثاً ليشفق عليهم ويعذرهم ويسامحهم على زلتهم وآثامهم

قال العلامة : ها قد أوتي من السماء بليلةٍ بهية عساها ليلتهُ الاخيرة ولكن لا يعود يذوق عذاباً شديداً ولا يكون موته الّا رقاداً رائقاً

ثم تلجلج المائت ببعض كلمات فدنا منهُ العلامة ورأى ان نفسهُ ضاق جداً والتمس الهواء فسحب لهُ ستار الخيمة واستنشق حينئذٍ نسيم تلك الليلة الشفافة حيث النجوم والكواكب ترسل اليهِ نورها المرتجف والقمر يختمهُ ببياض شعاعهِ

فقال بصوت ضعيف : اني متوجه راحل عنكم الان يا اصحابي جازاكم الله على جميلكم اسالهُ تعالى ان يوفي عني احسانكم ويبلغكم مناكم

قال لهُ ذلك : لا تقطع الرجاء بعدُ فان ما هذا الّا ضعف وقتي زائل وكيف يأتي الموت في مثل هذه الليلة المبهجة

قال المرسل ان الموت بحسب عيني ولا منهُ مناص فدعوني انأ ملهُ فانهُ بداية الامور الابدية ونهاية الاهتمامات العالمية ارجوكم يا اخوتي ان تحملوني جاثياً على ركبتيَ

فانهضهُ ديك قليلاً وقد استولت الحمية على قلبه اذ رأى اعضاءهُ الخائرة الفاقدة القوى قد تزعزعت

ثم صاح قائلاً: الهي الهي كن لي راحماً وشفوقاً

وقد اضاء وجههُ لامعاً كانهُ لابس انوار الحياة الجديدة وصاعد الى الاعالي بارتفاع عجيب عن الدنيا التي لم يبق فيها فرحاً ولا ملذة وذلك في تلك الليلة التي كانت تلقي عليهِ رونقها اللطيف

ثم منح البركة لرفقائهِ الذين لم يواسيهم سوى يوم واحد وكانت تلك البركة حركتهُ الاخيرة وارتمى بعد ذلك بين اذرع الصياد المغرورقة عيناهُ بالدموع السخينة

فاشرف عليهِ العلامة وقال هذه دقيقتـــهُ الاخيرة يقضي فيها نحبهُ

وللحال ركع الرفاق الثلاثة سجداً ليصلي كلٌّ على حدةٍ بسكوت تام

وبعد برهة قال فرغوسن غداً عند الصبـــاح ندفنهُ في هذه الاراضي الافريقية التي سقاها بعرقهِ ودمهِ

وفي تلك الليلة اقام كلٌّ من الرفاق الثلاثة بحراسة الميت في الاوقات المعينة لهم ولم يتفوه احدٌ منهُ بكلمة بل اعتـــاضوا عن التكلم بذرف الدموع وصدعة الفؤاد

ولمـــا اصبحت كان مهب الريح من الجنوب والمنصورة سائرة سيراً بطيئاً فوق صفصفٍ كائن على جبـــلٍ وصادفوا في طريقهم افواه براكين مطفئة وخنادق مرزوعة والارض كلهـــا خالية من نقطة ماء واحدة وقد اتضح لدى

المسافرين فحل تلك الاراضي وحدها مما شاهدوا من الجلاميد المتفاقة بعضها فوق بعض والاراضي المحورة

ولما عزم العلامة على دفن الميت عند الظهر اراد النزول الى خندق بين صخور ذات كهف اصلي ليكون له ذلك الخندق عزلة ملاذ يأوي اليه قبته لئلا تصدمها الرياح عند نزولها الى الارض حيث ان تلك الناحية كانت خالية من الحجارة التي عليها المرساة ولكن لم يعد يمكنهم النزول الا بفقد كمية وافرة من الغاز لسبب القائهم اكياس الرمل عند انتشال الكلاهن الى القبة كما كان انبأ به العلامة رفيقه ديك

ففتح حينئذٍ فرغوسن لولب القبة الخارجة واذا بالاودروجين قد اخذ في التنقص ونزلت المصورة في الخندق نزولًا بطيئًا

وبعد ما مسَّ القارب ارض الخندق اغلق العلاَّمة اللولب . اما يوسف فقفز الى الخارج حالًا وما زال ماسكًا بيده الواحدة طرف المركبة وفي اليد الاخرى يلتقط من الارض حجارة ويضعها في المركبة حتى وازت ثقلهُ ثم جعل يجمع بيديه الاثنتين ويكوم حجارة اخرى الى ان بلغ وزن ما وضعهُ نحو ثمانين رطلًا ولساعتهِ استطاع العلاَّمة ورفيقه ديك ان ينزلا الى الارض ومكثت المصورة في موازنة تامة وكانت قوَّتها الصاعدة غير قادرة على رفعها عن الارض في تلك الحالة

الَّا انهُ لم تلجئهم الضرورة الى وضع حجارة كثيرة لان ما جمعهُ يوسف من القطع الصخرية كان ثقيلًا جدًا وجعل فرغوسن على ان ينتبه اليهِ ثم تطلع في الارض فكانت مفروشة بالقطع الصخرية الكثيرة والجلاميد البركانية فقال في نفسهِ: هذا شيء جديد كشفناهُ

اما ديك و يوسف فابتعدا قليلًا ليجدا محلًا يصلح لدفن الميت وفي ذلك

الخندق احسّ المساوون بحرارة زائدة لان شمس الظهر كانت ترميه باشعتها الملتهبة على الخط المستقيم

ولما وجدا الحل المناسب رفعا اولاً تلك الصخور المرصوفة وعرقا الارض وحفرا فيها ثقباً عميقاً لا تستطيع الوحوش الكاسرات ان تنبشهُ وتنال جثة الميت لتغتذي بها

ثم وضعا فيه جثة الشهيد باحترام ووقار

وبعد ذلك طمّا القبر بالتراب ووضعا فوقهُ حجارة صخرية على هيئة ضريح

اما العلامة فكان غائصاً بحر الفكر ولم يسمع سمعاً لصوت رفيقيهِ الصحكي يذهب معهما ويطلب مخبا يلطي فيهِ من حرارة الشمس الشديدة

فقال له ديك وبمَ تفتكر يا عزيزي ساموئيل

قال: انا أمل يا ديك بصادفة غريبة في الطبيعة وصدفة عجيبة في القدر أتعلم يا ديك في اي ارض دفن هذا المسكين البائس الذي يكفر بالعالم وباطيلهِ وبذاتهِ ايضاً

قال الصياد: ما قولك يا صاح

قال العلامة: ان هذا الكاهن الذي بذر الفقر يرقد الان في معدن ذهب

فصاح ديك ويوسف قائلين بعجب. ويلاهُ كيف يرقد في معدن ذهب

قال العلامة نعم في معدن ذهب لان الحجارة التي تدوسها كانها بدون قيمة ولا ثمن انما هي معدن ذهب كلي النقاوة

قال يوسف تكراراً: ان ذا لمن المستحيل يا سيدي

• قال العلامة . اذا فحصت قليلًا فلا تلبث ان ترى بين الحجارة الخزفية والصخرية كثيرًا من النقر الذهبية الخالصة

فبادر يوسف للحال كالسابق فاقد العقل وجعل يجمع تلك القطع المشتتة وكان ديك راغبًا في ان يحذو حذوه واذا بالعلامة قال ليوسف: كن رائق البال يا صاح ولا تدع الطمع . .

قال يوسف تكلم ما تشاء يا سيدي

قال . ما هذا وكيف فيلسوفٌ نظيرك . .

قال يوسف : لا توجد فلسفة تصدني عن جمع هذه الاموال

قال فرغوس : مهلًا يا يوسف تأمل ماذا تنفعنا هذه الاموال اذ لسنا قادرين ان نحملها معنا

قال يوسف ولمَ لا نقدر ان نحملها

قال : لانها تثقل قفتنا وقد كنت ارغب في ان لا اطلعك على هذا الامر خشيةً من ان يجلب عليك الاسف والندم

قال يوسف : وكيف نرحل تاركين هذه الكنوز المذخورة لنا . نعم هي لنا أيليق ان لا نكترث بها

قال : احرص على ذاتك يا صديقي لئلاً تصاب بحمى المال ألم تتعلم من الميت الذي دفناهُ الآن ان تحتقر اشياء العالم الباطلة

قال يوسف : بالحق قلت ولكن على جميع الاحوال هذا ذهب . وانت يا سيدي ديك ألا تساعدني لاجمع قليلًا من الكرات والربوات الذهبية

فقال الصياد متبسمًا : وما الذي نفعل بها هل اتينا نطلب الغنى والثروة فما لنا ولها

قال العلاَّمة ان الكرات والربوات ثقيلة ولا تودع في الجيوب بسهولة

فقال حينئذٍ يوسف : أَفلا نستطيع ان نحمل من هذا المعدن بدلًا من ثقل الرمل

قال العلامة لا بأس فاني اسمح لك بذلك ولكن على شرط انك لا تعبس عند ما تلقي زواتٍ من ذهبك خارجًا عن المركبة

قال يوسف : ويلاه كيف نلقي زوات من الذهب ولكن هل كل هذا ذهب خالص

قال نعم يا ليها العزيز فان هذا المكان حوض كوَّمت فيه الطبيعة كنورها مذ اجيال وهنا ما يغني بلادًا واصقاعًا بتمامها . فان الكنوز التي أُودعت بطن هذه المغارة القفرة تحاكي كنوز بلاد أُستراليا وكاليفورنيا

قال يوسف اذًا لجميع هذه الكنوز ستذهب هدرًا لا ينتفع بها مرءٌ

قال انه من الممكن ان لا ينتفع بها انسان ولكن على كل حالٍ فاني اسلي عنك الهمَّ والكدر المستحوذين على قلبك

قال يوسف وقد لاحت على وجهه شمائر الندم : لعمري ان ذا امرٌ عسيرٌ

قال العلامة : مرادي ان ارسم لك اعلامًا راهنة تدل الى مركز هذا المكان فاذا رجعت الى الاقطار الانكليزية اعلمت به رفاقك اذا حال لك لى الاموال العزيزة توليهم السعادة والحظوة

قال يوسف : دعني من هذا الحديث يا مولاي فاني ارى الحقَّ في كلامك ومن الواجب عليَّ الصبر والتحمل واما الان فاسمح لي ان املأَ المركبة من هذا المعدن الثمين ومهما بقيَ عند نهاية السفر يكون ربحًا لنا

ثم اخذ ينقل الحجارة من الارض الى المركبة بسحة الفؤاد وما لبث ان جمع نحوًا من الف نقرة من النقر الصخرية المنخور فيها الذهب كي صوان دي

صلاةٍ عظيمة

وكان ينظر اليهِ العلامة متبسماً وفي غضون ذلك تطالع على مركز مدفن الكاهن فوجد انهُ في درجة ٢٣° ٢٢ طولاً و٥٥° ٤ عرضاً شمالياً ثم رمق رمقة اخيرة لقبر ذلك الرجل العربي وعاد الى مركبتهِ

وقد رغب في ان يرسم صليباً من خشب ولو غير متقن ليضعهُ على القبر وسط تلك القفار لكنهُ لم يجد شجرة واحدة نابتة في جوارهم فقال الى رفيقهِ الصياد ان الله عارفٌ بهذا المكان وكفى

وكان فكر فرغوس مشغلاً في امر مهم جداً وهو انهُ لكان اكرم غال جزيل من تلك الكنوز الثمينة لو أوتي بقليل شيء من الماء تعويضاً لصندوق الماء الذي رماهُ عند تمسك العبد الاسود بالقبة ولكن ما الحيلة وهو مقيم في تلك المغاور الماحلة والقفار القاحلة . واشغل هذا الامر بالهُ وهيج بلبالهُ اذ انهُ مضطر بالضرورة القصوى الى اضرام نار القصبة بالماء واذا ما عطشوا فليس عندهم ما يبرد غليلهم ولهذا عزم ان لا يفوت فرصة تمكنهُ من تجديد زاد الماء

فلما اتى فرغوس الى المركبة وجد القطع الصخرية الكثيرة التي كان كومها يوسف الطميع فطلع اليها ولم يقل شيئاً ثم جلس الصياد في مكانهِ وتبعهما يوسف وقد ارشق كنوز الخندق بعين الطمع والحرص . فاضرم فرغوس قصبة القبة فتمشى الحال الانبوب الذي على شكل الترعي واخذ الإدروجين في السريان وامتد الغاز اما القبة فلم تتحرك من مكانها

فنظر يوسف الى سيده بقلق واضطراب

فناداه العلامة باسمهِ

اما هو فكان صامتاً ولم يجب سيده

فقال له العلامة اما تسمعني يا يوسف

فاومى يوسف بالاشارة دلالة على كونه سمع صوت فرعوس لكنهُ لم يشاء ان يفهم ما يقوله له

قال فرعوس ارجوك ان تتكرم عليَّ من سحابتك وتلقي جانبا من هذا المعدن خارجا عن المركبة

قال يوسف · ولكن اما اذنت لي يا سيدي · · ·

قال فرعوس · ما اذنت لك الّا ان تضع شيئا مقابل الثقل

قال يوسف ومع ذلك · ·

قال فرعوس · أتريد اذًا ان نستقر في هذه القفار الى ابد الآباد

فنظر يوسف حينئذ الى الصيـــاد بعين اليأس والقنوط اما هذا فابتسم بسمة من ليس له مقدرة على تعنيف الاريب

قال فرعوس · والى متى يا يوسف

قال وهو شرّ عبيد · ألا تشتمل قصتك

قال فرعوس الا ترى ان القصبة مشتعلة واما القبة فهي لن ترتفع اذا لم تلق شيئا من الاحمال التي ثقلت بها المركبة

فحرك يوسف اذنه ثم اخذ نقرة صخرية وهي الاصغر والاخف ثقلًا وجعل يستصغرها وينقلها من يدٍ الى يدٍ فكان وزنهـــا نحو ثلاثة او اربعة ارطال انكليزية ورماها وهو ينظر اليها بشوق

اما المنصورة فاستقرّت غير متحركة من مكانها

فقال يوسف والحمّا من حالتنا لم لا تزال عليها

قال فرعوس: لم تزل على ما نحن عليه فداوم شغلك يا يوسف

وكان ديك ينظر الى يوسف ويضحك · ثم القى يوسف نحو عشرة ارطال ولم

تحرّك القبة فعلا الاصفرار وجههُ ولاحت عليهِ لوائح الكدر

قال فرغوسن الا تعلم يا يوسف ان وزن ثلاثتنا يبلغ نحو سبعين رطلًا ويف فيجب عليك ان تلقي ثقلًا يضاهي ثقلنا ليمكنا الارتفاع

فصرخ يوسف بقلب جريح : لا حولَ ولا قوةَ الّا بالله وكيف القي سبعين رطلًا

قال فرغوسن هيا يا بُني هيا والقِ ايضًا شيئًا لنعلو عن الارض

فتمس يوسف الصعداء واخذ يرمي الحجارة من القبة وفي خلال ذلك كان ينتظر برهة ويقول ها نحن نرتفع

اما صوت العلامة فكان يجيبهُ قائلًا لسنا في ارتفاع بل ما زلنا على حالتنا

ثم قال اخيرًا . ها القبة قد تحركت

قال العلامة . ارمِ ثم ارمِ

قال يوسف . اوكد لك يا سيدي ان القبة تطلع الى العالي

قال العلامة ارمِ ولا تنفك عن الرمي

فاخذ يوسف نقرة اخيرة بيأس وكدر ودحرجها الى الارض فارتفعت المنصورة نحو مائة قدم وصار المسافرون درى ذلك الحال بمساعدة حرارة القصبة

قال العلامة اعلم يا يوسف وفقك الله انك لا تزال محافظًا على مال جزيل واذا توفقنا وتمكنا من حفظهِ الى النهاية كفاك لان تكون غنيًا الى آخر يوم من عمرك

فسكت يوسف ولم ينطق بكلمة بل تمدد منضطجعًا على فراشه المعدني فاستثنى فرغوسن كلامهُ وقال للصياد . أ خطرت يا ديك كيف فعلت قوة

هذا المعدن في نفس ذات شهامة عجيبة وقلب سليم رائق وكم من الشهوات والاهواء بل كم من الآثام لكان يهيجها معدن مثل هذا لو شاع خبر اكتشافه لعمري ان ذا مما يحسر الكبد ويجرح الفؤاد

وفي العشية كانت قد تقدمت المنصورة في الجهة الغربية نحو تسعين ميلاً وهي بعيدة حينئذ عن زنجبار بخط مستقيم الف واربعمائة ميل

---

## الفصل الثاني والعشرون

في دنوّ المسافرين من الصحراء وليالي خط الاستواء وتقلقل زاد الماء وما صمموا عليهِ من المقاصد والنوايا

فتعلقت المصورة في شجرة قامت منفردة في ارض قفرة وقد يبست نصفاً وقضى المسافرون ليلتهم بامان وهدوّ وذاقوا فيها لذة الوسن اذ انهم قد تشوقوا الى الرقاد لما اثرت في فؤادهم الاهتمامات التي ادركتهم في اليومين السالفين

وفي الغد عند الصباح عادت السماء الى صفائها وبزغت الشمس متلألئة فاورت زناد الحرارة ثم ارتفعت القبة في الهواء وبعد امتحانات عدة وجدوا مهباً خفيفاً دفعهم الى شمال الجهة الغربية

فقال العلامة . أما لا نتقدم يا رفاقي الى ما قدام وعلى ظني اننا قد جزنا نصف الطريق في رحلتنا هذه برهة عشرة ايام ولكن اذا دامت الحال على هذا المنوال من السير البطيء لزمت ايام وشهور لنصل الى آخر المجال ومما يزيدنا شكاية على شكاية هو ان الماء عندنا سينفد عما قليل

قال ديك : الامل ان نجد ماء قبل نفاد ما بقي منهُ لانهُ من المستحيل الّا نصادف نهراً او جدولاً او بحيرة في فسيح هذه الصحراء كلهِ

قال العلامة . هذه رغبتي وغاية مشتهاي

قال ديك : وهل لم تعوّق مسيرنا تلك الاحمال الباهظة التي ثقل بها يوسف مركبتنا

قال هذا قصداً في شكاية يوسف من باب المزح اذ انهُ قد كاد يصاب بعض مصاب رفيقهِ عند اطلاعهِ على تلك النقر الذهبيــة ولكن لما كان قد كظم شدة حرصهِ ولم يتظاهر بما انطوى عليهِ حينئذٍ فؤادهُ اتسم بسمة انسان

ذي تنصر في الامور وكان يضحك لهوًا وهزءًا من رغبة يوسف في حشد الاموال

وماءُ يوسف بلحظةٍ موترة اما فرغوس فثابر على السكوت وافكارهُ موجهة باضطراب سري نحو مغاور الصحراء ومسافتها الشاسعة فانهُ في تلك القفار كثيرًا ما تنقضي اسابيع جمة ولا تجد فيها القوافل بئر ماء لتروي منها غليل العطش ولهذا كان مشددًا حرصهُ في مراقبة الاراضي المحصصة لعلَّ الماء فيها مجتمعٌ

فهذه الاهتمامات معًا حرى لهم من الحوادث السالفة عيرت منهم القلب والخيال وقلت مسامرتهم واحاديثهم الى السكوت وخوض بحور الافكار والهواجس

اما يوسف الخادم الهادي البال فقد تحوّل من هيئةٍ الى هيئةٍ منذ ما اطلع على تلك الذخيرة الثمينة والاموال الجزيلة فلازم الصمت واخذ يحدّق حمرةُ نحوص الى تلك الحجارة المكومة في المركبة ويتأمل بها كثيرًا ويفكر في نفسهِ قائلًا اليوم لا قيمة لها اما بعدُ فيبين عظم اثمانها

فكان منظر تلك البقاع والفدافد هائلًا ومما يكل المرء في سلاسل القلق والهلع ويوهيه في وهدة النحس والنكال اذ امتدت الصحراء في الامتداد والتوسع وندُرَ الزرع في الارض ولم يعد يُرى للاكواخ من اثر بل باتت الرمال البيضاء والحجارة المحمرة كجمر النار وبعض الاجمات الشائكة ثم شاهدوا في تلك الغارة العقيمة سلسلة صخور ذات رؤوس حادّة عرية من كل تراب وهيئتها هيئة الصوان . فانتبه فرغوس الى ذلك الجدب وفكر فيه كثيرًا

ولم يتيسر لهم ان يروا اثرًا لقوافل تجرّأت على خوض بحور تلك القفار

اذ لم يرَ عظم من عظام الناس او الحيوانات وكان لا بد من بلوغ بحرٍ عظيم من الرمال التي تنقلب بعضها على بعض كامواجٍ طامة

ففكروا في الرجوع الى الوراء غير ان ذا من المحال لقلة الماء الحاصل فاقتضت الحال ان يتقدموا الى قدام وكان يودّ العلامة لو انّ عاصفةً تهبّ وتدفعهم عن تلك الاصقاع ولكن اين الغيوم والسحب واين الريح العاصفة فانقضى النهار كلهُ ولم يجوزوا فيهِ اكثر من ثلاثين ميلا

فواهًا لو بعد زاد الماء ترى ما الذي لقد اصابهم بالحقيقة لم يبقَ عندهم من الماء سوى ثلاثة عشر لترًا ونصف ولذا وضع فرغوسن ثلثهُ على انفرادٍ لكي يرطبوا قلوبهم عند التهابها بنار العطش من جرا تلك الحرارة الشديدة البالغة الى ٩٠ درجة انكليزية وابقى الثلثين الاخرين لاضرام نار القصبة ولكن هذه الكمية لا تحصل سوى ٤٨٠ قدمًا مكعبًا من الغاز والحال كانت القصبة تنفق نحو تسعة اقدام مكعبة في برهة ساعة من الزمن فولحالة هذه كان معهم ما يكفيهم مشيًا مدة اربعة وخمسين ساعة لا غير وقد حُسب هذا كلهُ بدقةٍ

فقال العلامة لرفيقيهِ : ما بقي لنا غير اربعة وخمسين ساعة وحيث قد صممت النية على ان لا نمشي في الليل لعلنا نصادف جدولًا او بئرًا او مستنقع ماء بعونه فيكون عدد الايام الذي يتيسر لنا فيها المسير ثلاثة ونصف وقد اضطررت الى ان اعلمكما بهذه الحالة المحنة التي نحن عليها لانهُ لم يبقَ عندنا الّا القليل من الماء فوضعت شيئًا منهُ لنبرد غليل عطشنا فمن الواجب علينا من الان ان لا نبذره ولا نستقيكما الّا عند اللزوم

قال الصياد - افعل بنا ما تشاء يا فرغوسن ولكن لم نضطر بعد الى قطع الرجاء أَلم تقل انهُ باقٍ لنا ثلاثة ايام ونصف

قال العلامة : نعم يا عزيزي

قال يا ترى ما الحمع من الاسف والتحسر فما لنا اذاً ولهذا الحكر دعْ هذه المدة تمضي وبعدها نفكر فيما يلزم عملهُ واما الآن فعلينا ان نضاعف سهرنا وانتباهنا

وبعد العشاء توزع الماء باقتصاد وشحٍّ واضيف اليهِ قليل من العرق لا كثرتهُ لاتفيد تبريداً بل التهاباً

وفي الليل قرّت القبة على صفصص بل كأنهُ في الحاص عظيم وما لكاد كان يبلغ علوّ سطحهِ عن مساواة سطح البحر نحو ثمانمائة قدم. فضاء نور الامل في قلب فرغوس لهذه الحادثة وتذكر ما حسبهُ اهل الجغرافية من وجود بحيرة في قلب افريقية ولكن هب ان تلك البحيرة موجودة في الحقيقة فكيف الوصول اليها من كون السماء رائقة ولا فيها تغيير البتة

فمر الليل الصافي مع ضياء سمائهِ المتلامع باشعة الكواكب والنجوم وردفهُ النهار الوضاح باكثر ضياء ورواق وسطعت فيهِ اشعة الشمس بشدة الاحتراق ولما كانت الساعة الخامسة قال . هيا على الرحيل ولكن استقرّت المنصورة برهةً جامدة في ذلك الجوّ الرصاصي لا تمشي ولا تلوي

وقد كان في امكان العلامة فرغوسن ان يحايد تلك الحرارة الشديدة بارتفاعهِ الى طبقـــات عالية فلم يعيقهُ عن ذلك سوى قلة الماء لانهُ لو اراد الصعود الى العلاء لاقتضى الامر انفاق كمية وافية من الماء وهذا من المستحيل واكتفى بحفط قبتهِ في علوّ مائة قدم عن الارض وهناك حركات تهبّ ريح خفيفة تدفعها نحو الافق الغربي

ثم فطروا قليلاً من اللحم المملح وعند الظهر كانت القبة قد سارت بعض الاميال

فقال العلامة وقتئذٍ : انا لا نستطيع ان نمشي باكثر سرعةٍ من هذه

فلسنا نحن الآمرون بل مأمورون وطبع بصبر جميل

قال الصياد حبذا لو كانت لنا الآلة الدافعة في هذه الواقعة

قال العلامة : لا شكَّ في ذلك يا ديك ولكن على شرط ان هذه الآلة لا تمتص ماء لتفعل حركتها والّا فتكون الحالة واحدة فانهُ الى هذا اليوم لم يُخترع منهُ شيء قابل الاستعمال . والقبات الطيارة هي الان كما كانت السفن قبل اختراع البخار وقد مكث الناس لاختراع آلاتهِ مدة ستة الاف سنة فلنا والحالة هذه وقت طويل للانتظار

فقال يوسف . تباً لهذه الحرارة القـادحة . قال هذا وهو يمسح عرقهُ الجاري من جبينهِ قاطراً

قال فرغوسن . لو حوينا الماء لكان لنا فائدة من هذه الحرارة اذ انها تبسط الإدروجين الذي في القبة ولا يتطلب اللولب الذي على هيئـة البرغي لهباً شديداً . نعم لهُ لو لم تحكن الماء على وشك الفروغ لما لزمنا ان نجد في توفيرها . قبح الله العبد الشقي الذي احسرنا ذاك صندوق الماء الثمين

قال ديك : وهل تندم على ما فعلت يا صموئيل

قال كلاًّ يا ديك حيث قد انقذنا المرسل المبتئس من ميتة شنيعة ولكن لو بقي عندنا صندوق الماء الذي رميناه لكفانا مسيرًا مدة ثلاثة عشر يوماً وفي هذه المدة لامكنا ان نجوز القفر كلهُ

قال يوسف : وهل لم نقطع نصف الطريق في رحلتنا الافريقية

قال فرغوسن اذا اعتبرنا ذلك بالنظر الى المسافة فنكون قد قطعنا نصف الطريق واما اذا اعتبرناهُ نظرًا الى المدة ومكث الريح في سكون فلا اعلم اين يكون نصف الطريق واظن ان الريح مائلة الى العدم

قال يوسف : دع عنا هذا الحديث ولا تتأسف على حالنـا فقد نجونا في

مدة سفرنا من كل آفةٍ ومهما جرى لنا فاني ماسك بحبل الامل ولا تخيب ثقتي بل انا اقول لكما انما سنجد ماء عند الاقتضاء فليطمئن منكما البال وليذهب عنكما كل همٍّ وبال

اما الارض فكانت آخذة بالانخفاض من ميل الى ميل والعوج الذي للجبال كان ينتهي عند الرمال . فقام هناك الحشيش المتفرق مقام الاشجار الحميلة الكائنة في الجهة الشرقية ومن النباتات ما كان قريباً من العرق في نحو تلك الرمال وصخور كثيرة متساقطة من جبال بعيدة قد تحطمت في سقوطها فتبعثرت حصى مسنونة في تلك البادية وستذوب وتصير رملاً خشناً وبعدهُ تحولها حرارة الشمس الى حبٍّ ناعم للغاية

قال العلامة . هاك يا يوسف افريقية كما كنت تتصورها ولذا قلت لك انهُ يلزمك ان تشدد حبل صبرك واناءتك

قال يوسف . نعم سيدي ان ذا امرٌ طبيعي حرارة ورمال وهل يليق ان نطلب شيئاً آخر في مكانٍ كهذا ثم قال ضاحكاً اعلم اني ما كنت اثق كثيرًا بمالك واحراشك لان في ذلك تناقض وهل يا ترى تحملنا العذاب والشقاء لنأتي من بلادنا ونجد هنا نضارة اراضينا وبساتينا فهذه هي المرة الاولى التي فيها ارى ذاتي مقيمًا في افريقية حقيقة ويسرني ان اذوق شيئاً من حلاوة مقرّها

وعند المساء قرر العلامة ان المنصورة لم تخطُ عشرين ميلًا في ذلك النهار الشديدة حرارتهُ ولما توارت الغزالة في طي الغسق خيم تلك المفازة ظلام مدلهم وحش معًا

وكان الغد نهار الخميس وهو اول يوم من ايام شهر ايار اما الايام فكانت تلي بعضها بعضاً بسياقٍ واحد من شأنهِ ان يلقي المسافرين في وهدة القنوط

والياس وكل صباح يماثل الصباح الذي عبر . وما زالت الشمس عند الظهر ترميهم باشعتها القادحة والليل يزيد الحرارة ثقلًا والهواء قد امحى تنفسًا لا نسمة وخيل انهُ عما قليل سيزول ذلك النفس الطفيف من تلقاء ذاته

اما العلامة وعوسن فاضمر في قلبهِ تلك شعائر الكدر التي دهمتهُ من جراء تلك الحالة المجحفة وما برح متسمًا بسيما الطمأنينة والرواق كانسان محنك قد تمرَّن على اقتحام الاخطار وخوض المنايا وكان صامتًا مطرقة ويتطلع في مراكز الافاق كلها علهُ يصادف ما يهديهِ الى منبع ماء فما شاهد الَّا انقطاع الاحكام والاراضي النباتية وانبساط الرمال كبحرٍ طام لا نهاية لهُ

ثم هاجتهُ افكار المسئولية التي تحملها على عاتقهِ بسبب استرفاقهِ ديك ويوسف اعزّ اصحابهِ الذين اقادهما بقوة الصحبة او الخدمة . فتلاعبت في ميدان دماغهِ جيوش الافكار واطرق برهةً وان لم يظهر على نفسهِ ادنى ارتباك فسأل نفسهُ هل تصرف حسنًا باقدامهِ على تلك الرحلة الجوية وهل لم يسلك طريقًا محرمة او لم يحاول في سيره مجاوزة حدود الاستحالة وهل لم يترك الباري سبحانهُ وتعالى لاجيال متأخرة معرفة تلك البلاد المجهولة

صدمتهُ هذه الظنون وتخللت عقلهُ في وقت واحد كما يحدث للمرء في ساعة ييأس فيها من الخلاص . واذ لم يستطع ان يُشتت جيوش الهموم الواثبة عليهِ قد كاد ان يخرج من حدود الرشد والصواب وبعد ان تقرر في عقلهِ ما وجب عليهِ اهمالهُ قبلًا اخذ يهتم بما يجب عليهِ فعلهُ ساعتئذٍ فقال في نفسهِ . هل يا ترى هو امر مستحيل الرجوع الى الوراء ام هل ليس في طبقات الجوّ العالية مجاري رياح قادرة ان تدفعهُ الى بلاد اقل محولًا وجدبًا . فانهُ قد عرف الاصقاع التي مرَّ بها لكنهُ جاهل الاماكن التي يتجه اليها ولما ضايقتهُ حيرتهُ عزم على ان يشرح لرفيقيهِ واقعة الحال كما هي بمطلق الحرية . ففسر لهما الامر جليًا

وذكرهما بما قد تم من العمل واوضح ما بقي عليهم منهُ واكد انهم بحصر المعنى قادرون على الادبار والرجوع الى الوراء وبعد ان فرغ من شرحهِ التمس منهما ان يعرضا لهُ رأيهما

فقال يوسف . ليس لي رأيٌ سوى رأي سيدي وما هو مزمع ان يكابدهُ من المشقة ساكابدهُ انا ايضاً باكثر جزءٍ وبسالة منهُ والى حيثما سار اسير انا والى حيثما مضى مضيتُ معهُ

فقال العلامة: وانت يا ديك

قال ديك: اما انا يا خليلي صموئيل فلست بقاطع حبل الامال ولعمري قبل ان اقدم معك على السفر لم اغفل قط عن اخطــارهِ ومخاوفهِ ولكني عزمت على ان لا اكترث بهذه الاخطار ولا اعتبرها طالما رأيتك قائماً فينا. فانا لك جسماً ونفساً واما رأيي في الحالة الحاضرة فهو ان نداوم رحيلنا وننتهي الى الغاية واظن ان اخطار الرجوع الى الوراء تضاهي اخطار التقدم الى ما قدام. فهيا اذاً على المسير وثق بصداقتنا نحن الاثنين

فتحرَّك قلب فرغوس من مثل ذلك الكلام وقال: عافاكما الله يا صاحبيَّ الاحقاء. فهذا الذي كنت أؤملهُ من حبكما وتعلقكما بصداقتي وقد اجدياني كلامكما شجاعةً وبسالةً فاشكر معروفكما وحبكما

ثم قبض ثلاثتهم بعضهم على يد بعضٍ دلالةً على تجديد مباني المحبـــة والوداد والامانة

فاستتلى فرغوس كلامهُ وقال: انصتا لمقالي يا رفيقيَّ. انهُ بموجب تقويمي لسنا بعيدين عن خليج غينيه اكثر من ثلاثمائة ميل فلا يمكن ان تكون الصحراء بلا نهاية حيث ان ساحل غينيه كثير السكان ومعروف لحد مســافة بعيدة من البحر المحيط. فاذا لزم الامر ذهبنا الى تلك الجهة ومن المستحيل ان

لانصادف في طريقنا نهرًا او غوطةً لنجدد زاد الماء . ولكن ما نحن في احتياجٍ اليهِ الان انما هو الريح التي بدونها نستقر ثابتين وجامدين في الفضاء

فقال الصياد : صبرًا جميلًا يا خليلي

فمر ذلك النهار المستطيل وهم ينتظرون حركة في الجوّ فلم يظفروا بعلامةٍ تلقي في قلوبهم شعاعًا من الامل بل توارت الشمس وراء الافق وهي ترمي رمل الصحراء باشعتها النارية

فامتد فرغوس مائة وخمسة وثلاثين قدمًا مكعبًا من الغاز لاضرام نار القصبة مع انهم لم يسيروا سوى نحو خمســة عشر ميلًا وزوّدوا لهيب عطشهم بكمية من الماء تبلغ نحوًا من لترين

ثم حاز الليل بسكون عظيم ولم يطف للعلامة رقاد

## الفصل الثالث والعشرون

في مناقشة فلسفية وظهور السحابة في الافق وظهور رفقة ثانية
ومشاهدة آثار قافلة وآثارماء في الصحراء

فما اصبح الصباح واشرق نور الشمس الوضاح ما زالت السماء رائقة نقية لا حراك في الفضاء فارتفعت المنصورة الى علو خمسمائة قدم وما تكاد انتقلت قليلاً الى الجهة الغربية

فقال العلامة هوذا نحن في قلب القارة وها هي بحور الرمال الطامة تحت اقدامنا. فيا للعجب كل العجب لما هذا النظام الغريب في الطبيعة ولما يا ترى يبست الربع هناك بالقرب من حدود الرمال وها هذا المحل والجدب مع ان الاراضي هي في خط عرض واحد ومرمية بالاشعة نفسها

قال ديك . ايها الخليل ان علة ذلك ليس من شأنها ان تقلقني وان ما يهمني انما هو الحال الذي نحن عليه فلا اهمية لخلافه

قال العلامة: دعنا نتفلسف قليلاً على ذلك فان التفلسف لا يجلب علينا اذية

قال ديك . هات نتفلسف ما تشاء فان الوقت طويل ونكاد نمشي في هذه الافلاء . فكأن الريح خاشية الهبوب او راقدة في سرير الراحة

قال يوسف . اما انا فاشركما انه لا يطول بنا الحال لاني ارى سحابة في الجهة الشرقية

قال العلامة: نعم وفي الصواب تكلم يوسف

قال ذلك . ولكن هل ترى تلك هذه السحابة وتأتينا بمطر وريح نافعين

قال العلامة : سنرى ذلك في وقتهِ

قال يوسف : عيدان اليوم هو الجمعة فقلما اتق بايام الجمعة

قال العلامة : ان شاء المولى سيذهب عنك اليوم هذا الوهم الباطل

قال يوسف وهو يمسح العرق الوافر السائل من وجههِ جداً ولكن أفرّ ما هذه الحرارة الشديدة . نعم ان الحرارة نافعة وخصوصاً في الشتاء ولكن في الصيف على المرء ان يتحرز منها على قدر استطاعتهِ

فسأل الصياد فرعوس وقال هلاّ تخاف ان تضر حرارة الشمس القادحة نقتنا

قال كلاّ يا صديقي لان المادة الصمغية التي طلي بها القماش الحريري تحتمل حرارة عظيمة جداً فقد وصلت احياناً حرارة القصة الى مائة وثمانية وخمسين درجة انكليزية ولم يتأثر منها غطاء القبة الداخلية الصغيرة

اما يوسف فكان نصرهُ حاذاً ويرقب الاشياء فاحس بتغير من المطرات فقال وهو ينظر الى السماء . انها سحابة في الحقيقة يا خليلي

فكانت هذه السحابة متعمقة في السماء كثيفة متجمعة من غيوم صغيرة ولكن لم تتغير قط هيئتها ومن هذا استنتج العلامة ان ليس فيها ريح تحركها

وقد تراءت في الافق منذ الساعة الثامنة صباحاً ومع ذلك لم تقم قبالة الشمس الاّ بعد الساعة الحادية عشرة ثم توارت وراء هذا الستار الكثيف وفي تلك الساعة انفصل من هذه السحابة الغيم الاسفل متبعداً عن خط الافق الذي تلالأ على اثر ذلك نوراً وبهاء

قال العلامة ان هذه السحابة منفردة فلا نتقّ بها انظر اليها يا ديك أليست هيئتها كما كانت صباحًا

قال ديك . لعمري لا تزل كما كانت وعليهِ لا ارجو منها ريحًا ولا غيثًا عسى انها تدحرجها لغيرنا

قال العلامة : هذا ما احشاهُ حالة كونها في علوٍ شاهق

قال ديك ايها الصديق صاموئيل هلمَّ بنا نلاقي هذا الغيم الذي لا يريد ان ينشر علينا لواء سحائبهِ

قال العلامة . اظنُّ انا لا نجني من هذا العمل ثمرة البتة بل نريد اتلافًا للنار ومن ثمَّ للماء ولكن نظرًا لحالتنا الحاضرة فلا يسوغ ان نهمل شيئًا عسى ان يكون فيه خيرٌ لنا فهلموا بنا نطلع

ثم اورى زناد لهيب القصبة فانتشرت الحرارة وللحال صعدت القبة بقوة الادروجين المتمدّد

فوصل الى السحابة في علو الف وخمسمائة قدم ودخل في ضباب متكاثف وداوم حفظهُ برهةً في تلك الطبقة ولكن لم يجد فيها ادنى مهب ريح حتى وكانت خالية من الرطوبة وما لكاد ترطبت الاشياء التي لمستها . اما المنصورة فلما اقحمت تلك البخارات مشيًا باكثر سرعة من الاول ولكن بنوع زهيد جدًا وهذه كانت الفائدة الوحيدة من الصعود الى السحابة

وفيما كان العلامةُ يتأمل بكدر ما جناهُ من النفع الطفيف في ارتقائه الى الاعالي واذا بيوسف قد صاح متعجبًا وقال . واعجبا واعجبا

فقال لهُ سيدهُ : وما الذي تراه

قال يوسف . مولاي وسيدي ديك ما بالكما لا تنظران الى الامر العجيب الغريب

قال ديك: وما هو قل عاجلاً

قال يوسف: اعلما انا لسنا وحدنا في هذا الخلاء بل هنا لصوص سارقة قد قلدونا في صنعتنا

قال ديك لفرغوس: وهل يا ترى اصابه جنون

ثم شخص يوسف صامتاً متأملا باندهاش وانذهال فنظر اليه فرغوس وقال: هل تكون الشمس قد صلت في دماغه واختلَّ منهُ العقل

فقال ديك ليوسف ألا تقول لي اخيرًا

فقال له يوسف. انظر يا ديك

ودلهُ على مركز في المسافة الجوية

فصاح ديك مندهشًا وقال: لعمري هذا مما يوجب الانذهال. تطلع يا صاموئيل تطلع

فقال العلامة فرغوس نظرت يا رفيقيَّ ما تنظران اليهِ

قال ديك: قبة مثل قبتنا ومسافرون مثلنا ايضاً

ففي الحقيقة كانت قبة هوائية تحوم في الهواء بركبتها ومسافريها وذلك بعيداً عن المصورة بخمسمائتي قدم وهي تتبع الطريق التي هم سالكوها

فقال العلامة لم يبقَ لنا الآن الا ان نقرأ عليها السلام بالدلايل والاشارات فخذ يا ديك رايتنا وانشر الوانها بازائهم

فالظاهر ان المسافرين المقيمين في تلك المركبة فكروا كما فكر هؤلاء في دقيقة واحدة لان الراية ذاتها اعادت الاشارات والحركات عينها التي ابداها الصياد

فقال ديك: وما المعنى بذلك يا فرغوس

قال يوسف: انما هم سحارين يهزأون بنا

فقال العلامة ضاحكاً : المعنى به انك تفعل هذه الاشارات لنفسك يا ايها الخل الوفي وتأويل ذلك انا نحن انسا في تلك المركبة والخلاصة ليس تلك القبة الا مصورتنا

قال يوسف : سيدي من بعد اداء الاحترام الواجب لحضرتك اقول لك اني لاجد كلامك عين الصدق بل اعده هزءا منك

فقال له العلامة قف على طرف المركبة يايوسف وحرك ذراعيك فتحقق صدق مقالي

ففعل يوسف ما امره به سيده وشاهد حركاته قد أعيدت تماما

فقال العلامة : انما هذا تطيمٌ وهو حادث بسيط من حوادث انعكاس النور ومسبب من تحول الهواء الغير المتساوي الحاصل في طبقات الجوّ والسلام ختام

قال يوسف . ولا اعجب عندي من ذلك

وكانه لم يشاء ان يصدق هذا المقال واخذ حركاته تكراراً بانواع مختلفة

قال ديك . ولا اغرب منه فانه يدهش النظر وقد قرت منا الخواطر لمشاهدة مصورتنا وجهاً باراء وجه . ألا تقرأن يا صديقيّ وقفكما المولى انها ذات هيئة لطيفة وهيبة مبيقة

قال يوسف كيفما صرت وشرحت فان الحادثة من اعجب العجاب

وما لبثت صورة القبة ان اخذت في الاندثار رويداً رويداً ثم ارتفعت السحابة الى علو باسق وهجرت المصورة فلم تحاول هذه ان تتبعها ومضت ساعة من الزمان واذا بالسحابة قد توارت عن العيان

واما الريح الطفيفة فانتقصت قليلاً فقليلاً وكادت تدخل حيز العدم وعندها اقترب العلامة الى الارض ايضاً

وقد كان منظر القبة سلا عنهم الهم والفكرة في احوالهم ولكن لما توارى عن النصر رجعوا الى ما كانوا عليه من الافكار الحزنة وهم يكابدون حرارة عظيمة جدًا

وبعد الساعة الرابعة بعد الظهر اشار يوسف الى وجود شيء نادر فوق نحو الرمال وما لبث ان عرفهُ جيدًا وهو نخلتان نابتتان على مسافة غير بعيدة

فقال العلامة . اذا وجد نخلٌ فلا بُدَّ من وجود نبع ماء ام بئر بالقرب منها ثم اخذ المنظرة واكد تخمين يوسف

فصاح حينئذٍ قائلًا : ها الماء والحمد لله ها الماء فلا شكَّ انهُ واحد هناك وكيفما سرنا فسنصل اليه في نهاية الامر

فقال يوسف : والحالة هذه أيحسن لديك ان نشرب شربة ريثما نبلغ الماء لان الريح قاطعة منا النفس

قال العلامة . فلنشرب اذًا يا صاح

فشربَ ثلاثتهم ليترًا كاملًا ولم يتبقَّ لهم بعدُ الّا ثلاث ليترات ونصف لا غير

ثم قال يوسف : يا ما الذَّ الماء وانفعها لعمري لم اذق قط في حياتي لذةً في الشرب كاللذة الحالية

قال العلامة : هذا ما يجنيه الانسان من الموانع

ولما كانت الساعة السادسة حامت المنصورة فوق النخلتين

فلما تأملوا بهما رأوهما شجرتين نحيفتين يابستين شبه شبح بلا لحم لانهما خاليتان من الاوراق ومائلتان الى الفناء اكثر منهما الى البقاء

اما فرغوس فخالج صدرهُ الاضطراب عند ما حدّق نظرهُ فيهما

ثم ابصروا تحت اقدامهم حجارة بئر مكسورة بلا ترتيب وقد صرت

اشعة الشمس القادحة تلك الحجارة وكادت تحولها الى رمال ناعمة جداً ولم يروا للرطوبة من اثر. فانقبض قلب صموئيل من ذلك المنظر ولقد كان كشف لرفيقيه ما يضمره من الخوف لو لم يمنع تأوههما وهتافهما فانتبه ورأى عن بعد في الجهة الغربية خطاً طويلاً مرسوماً من عظام مبيضة وشاهد حول النبع كوماً من تلك العظام فعلم من ذلك ان قافلةً وصلت الى ذلك الحد من الصحراء فالذين كانوا ضعفاء فيها سقطوا على الرمل قليلاً فقليلاً واما الاشداء فبعد ان كابدوا اقصى التعب وجرّوا انفسهم الى تلك العين قضوا عندها نحبهم وذاقوا كأس حمام الموت

فنظر المسافرون بعضهم الى بعض وقد علا الاصفرار وجوههم

فقال ديك: لا ننزل الى هنا بل فلنهرب من هذا المشهد المهيل اتكد فان البئر هذه لا تحوي نقطةً من الماء

قال العلامة: كلاّ يا ديك يلزمنا ان نقف على الحقيقة لئلا تتشوش ضمائرنا فيما بعد ويدركنا الندم فسيان ان قضينا ليلتنا هنا او في محل آخر. وقد قام نبع ماء من زمن مديد في هذا المحل عسى ان يكون له اثر الى الآن

فحطت المصورة على الارض ووضع يوسف وديك كمية من الرمل موازية لوزنهما وتزلا عن المركبة مبادرين الى البئر فدخلاها بدرج امسى رملاً ورأيا ان العين ناشفة من سنين عديدة وحفرا قليلاً في الرمل الناعم فلم ينظرا اثراً للرطوبة

ثم طلعا من الجب متوجعين باكليل من العرق على جبينهما مكسوري القلب والخاطر والرمل اذ ذاك قد غطاهما وولت الشجاعة مدبرة وقام مقامها القنوط واليأس

فلما نظر اليهما العلامة عرف قلة فائدتهما من النزول الى البئر وقد كان

عالماً بذلك من قبل وشعر في ذاته بانه منذ الان وصاعداً تقتضيه الحال ان توازي شجاعتهُ ومروَّتهُ شجاعة ومروَّة ثلاثة رجال

وكان يوسف قد اتى بقربة مقدَّة فرماها وهو غضبان بين العظام المشتتة على الحصيص

وبعد العشاء مُدَّ سماط السكوت التام ولم يتفوه احدٌ بالكلام بل سكتوا جميعاً بكره شديد مع انهم لم يقاسوا بعد شدائد العطش وبوائنه ولكنهم قانطين بالنظر الى ما اقبل عليهم من المحن

## الفصل الرابع والعشرون

في العطش وتندم العلامة واطفاء القصبة ومراقبة الصحراء الشاسعة وانفراد العلامة وسقطته وما نواه يوسف من القصد الثابت

فلم تبلغ المسافة التي جاروها في النهار كلهُ أكثر من عشرة اميال وهقوا للمسير في تلك المدة مائة واثنين وستين قدماً مكعباً من الغاز

ولما كان السبت صباحاً تأهب المسافرون للرحيل وبعد برهة اخذوا بالمسير

ثم قال : عندنا ما يكفينا مشياً مدة ست ساعات فاذا عبرت هذه المدة ولم نكتشف بئراً ولا عيناً فالله يعلم ماذا يصيبنا

فقال يوسف: ان الريح طفيفة جداً يا مولاي

وبعد ما نظر لوائح الحزن والكدر قد علت وجه سيده قال · أومل انها ستهب عما قليل

اما املهم في هب الرياح فكان باطلاً اذ ان السماء رائقة صافية واشتدت الحرارة كثيراً حتى ان الترمومتر الانكليزي تحت ظل الخيمة دلَّ على الدرجة المائة والثالثة عشرة

اما يوسف وديك فكانا مضطجعين الواحد بجانب الآخر وهما يحاولان الفرار من الفكرة في تلك الحالة الهائلة سواء بالرقاد ام بالخدر وقد استبان لديهما الزمان طويلاً مملاً لقلة شغلهما . ولا شيء يجلب الضجر والارتباك نظير البطالة اذ لا يستطيع المرء ان يزيل عنهُ ذكر اكداره ورزاياه بشغل من الاشغال وفي ذلك الوقت كان اشتغالهما متوقفاً على التفكر والتحير في تلك الواقعة المجمة الاكدار وليس ما يلهيهما عن تصورها نصب اعينهما

ثم علق العطش يذيقهم مرَّ العذاب والشقاء والعرق الباقي لم يكن من

شأنه الآن يريد كدهم التهاباً وفي الحق والصواب يدعونه اهل الفريقية حليب الحورة . وما تكاد كان باقياً نحو لترين من الماء السخن فكس ثلاثتهم يحدقون بحرهم بتلك النقطات الثمينة دون ان يجسر احدٌ منهم ان ينال منها طرف ثمره فيا لها من حالة هائلة ترتعد منها الفرائص وترتاع منها القلوب اذ لم يبقَ معهم من الماء الّا تلك الكمية الحزينة وهم مع ذلك لم يزالوا في قلب الصحراء

فغاص فرغوسن لجة الافكار ودهمتهُ الهواجس والقلق فلم يستطع ان يشحذ لها الاسنة للقتال فسأل نفسهُ قائلًا يا ترى هل تصرفتُ حسناً في اموري أما كان يوافق غرضي لو حفظتُ ذلك الماء الذي حليتهُ هدراً الى غاز الإدروجين لكي البث مستقرًا في الفلاء نعم انني سرت بعض السير ولكن ما هي المسافة التي جزتها فانها لا تستحق الذكر والاعتبار . فلو بقينا في الوراء بمسافة نحو ستين ميلًا فما الذي كان ضرّنا حيث ان الماء فرغ الان في هذا المكان وان قامت الريح ألا يا ترى تهب هناك كهبها هنا ولربما يكون هنا باقل حفةٍ اذا هبت من الشرق . ألا انني مشيت طمعاً في نوال الأرب ولكن ما انفقتهُ من الماء اكثير كان كافياً لان استقرّ مدة تسعة ايام في هذه الصحراء . فما اطول تسعة ايام ومن يعلم ماذا كان قد طرأ في مدتها من الحوادث . غير انهُ ربما لو حفظت الماء لوجب عليّ الارتفاع بالقاء شيء من الثقل وعند نزولي كنت افقد غازاً جزيلاً فغاز القبة هو دمٌ وحياة لها

فتصادمت هذه الافكار في عقله فبانه يقبض على راسهِ بيديه متأملًا مدة ساعات برمتها

ولما كانت الساعة العاشرة صباحاً قال في ذاتهِ لا بدَّ ان امتحن امرًا في اخر الامر لعلهُ خيرًا . فها انني اصعد الى العلاء لاستقصيَ طبقةً تحوي مهب

ريح تدفع قبتنا الى قدام ولا بدَّ لي من هذا الامتحان ولو امتصَّ الماء التي هي غاية حيلتنا

وفيما كان رفيقاه راقدين اضرم نار القصبة واستدارت القبة لامتداد الادروجين وارتفعت بخط مستقيم بما عظم من السرعة فسعى العلامة في ان يجد مهبا من علو مائة قدم الى علو خمسة آلاف قدم لكنَّ سعيهُ ذهب هدرًا ولم يستفد شيئًا وتبين لديه ان الريح عديمة الوجود حتى وفي آخر حدود الجوّ

وفرغ الماء اخيرًا وامتنع ضغط النار وُطفيت القصبة لنفاد النار واصبحت آلة مدّ لا فاعلية لها ثم تقلصت القبة الهوائية واخذت في النزول رويدًا رويدًا على الرمل في نفس المكان الذي طفت منهُ

فانتصف النهار وهم في درجة ١٩°٣٥ طولًا و٥١°٦ عرضًا بعيدًا عن بحيرة شاد بنحو خمسمائة ميل وعن جهات افريقية الغربية بنحو من اربعمائة ميل ونيف

فنزل ديك ويوسف الى الارض وذهب عنهما الخدر

ثم قال الصياد: وقفنا اذًا يا خليلي

فاجاب العلامة بصوت الهيبة - لا بدَّ من الوقوف

ففهم الرفيقان مآل كلامهِ وكان سطح الارض على مساواة سطح البحر لسبب انخفاضهِ هناك ولهذا وقفت القبة في موازنة تامة وعدمت الحركة على الاطلاق

وبعد ان وضعوا فيها رملًا موازيًا لثقلهم نزلوا الى البر وهم غائصون في معاور الفكر ولبثوا ساعات لا يتحادثون ولا يتفاوضون في امر . . . . يوسف العشاء وكان لحمًا وكعكًا وعقب ان اكلوا شيئًا يسيرًا شرب كلٌّ منهم جرعة من الماء السخن

ولما جنَّ الليل وبدد الدجى ضياء النهار لم يسهر احد لحراسة القبة ولكن لم يرقد ايضًا احد لشدة الحرارة وانشغال الفكر. ولما اصبح الصباح اخذ فرغوسن نصف لتر الماء الباقي ووضعهُ جانبًا وقصدوا ان لا يمسوهُ الّا وقت الحاجة القصوى

فما مضت برهة الّا قال يوسف أُفٍّ اواه لقد ضاق صدري من الحرارة المتزايدة

ثم تطلع في الترمومتر وقال: لا عجب من ذلك فان الحرارة في درجة مائة واربعين

فقال الصياد: ان الرمل يلهب الاعضاء ويجعل البدن كأنه خارج من اتون نارٍ يا رباه ما هذه الحال فانا لا ارى اثرًا لسحابةٍ في السماء لعمري ان ذا مما يزعج العقل ويبلي بداء الجنون

قال العلامــة: لا تقطعنَّ حبل الرجاء يا رفيقي لان مثل هذه الحرارة يعقبها دائمًا رياح عاصفات في مثل هذه النقطة من الكرة ويكون قدومها سريعًا كالبرق اللامع وان كانت الان السماء في صفاء ورواق عظيم فمع ذلك يمكن حدوث تغيير مهم باقل من ساعة

فقال ديك: ولكن لا بد من ان يسبق ذلك دليل ام اشارة

فقال العلامة: اني ارى ميزان الهواء مائلًا الى انخفاض في الزيبق

قال ديك: اجاب الله دعاءك يا خليلي صموئيل لانا قد تسمرنا في هذه الارض كطيرٍ مكسور الجناح

قال فرغوسن: ولكن هنا فرق بيننا وبين الطيور يا ديك لان اجنحتنــا لا زالت غير ممسوسة ولم يضر بها شيء وأُومل ان يتيسر لنا العمل بها بعدُ

فصاح يوسف قائلًا: آه ثم آه من ريح تذهب بنا وتلقنا الى عين لم يغر

حينئذٍ لا نعود نحتاج الى شيء.. فان زادنا كافٍ وبالماء ننتظر شهرًا بتمامهِ ولا نحتمل عدانًا واما العطش فهو شرّ مصيبة وبلية

فلم يكن العطش وحدهُ عاملًا على تعذيبهم بل كان عقلهم مضطرًا لمراقبة الصحراء مراقبة دائمة لان الرمال كبحر عظمطم ليس فيها تلٌّ ولا عوجٌ ولا حصاة واحدة تتقف انظارهم عليها . فقد جرح فؤادهم انبساط تلك الصحراء المتساوية السطح واصابهم بالداء المعروف بداء القفار . ولعمري ان النظر الى زرقة تلك السماء غير المتغيرة والتأمل في اصفرار تلك الرمال الحريقة المدى مما يفضي بالمرء الى الهلع والرعبة وكانت حرارة الجوّ الملتهب نامية متزائدة وكأنها بارتجاف لهيب الاتون المضطرم واذا ما تأمل العقل بذلك الرواق البليغ خاب منهُ كل املٍ من النجاة ولم يجد بُدًّا من الهلاك في هاتيك الطلول ولا يجال بذهنهِ ما من شأنهِ ان يفرج همّهُ لان الاتساع المديد نوعٌ من الابدية

ولهذا لما فرغ الماء عند المسافرين الثلاثة وهم مقيمون في تلك الصحراء الحارة اخذوا يشعرون بالتصورات الغريبة الخالية من الصواب وقد كبرت عيونهم واضطرب نظرهم

فلما رزحت الصحة الطلام وخيم الصمت قد عزم العلامة على ان ينقض تلك الحالة القلقة بسيرٍ سريع . فاراد ان يطوف تلك الصحراء مدة ساعات لا للاستقراء بل للمشي

فقال الى رفيقيهِ هلما بي يا رفيقيَّ لنسير مدةً لان المسير يجديني نفعًا جزيلًا

قال ديك : انك تطلب مني امرًا مستحيلًا لاني لا استطيع ان اخطو خطوة واحدة

قال يوسف : احبّ عليَّ الرقاد يا مولاي

قال: ولكن سيحلب عليكما الرقاد او الراحة صبرًا يارفيقيَّ . فانقصا اذاً هذا الجمود والارتخاء وتعاليا معي نمشي . ما ما لكما لاتسمعان

فلم يجبهُ رفيقاهُ على سؤالهِ ولذا ذهب وحدهُ يمشي في تلك الليلة الشفافة المتلألئة بالنجوم والكواكب المرصعة في القبة اللازوردية . ورأى خطواتهُ الاولى مضحكة لهُ جدًّا اذ انها خطوات انسان واهن لم يمارس المشي من زمنة طويلة لكنهُ علم انهُ يجني نفعاً من هذه الرياضة فسار بعض الاميال نحو الجهة الغربية واخذ عقلهُ يتشدد واذا فجأة اصابهُ داء الأُوام ( هو دوار الرأس ) فظنّ في نفسهِ انهُ على حافة الهاوية وان ركبتيهِ انثنتا والقت الصحراء في قلبهِ رجفة الرعب والهلع . فتوارت المتصورة عن عينيهِ في حلكة الظلام وثقلت على راسه احمال الخوف والفزع وهو المسافر المشهور في الشجاعة والجراءة فحاول الرجوع الى الوراء ولكن كان سعيه باطلاً ثم نادى فلم يجبهُ احد حتى ولا الصدى وسقط صوته في الفضاء كما يسقط حجر في هوة لاقياس لعمقه ثم ارتمى على الرمال مضطجعاً حائر القوى وليس له رفيق في وسط ذلك القفر الصامت المخيف

وبعد انتصاف الليل عاد الى حواسهِ وهو بين يدي يوسف خادمهِ الامين لانهُ اي يوسف لما رأى ان قد طالت غيبة سيده اخذه القلق وهرول حالاً يتتبع اثاره المطبوعة على الرمل فجلا . ثم فوجده مغشيًا عليهِ

ولما افاق قال لهُ : ما الذي اصابك يا مولاي

فقال لهُ العلامة : ليس ذلك شيئا بل هو ضعف وقتي

قال يوسف : نعم ليس ذلك شيئاً ولكن انهض واستند عليَّ لنرجع الى مقصورتنا

فاتكأَ العلامة على ذراع يوسف وعاد في الطريق التي سلكها قبلاً

فقال يوسف - لِمَ خاطرت بنفسك يا نفسي بلا فطنة

ثم قال ضاحكاً - وربما كنت تشلحت من اللصوص ولكن ما لنا ولهذا الحديث فلنتكلم بخيرٍ

قال العلامة - قل يا يوسف ما بدا لك فاني مصغٍ لكلامك

قال يوسف : لا بد من ان نعمد لعمل لان حالتنا لا تدوم على هذا المنوال اكثر من بعض الايام واذا لم تمن الريح علينا نهلك لا محالة

فلم يأتِ العلامة بجواب

فاستتلى يوسف كلامهُ قائلاً يجب ان واحداً منا يبذل نفسهُ حباً برفيقيهِ ومن الصواب ان اكون انا ذلك الواحد

قال فرعوسن : وما المراد بقولك وما هو قصدك يا يوسف

قال يوسف - انا هو قصد سهل جداً فاني احمل معي زاداً وامشي دائماً الى ان الله مكلاًا في غصون ذلك اذا افتقدكما المولى بريح موافقة فسافروا ولا تنتظراني واما انا فاذا وصلتُ الى قرية اقضي مصلحتي ببعض كلمات عربية احفظها منك حفظاً فاما اني اتيكما بالمساعدة اللازمة واما اني اترك جلدي هناك بما قولك دام فضلك

قال العلامة - ان قصدك خال من التعقل والفطنة لكنهُ جدير بشهامة قلبك يا يوسف فان ذا الامر مستحيل ولا نتركك تذهب عنا

قال يوسف : سيدي لا بدَّ من ان نمتحن امراً فان هذا لا يجلب عليك مضرة لاني اقول لك تكراراً انك لا تنتظرني عند هب الريح وفي حصر المعنى انا ارجو النجاح في مصلحتي

قال العلامة - كلاَّ ثم كلاَّ يا يوسف فلا نفترق اصلاً بعضنا عن بعض

لان الافتراق يزيدنا غماً على همٍ فانهُ قد كُتب ما جرى لنا وربما قد كتب ايضاً انه سيحدث خلاصهُ في المستقبل. علينا اذاً ان ننتظر بصبرٍ جميل

فاصبر لصيفٍ ملك يوماً نزلا  لم يلبث النازلُ ان يرتحلا

قال يوسف فليكن كما قلت يا مولى. ولكن دعني اقول لك اني لا اصبر ما تاف عن يومٍ واحد ها قد بلغنا يوم الاحد او بالحري الاثنين لانها الساعة الواحدة من بعد انتصاف الليل فاذا مضى الاثنين ودخل يوم الثلاثاء ولم عش باشرت قصدي لا محالة

فما اجاب العلامة الى مقال خادمه وبعد قليل بلغ المحصورة وجلس في قاربها بالقرب من خيك الذي كان غائصاً في بحر السكوت المطلق ولو انه غير نائم حقيقةً

## الفصل الخامس والعشرون

في اشتداد الحرارة وفروغ آخر نقطة من الماء وليالي اليأس ومحاولة ديك قتل نفسه وهبوب السموم

فلما اصبح الصباح في اليوم الثاني كانت اول نظرة العلامة الى دليق الميزان ورأى انهُ ما كاد انخفض انخفاضاً طفيفاً

فقال في نفسهِ : ما من شيء جديد

فخرج من المركبة وتطلع في الجوّ ليفحص عن حالة الهواء فلم يجد سوى الحرارة نفسها والنقاوة المألوفة في الجوّ وثبوت الحال على المنوال القديم من دون دليل ينبئ عن تغيير قريب الامد

فصاح حينئذٍ قائلاً : وهل اذاً يجب علينا قطع الامل على الاطلاق

اما يوسف فكان صامتاً غائصاً في عمق افكاره ومتأملاً عاصمة من القصد الثالث

اما ديك فاستفاق من النعاس مريضاً وقد تشددت قواه الحيوية نوع خارق العادة فكنهُ العطش سلاسل نوائهِ وصده انتفاخ لسانهِ وشفتيهِ من التفوه بالكلام

وقد ذكرنا فيما مضى ان نقطات من الماء كانت لا تزال محفوظة في آنية والرفاق الثلاثة لهم علم بها فجعلوا يرددونها في افكارهم وقلوبهم مشتاقة اليها اشتياقاً عظيماً دون ان يجسر احد على الارتشاف بها

ثم اخذوا ينظرون بعضهم الى بعض واعينهم زائغة تائهة وقلوبهم مفعمة حرصاً وحشياً وكان ديك على الخصوص حاملاً كل الخمول لاستمساكهِ عما لا يطيق المرء الاستمساك عنهُ فقضى النهار كلهُ غائصاً في بحر الهذيان وهو

ذاهبٌ آيب ويضجّ باصوات البحة الخشنة ويعض قبضة كمه وكأنك به قد تأهب لفتح عروقه ومص دمه

ثم صاح قائلًا : ويلاه ويلاه من هذه البلاد بلاد العطش والجفاف فالاصح ان تدعى بلاد اليأس والقنوط

قال هذا وسقط على الارض واهنًا منحط القوى ولم يسمع له سوى صفير تنفسه بين شفتيه الطامنتين

وبعد المساء بُلي يوسف ايضًا بسدة داء الجنون فخيل له ان الصحراء الشاسعة تحاكي بحيرة عظيمة فيها ماء رائق صاف فخال يرتمي مرارًا على تلك الرمال الملتهبة ليرتشف منها وكان ينهض عاجلًا وشفتاه ملوثتين بالتراب

فحينئذ كان يقول لها بغضب وحنق . ويلًا وتعسًا لكِ يا ايتها البحيرة المشؤمة فان ماءكِ مالحٌ للغاية

وفيما كان العلامة وذلك متمددين لا يبديان حركة طرق يوسف فكرٌ ان يأتي ويروي غليل ظمائه بتلك النقطات المحفوظة من العلامة الى ساعة الضيق الاخيرة فوثب على المركبة راجعًا على ركبتيه وكشف الانية الحاوية ما فضل من الماء واذ حدق فيها عينيه اخذها بيده وحملها على ثغره

في الساعة والحال سمع صوتًا قادمًا منقطعًا يصرخ ويقول . اسقني اسقني

فما كان هذا الاصوت الصياد الذي رأى يوسف يشرب الماء فدبَّ متقلًا اليه وجثى امامهُ على ركبتيه باكيًا فتحرك قلب يوسف شجًا وشفقةً وبكي هو ايضًا وناول ذلك الانية فافرغها الصياد في فيهِ الى آخر نقطة منها

ثم قال ليوسف : اشكر فضلك يا خليلي وعزيزي

اما يوسف فلم يسمعهُ اذ سقط على الرمل واهنًا وغاب عن حواسهِ

فمن يا ترى يعلم ما جرى في تلك الليلة الهائلة .. ولما اصبح الثلاثاء استيقظ الرفاق الثلاثة وكانت الشمس كرشة تصب نارًا عليهم ورأوا لعصاءهم آخذة في الجفاف واليبس رويدًا رويدًا ولما اراد يوسف ان يقوم على قدميهِ لم يستطع حراكًا ولهذا اضحى لديه من المستحيل ان يتم ما نواه من العمل

ثم جال ببصره حولهُ فشاهد العلامة جالسًا في المركبة منحط القوى مكتف اليدين على صدره وهو يشخص في المسافة شخصة الله نظر الى نقطةٍ خيالية . اما ديك فكان منظرهُ يهيل النصر وهو يحرّك رأسهُ ذات اليمين وذات الشمال كوحش ضارٍ محبس في القفص ثم وقف فجأة واحدق بسلاحهِ « القرابينة » الموضوعة في المركبة بالقرب منهُ

وبعدهُ نهض متشددًا بقوة خارقة للطبيعة وقال آه ثم آه . ثم اقبل واكبًا كالمجنون واخذ القرابينة واحكم فوهتها على فيهِ

فوثب عليهِ يوسف وقال لهُ سيدي سيدي ما بالك

فقال الصياد شاهقًا دعني واذهب عني

واخذ كلاهما يتصارعان ويتنازعان

فقال ديك . رُح رُح عني والّا قتلتك

اما يوسف فلبث ناشبًا فيهِ بيديه وتصارعا برهةً ولم يلتفت اليهما العلامة وفي غضون القتال أُطلق الرصاص من السلاح بغتةً فدوى الصوت في الفضاء وعندها قام العلامة واجال نصرهُ حواليهِ

وفيما هو على هذه الحال اذا تشدد نصرهُ على الفور ومدّ يدهُ نحو الافق وصاح صارخًا : هناك هناك هناك

وقد خالج تلك الالفاظ حركة حماسة شديدة حتى افترق يوسف وديك

عن عصهما وجملا يتطلعان الى مصهما

فكانت الصحراء مضطربة كما يضطرب البحر ويتموج يوم تعصف فيه العاصفة وقامت امواج مزبدة من الرمال تنتشر وتلتف بعضها على بعض وعامود سحابي آت من جنوب الشرق مستديرًا متقلبًا ساريًا بسرعة عجيبة والشمس اذ ذاك مستترة وراء سحابة كثيفة فارسل ظلها ساقطة حتى المصورة وحبات الرمل الناعمة تحكي كور الجزيئات المائعة ولم يزل ذلك الموج الرملي مقبلا اليهم

فاشرقت انوار الامل على قلب فرغوسن وتلألأت على محياه

ثم صاح قائلا - نعما نعما هوذا السموم قد اقبلت

فقال يوسف ولم يفهم معنى ذلك - نعما نعما السموم

فقال ديك بصوت الغضب واليأس دع السموم تهب فانها تسقينا كأس المنون

فقال له فرغوسن - كلاّ يا ديك فانها تأتينا بكأس الحياة

وجعل يرمي من المركبة ما كان فيها من الرمال

ففهم اخيرًا رفيقاهُ وشرعا يساعدانه في عمله ثم جلس في المركبة

فقال العلامة - والان يا يوسف اصكرم عليّ بالقاء نحو خمسين رطلًا من معدنك

فبادر يوسف الى انفاذ امر سيده مع انهُ شاعرٌ بتأسف زائد ودا بالقبة الهوائية علت عن الارض وارتفعت

فقال العلامة: قد جاء اوان ارتفاعك يا قبة الخير

فاتت السموم نحوها السريع كالبرق اللامع وكادت عويتها تسحق بصورة وتلاشيها وقد امطرت عليها الرمال كالبَرَد

فصاح العلامة الى يوسف وقال · ارمِ بعد من الثقل يا يوسف

فالقى يوسف قطعة كبيرة من المعدن الذهبي

وقال · هوذا رميت فليطرب منك الخاطر

فارتفعت حينئذٍ المنصورة فوق فورة الهواء ولما وصلت الى العلاء انحدرت سائحة على ذلك البحر المزبد بسرعة لا حدَّ لها

فلم يتكلم احدٌ من الرفاق الثلاثة بل كانوا شاخصين ومتأملين وقد ردتهم ريح العاصفة

وبعد الساعة الثالثة خمد الاضطراب وسقط الرمل على الارض وكوّم فيها الروابي وعادت السماء الى رونقها الاصلي

عندها وقفت المنصورة عن المسير حامت بالقرب من غوطة هي كجزيرة خضراء عائمة على سطح ذلك البحر الرملي

فقال العلامة · هوذا الماء هوذا الماء ولا ريب في ذلك

وللحال فتح اللولب الأعلى فانسرب جانبٌ من الادروجين ونزلت القبة حتى لم تبعد عن الغوطة الّا نحو مائتي قدم

ولما المسافة التي طارها المسافرون في برهة اربع ساعات بلغت مائتين واربعين ميلاً اي رهاء مسافة ١٠٠ ساعة

وبعد دنو القبة من الارض قد نزل ديك ويوسف قافزين عن المركبة فقال لهما العلامة كونا على حذر وخذا معكما البواريد

فوثب ديك على قرابينه وضبط يوسف بارودته وتقدما سريعاً حتى وصلا الى الاشجار ودخلا تحت تلك الخضرة الرطبة فاستنشرا من ذلك عاء غزير لكنهما لم يكترثا ببعض اثار حديثة عريضة رُسمت في تلك الارض الناعمة

وفيما هما يمشيان اذا سمعا زئيرًا عن بعد نحو عشرين قدماً

فقال يوسف · انما هذا زئير اسد

فقال ديك مغتاظاً : دعهُ يزأر فاني اود معاركتهُ . ترى حكم لنا اقوياء عند القتال

فقال يوسف : ولكن حذارِ حذارِ وليرشدك التأني والحرص لان حياتنا نحن الثلاثة متعلقة بخيطٍ بعضها ببعضٍ فاذا ذهبت حياة الواحد حصلت حياة الآخرين في خطر

فلم يصغِ ديك لكلام يوسف بل تقدم كأسدٍ ضارٍ وشرار الحماسة والجسارة تقدح من عينيهِ وسلاحهُ مدحور في يديه . في ظل نخلةٍ كان سبع ذات ناصية سوداء مستكناً كامناً للقتال فما بصر بالصياد الاقمر ليثب عليهِ ولكن ما لكاد استوى قائماً حتى بادرته رصاصة خرقت قلبهُ كالصاعقة وجدلتهُ على الارض ميتاً

فصاح يوسف قائلاً · عافاك الله عافاك ياسيدي

اما ديك فبادر الى البئر عدواً ونزل اليه على درج رطب ثم تمدد امام عين ماء بارد وغمس شفتيهِ فيهِ بلهوجةٍ ثم حذا حذوهُ رفيقهُ يوسف ولم يعد يُسمع لهما سوى لعق الماء ليرتويا من شدة ظمائهما

فبعد ان شرب يوسف تنفس وقال · حذارِ حذارِ ياديك لاتطمعنَّ في الشرب فان الطمع ضرٌ مانع

اما ديك فلم يلتفت اليهِ بل ما زال يروي غليل عطشهِ وقد غطس في ذلك الماء اللذيذ راسهُ ويديه وكانهُ يحاول النمل بمثل تلك الخمرة

فقال يوسف · وسيدي فرغوس هلاَّ نفتكر فيهِ

فما انتبه الصياد الاعند ذكر العلامة فرغوس وللحال ملأ آنيةً كان قد احضرها معهُ واراد الطلوع على درج البئر

فاندهش اندهاشاً عظيماً اذ وجد نافذة البئر قد سدها جسمٌ عظيم هائل كثيف جداً ثم ارتد يوسف نظيره اذ كان تابعاً له

فقال حينئذٍ . ها قد صحبنا في شرّ الحبوس

قال ديك . ويلاه ما المعنى بذلك وما هذا الامر . .

فما فرغ من كلامهِ الآ سمع زئيراً فعرف وقتئذٍ من هو ذلك العدو الباسل السادُّ مدخل البئر

فقال لهُ يوسف . انهُ سبعٌ

قال ديك . كلاَّ بل هي لبوةٌ نحس الله طالعها ولكن فلتصبر قليلاً فعليَّ بتدبيرها

ثم جعل يدخر سلاحهُ بسرعةٍ ونشاط

وما مضت برهة الآ اضرم النار فكان الحيوان قد توارى عن الابصار

فقال الى رفيقهِ : هيا بنا هيا

فقال يوسف كيف نطلع وقد لم تقتلها رصاصتك لانها لو كانت ماتت لتدحرجت الى هنا وهي الان واقفة خارجاً ومتأهبة لتثب على من يخرج منا اولاً فهو يكون فريستها ونصيبها

قال الصياد : وما الحالة اذاً وهل نلبث في هذه البئر محبوسين ورفيقنا ورغوس ينتظرنا بفروغ صبر

قال يوسف . فلتجذب الينا الحيوان خذ بارودتي واعطني سلاحك

قال ديك . وما مرادك ان تصنع

قال . سترى الان

فاخذ يوسف بُردته وجعلها على رأس السلاح واطلعها الى فوق كطعمة للبوة فهجمت اللبوة فكان ديك يترقبها فضربها برصاصةٍ اصابت حنكتها

فتدحرجت حينئذٍ على الدرج وهي دائرة وقلت يوسف ظنّ هدا انها عزت في جسمهِ راسهـا لتفترسهُ واذا بضربةٍ ثانية اصابت اللبوة فكان اد ذاك وعوس قد ظهر على نافذة النسر وبارودته معهُ والدخان منها متصاعد وخرج يوسف من تحت اللبوة وجارس فوق جسمها واعطى مولاه وعوس آية الماء

في رمشة عين احدها العلامة الى فيه وادرع دمعهـا وحينئذٍ اسدى المسافرون الثلاثة شكرًا جزيلاً من صميم الفؤاد الى عناية الرحمان التي حفظتهم من شر العوائل ونجتهم بنوع عجيب من كوارث الحدثان

# الفصل السادس والعشرون

## في الليلة المبهجة وقصة حمس اروس وانعطاص البارومتر وطلوعهِ والتأهب للرحيل وثوران الزوبعة

فكانت ليلة مبهجة تطرب الخاطر اذ قضوها في روضةٍ اريضة تحت ظل اشجار ناضرة بعد ان تناولوا طعاماً لذيذاً قوّى ابدانهم ولم يهملوا شرب الشاي والعرق الممزوج بالماء

وكان قد طاف الصياد تلك الغوطة بجميع آفاقها واستقرأ سائر انحائها وادغالها فلم يجد في ذلك الفردوس الارضي دابّاً حيرية واذ اطمأنّ ناماً قد رقدوا جميعاً ملتحفين باغطيتهم وذاقوا في نومهم لذة الراحة وولى عنهم مدبراً عسكر الهموم والبلايا الغابرة

ولما كان الغد وهو السابع من شهر ايار اشرقت الشمس بانوارها الساطعة فلم تخترق كثيف الاشجار والاجام الملتفة المظللتهم بظلها وقصد المسافرون الاستراحة في تلك الروضة منتظرين هبوب الريح الموافقة ولم يصدهم عن ذلك مانع اذ كان زادهم جزيلاً وافراً اما يوسف فنقل ادوات مطبخهِ الى تلك الخيمة وكان يشتغل بطبخ الاطعمة ويبذر الماء بلا توفير ولا اكتراث

فقال الصياد : يا للعجب من هذا الفرح العجيب بعد ذلك الضيق وهذه الافراح بعد تلك الغموم والاتراح وهذا الريعان بعد ذلك المحول وهذا الغنى بعد ذلك الفقر فلله درّ من قال٠

رأيت الدهر مختلفاً يدورُ   فلا حزن يدوم ولا سرورُ

ولعمري لقد ماهزت افتقاد مخيلتي في تلك الساعة الهائلة

فقال فرغوسن : لولا يوسف لما كنت الان تحدثنا على اختلاف احوال الدهر وانقلابها واقبال الدنيا وادبارها

فمدّ ديك يده الى يوسف وقال لـهُ . خليلي وصديقي لا شلت يداك المحسنتان

فقال يوسف . لا يحمل الامر مثل هذا الشكران فعليك ان ترد لي العوض اذا مست الحاجة الى ذلك غيرانهُ احبُّ عليَّ ألَّا احتاج الى مثل تلك المعاونة

قال فرعوس . يا لضعف طبيعتنا وما اسهل انحطاطنا لامر طفيف

قال يوسف : أ لعلك مشير الى القليل من الماء الذي تلف بدونه فهذا دليل الى ان الماء لضروريٌّ كلي الضرورة لحياة الانسان

قال فرعوس لا ريب في ذلك والذين يُحرمون الأكل يحتملون عدمهُ اكثر من الذين يحرمون الشرب

قال يوسف . نعم هذا صحيح اذ انه عند الضرورة يأكل الانسان كل ما يصادفهُ حتى وشبيهُ ولو كان ذا الطعام مما لاتحملهُ المعدة بسهولة

قال الصياد . ان البرابرة لا يفوتهم هذا الامر ولا يصعب عليهم

قال يوسف . أجل ولكن هم متوحشون وبرابرة وقد تعودوا اكل اللحم النيء فهذا مما تشمأز منهُ طبيعتي غاية الاشمئزاز

قال العلامة في الحقيقة ان هذا مما تنفر منهُ الطبيعة نفوراً شديداً ولهذا لما حمل الى اوربا السواح الذين دخلوا بطون افريقية الاخبار عن بعض اقوام برابرة كانوا يقتاتون بلحم غير ناضج فلم يؤخذ كلامهم على محمل الصدق وفي مثل هذه الظروف وقع لخمس بروس حادث غريب ومضحك جداً

فقال يوسف وقد تمدد برخاء على الحصيرة الغضة : احكِ لنا هذا الحادث فان لنا وقتاً لسمعهِ

قال فرعوس · سمعاً وطاعة اعلمــا وفقكما المولى ان جمس بروس رحل اسكتلندي من اقليم استرليك وقد طاف بلاد الحبشة كلها حتى وصل الى بحيرة تيانا قصداً في اكتشاف عيون النيل وذلك من سنــة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢

ثم رجع الى بلاد الانكليز ولم يُشهر فيها رحلاته الاّ سنة ١٧٩٠ فلم تتصدق اخباره عن اقوام تلك البلاد بل أُدخلت في طيّ الخرافات والخزعبلات وعلى الخصوص من حيث ان اخلاق الحبشة واطباعهم الغريبة تنافي الطباع الانكليزية وتختلف عنها اختلافاً عظيماً ومن جملة ما رواه جمس بروس ان شعوب افريقية الشرقية يأكلون لحماً غير ناضج

فهاجت هذه الرواية قوماً جزيلاً ولم يرتضِ احدٌ بان يصدقها ولما كان بروس على جانب من الشجاعة وحدة الطبع اغتاظ كثيراً من شك الناس في كلامهِ وفي ذات يوم كان رجل من بلاد وطنهِ جالساً في قاعة ادنبرج فاخذ يعيد على سماعهِ اي سماع بروس المقالات نفسها التي اعتاد على المزاح بها اهل تلك المحلات ضحكاً على روايات بروس وصرح امامهُ بصوت عالٍ ان اكل اللحم النيء هو من المستحيل ولا يمكن تصديقهُ فلم يجاوبهُ بروس على كلامهِ بل خرج برهةً ورجع اليهِ بقطعة من اللحم الغير الناضج بعد ان عمهــا بالملح والبهار على نسق الافريقيين ثم قال لهُ: سيدي لقد سببت لي اهانة عظيمــة وشتمتني باظهارك لي شكاً فيما رويتهُ وزعمك ان ذا من المحال فتأكيداً لصدق كلامي امرتك على اكل هذه القطعة اللحمية الغير الناضجة واما انك تأكلها والاّ . . . . .

فخاف الاسكتلندي حينئذٍ واذعن لامر بروس ولما تناول قطعة اللحم كشر عن اسنانهِ دلالةً على اشمئزازه ونفوره · اما بروس فما زال محافظاً على استكانتهِ ورواقهِ ثم قال · ولنفرض سيدي ان القضية التي نحن في صددها غير صادقة

في الان وصاعداً اقلهُ لا عدت تقول انها من الامور المستحيلة

فقال يوسف نعم الجواب جواب بروس فلو كان اصاب ذلك الرجل تخمة من تناولهِ اللحم النيء لكان قد نال جزاءهُ ولكن يا ترى اذا رجعنا الى بلادنا وشكّ الناس في رحلتنا . . . .

قال فرغوسن : فماذا تصنع حينئذٍ

قال يوسف . اني سأطعم الذين يشكون في رحلتنا قطع المصورة بلا ملح ولا بهار

فضحك الرفيقان من الفاظ يوسف المزاحية وهكذا مرَّ النهار باحاديث لطيفة ثم عاد اليهم الامل مع القوة ومع الامل الجرأة واخذ الماضي بالاضمحلال تجاه المستقبل بسرعة عجيبة

وقد عزت ليوسف السكنى في ذلك المأوى المطرب وودَّ لو انه لم يكن مضطراً الى مغادرته اصلاً اذ اصبح لديه ذلك المكان كمملكة احلامه وظن نفسه انهُ مستقرٌّ في نفس بيتهِ . ثم طلب من سيدهِ ان يبنه عن مركزه وسطر في سجل سفرتهِ انهُ في الدرجة ١٥°٤٣ طولاً و٨°٣٢ عرضاً . اما ديك فلم يحزن سوى على امرٍ واحد وهو عدم تمكنهِ من الصيد في ذلك الغاب وساءهُ خلو محطتهم من بعض الحيوانات الكاسرة

فقال العلامة كأنك يا عزيزي ديك نسيت حالاً ذاك الاسد وتلك اللبوة

فقال ديك بصوت الازدراء . هذا شيء لا يُذكر ولكن في الواقع ان وجود ذينك الوحشين اللذين اذقناهما كاس الموت مما يجعلنا نحسن نقرب بلادٍ اكثر خصباً وريعاناً

قال فرغوسن : ان برهانك يا ديك غير سديد لان هذه الحيوانات تجوز غالباً مسافات شاسعة لتصرها من الجوع والعطش والاجدر بنا ان نكون على

حرص وحذر في الليلة المقبلة ونضرم النيران لئلا تدهمنا داهية

قال يوسف : وهل نضرم النيران لتزيد حرارة على الحرارة الحاضرة ومع ذلك فلا بأس من اضرامها وفاقاً لمرادك ولكني عند قطعي واحراقي تلك الاشجار البهية الجزيلة النفع فلا بد لي من الشعور بغمّ باطن وتأسف

قال العلامة : حاشا لنا ان نحرق الغاب باسره فلنحافظ عليهِ ما امكنا حتى اذا بلغهُ غيرنا يجد فيهِ ملجاء وسط الصحراء

قال يوسف . نعم القول ولكن هل تظن يا سيدي ان هذه الروضة عرفت من المسافرين

قال العلامة لا شك في ذلك لانها مثوى لقوافل المسافرين في اواسط الافريقية فلو اتونا الان زائرين لنا سررت الّا ما قلَّ حسبما يُرى لي

قال يوسف . وهل يوجد بعد في هذه الاقطار من اقوام نيام نيام البالغين في التوحش

قال العلامة : لا ريب فيهِ اذ ان هذا الاسم يعم جميع الاقوام الخالين في هذه الاقاليم وجميعهم ذات عوائد متماثلة

قال يوسف : اقرّ اقرّ ومع ذلك فان هذا امرٌ طبيعي لانهُ لو كان اهل البدو على ذوق لاهل الحضر فاين يكون الفرق بين كليهما مثلًا ان هؤلاء الانام الافاضل اعني بهم البرابرة لا يقتضي لهم التوسل والترجي ليتلقفوا القطعة اللحمية التي اتلفها الاسكتلندي المذكور لنا بل والاسكتلندي نفسه

وبعد ان قال يوسف هذا ذهب يورث النار لحراستهم في الليل لكنهُ لم يشعل الّا قليلًا من الحطب وذهب ذلك الاحتياط هدرًا اذ لم يقع شيء يكدر صافي رقادهم ويقلقهم ادنى قلق

وفي الغد لم يتغير الهواء بل استمرّ على استكانته وهدوءِ وما برحت القبة

الهوائية عديمة الحركة ولم تتذبذب اصلاً لتدل على ادنى نسمة في الجوّ

فاخذ الهمّ يشمل قلب فرغوس من جرى تلك الحال لانها اذا طالت على ذلك المنوال فيبعد زادهم وفيما كانوا سابقاً محتاجين الى الماء اصبحوا حالياً في غاية الاحتياج الى الطعام وذهبوا فريسة لجوع ألكلي

لكنهُ نظر الى ميزان الهواء فرأى فيهِ انخفاضاً كثيرًا فتطمأن باله وهدأ روعهُ لان انحطاط الزيبق دليل واضح على تغيير قريب في الجوّ فعزم على ان يتأهب للرحيل ويصير متنبهًا الفرصة الاولى عند هبّ الريح . فلذا ملأ صندوق اذخار الطار وصندوق ماء الشرب ثم اخذ يوازن القبة الهوائية فاضطر يوسف الى ان يبدل جانباً عظيمًا من معدنهِ الغالي القيمة ولولا الطمع عاوده مع عودة الصحة والقوة فتذلل كثيرًا قبل ان اذعن لسيده . اما هذا اي فرغوس فبيّن له انهُ لا يستطيع حملان ثقل عظيم وجعلهُ يختار ما بين الماء والذهب فلم يعتم ان يوسف القى على الرمل كمية وافرة من حجارته العزيزة

ثم قال . هذه ذخيرة مذخورة لمن يأتي بعدنا من المسافرين فانهم يندهشون عند ما يجدون كنزًا في مثل هذا المكان

قال الصياد واذا اتى عالم في الصدفة وعثر على هذه الحجارة المعدنية فماذا عساه يظن بها

قال العلامة : كن على يقين يا صديقي ان فحصهُ يكون عظيمًا ولا بد من انه يشهر ذلك التعجب في صحف ومياومات عدة بكلام مطوّل جدًا وسيأتي يوم نسمع بهِ عن مصادفة طبقة معدنية ذهبية في وسط رمال افريقية

قال ديك : ويكون يوسف سبب هذه الحادثة

فتبسم يوسف لهذا المقال وعزّى فؤادهُ على ما فقده من المال الوفير اذ تصوّر في بالهِ انه يكون سبباً لانخداع احد العلماء وشحنهِ كتبًا باوهامهِ الباطلة

ثم تنظر العلامة تعبيراً في الهواء مروع الصدر فيما بقي من النهار لكنهُ خاب املًا اذ اشتدت الحرارة ولولا ظلّ الاشجار لذاقوا حرًّا لا يُطاق ووصل الترمومتر في الشمس الى درجة ١٤٩ انسكليزية فكان اجيج الرمضاء يجري في الجو مجرى السيول وبلغت الحرارة اقصى درجة مما صادفهُ السواح في الصحراء

فبعد ما جن الليل اقام يوسف سور الحصار كما في الامس ولما كان العلامة وكنادي ساهرين كلٌّ منهما في وقت حراستهِ لم يحدث قط شيء جديد

ولكن لما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك سهرانًا في دوره انحصت الحرارة على البغتة وتجلببت السماء بجلباب السحاب والغيوم واحلولك الظلام

فصاح يوسف في الحال الى رفيقيهِ ايقاظًا لهما من الرقاد وقال لهما. انهضا انهضا فقد اقبل الهواء

قال العلامة وهو ينظر الى السماء . جاء اخيرًا الاوان فيزال هذه زوبعة فلنسرع الى المنصورة مبادرين

فكان لا بد من الاسراع الى المنصورة لانها كانت مائلة لشدة الزوبعة ومارّة المركبة على الرمال فلو كان قد القي شيء مما حوتهُ المركبة من الثقال لطارت القبة الى الجوّ وخيبت منهم كل امل في الظفر بها

اما يوسف النشيط فقد عدا عدو خيل السباق ووقف المركبة فيما كانت القبة متسطحة على الرمل وباشرت الاحتراق ثم جلس العلّامة في موضعهِ واضرم القصبة ورمى ما زاد عنده من الثقال

فالقى السواح نظرة اخيرة الى اشجار الموطة التي كانت تنثني من ثوران

الروسة ردهوا متوارين في طلّ طلام للجوّ مع هبوب الريح الشرقية في علو مائتي قدم عن الارض

---

# الفصل السابع والعشرون

في راي احد علماء الفرنسيس والمرور بمملكة ادامونا وحالي اتلنتيكا وصر سوة ومدينة يولا وجبل ناجلة وجبل سديف

وبعد ما رحلت القبة اخذت تسير مسيرًا سريعًا جدًّا وطالما قد تمنى السواح الابتعاد عن تلك الصحراء التي كادت تدفنهم في رمالها وتوليهم الويل والتعس

ولما كانت الساعة التاسعة وربع صباحًا شاهدوا حشيشًا يتمايل في تلك الرمال فاستدلوا بها على ان الارض قريبة منهم كما استدلَّ على قرب الارض ذلك الرجل الشهير الذي اكتشف بلاد اميركا اعني به خرستف كولمبو وبصروا بنباتات خضراء تترما بين الحصى المنتشرة الى قرب الصخور والجبال وكانت قصيرة جدًّا كأنها تخشى الظهور بإزاء الرمال المحيطة بها

ثم رمقوا في الافق اشكالاً معوجة لكنهم لم يميزوا رسمها لما على قمتها من الغيم وعلى كل حال كان المطر السابق احدًا في الزوال والاضمحلال

فقرأ العلامة السلام على تلك الارض الجديدة وقلبهُ اذ ذاك مفعم فرحًا وابتهاجًا وكاد يصيح كالبحري الرقيب في السفينة هوذا الارض هوذا ارض

ثم مضت ساعة وتراءت تلك الاماكن لاعين العلامة بمنظر وحشيّ لكنها لم تكن متساوية السطح وجرداء كالاولى بل كان افق السماء البعيد ينتقش بصورة بعض اشجار

فقال الصياد: قد وصلنا اذًا الى بلادٍ متمدنة

قال يوسف: ما هذا الكلام فانه بعيد عن الاصابة اذ لم نرَ حتى الان اهلاً لهذه البلاد

قال فرغوسن . لا يطول بنا الجبال حتى نرى سكاناً ان بقي سيرنا على ما هو عليه

فقال يوسف : سيدي هلاَّ نزال في بلاد الصيد والسودان

قال فرغوسن : بلى حتى نبلغ بلاد العرب

قال يوسف : أتعلمهم العرب الغرباء اصحاب الابال

قال فرغوسن . كلاَّ ليس من الابال في هذه الجبال الَّا ما قلَّ جدًّا واذا طلبتها وجدتها في الجهة الشمالية بدرجات

قال يوسف . قد ساءني هذا الخبر

قال فرغوسن : ولماذا يا يوسف

قال يوسف : لو انقلبت الريح وصدتنا عن السير لكانت الابال تجديبــا نفعاً جزيلًا

قال العلامة : وكيف نفعتنا

قال يوسف . سيدي قد طرقني فكرٌ وهو انا نقطرها في المركبة فتجرنا ونحن فيها وما قولك يا سيدي

قال العلاَّمة . قد طرق هذا الفكر غيرك قبل ان تاتي به فان احد علماء الفرنسيس اصحاب العقل والذكاء (١) الف حكاية وذكر فيها مركبــة مقادة بجمال ثم وثب عليها اسد وافترسها وابتلع معًا الحبل الضخم الرابطها بالمركبة واخذ في جرّ المركبــة وهلمَّ جرًّا . الا يا ترى يا يوسف ان السفر على هذا النسق تخيل من الطراز الاول ولا مناسبة له مع نوع مسيرنا

فلما رأى يوسف ان رأيه اتى لنائل غيره قبلهُ خجل واختصم ولكنهُ اخذ يفتكر بحيوان يستطيع ان يفترس الاسد ولما لم يجــد من له سطوة على سيد

(١) وهو العالم ميري

الهائم رجع ينظر الى البلاد ويتأمل هيئتها وشكلها وما تحويه من العجائب فشاهد بحيرة ذات سعة وسطى وحولها آكام لا تستحق ان تُدعى جبالًا ورأى اودية كثيرة نضرة وفيها الاشجار المتنوعة الاجناس ملتفة بعضها ببعض وهناك الابلاس وهو جنس من النخل ذات اوراق عظيمة يبلغ طولها نحو خمسة عشر قدمًا وساقها متسترٌ بالاشواك الحادة والروائح الزكية تفوح من ذلك النبات المشهور نفثة العرب وهي متصاعدة الى طبقة الجوّ السائرون فيها السواح نفثتهم ولم تخلُ تلك الروضة البهية من شجر جوز السودان والبوباب والموز وامثالها

فقال العلامة: وما احلى هذه الروضة الانيقة

قال يوسف هوذا الحيوانات فما قليل نشاهد الناس

قال الصياد: كم هي جميلة تلك الفيلة هل ترى من الممتنع صيدها

قال فرغوسن: ومـا الحيلة لنقف يا خليلي ونحن مندفعون بهذا المهب السريع الشديد دع عنك هذا المرام وامهل قليلًا فسوف تجازى على صبرك واحتمالك

وفي الحقيقة ان منظر تلك البهـائم كان من شأنهِ ان يهيج الحمية وقد احسّ ديك بوثب قلبه وتقلصت اصابعه وهي قابضة على السلاح

واما حيوانات ذلك الصقع فتضاهي ازهارها بهاء ورونقًا والثيران تترّع في حشيش غليظ وتتوارى في خلالها لعلوها وكثافتها والفيلة الرمادية اللون والسوداء والصفراء ذات القامة الباسقة تمر مرور ام زوبعة في وسط الغابات والاحراش وهي تحطم وتفترس وتجلب الخراب والدمار حيثما سارت . ومجاري المياه تجرُّ في انحدارها من اعلا الاكام المشجرة ناهضة نحو الجهة الشمال وهناك مجاري الماء تغتسل وتضج في اغتسالها وغيرها من البهائم ترى مضجعة

على شواطي البحيرة

وكان ذلك المكان عجيباً غريباً لما يأوي من الحيوانات الكثيرة المتنوعة الاجناس والطيور الغير المحصي عددها وذات الالوان المشكلة وهي تحوم متلألئة فوق النباتات الباسقة والخضار الانيقة

فلما رأى العلاّمة مثل هذا الخصب وهذه النضارة الطبيعية علم ان هذه مملكة اداموفا

ثم قال ها نحن نسطو الان على الاكتشافات الحديثة فاني اتمم منهج السواح الذين سبقوني واسير في الطريق التي لم يطيقوا تكميلها فهذا من حسن حظي وان شاء المولى سنلحق عن قريب اكتشاف القبطانين برتون واسبيك باكتشافات العلامة برث . فهناك تركنا الانكليزيين واتينا الى هنا لمصادفة الهمبرجي وعما قليل نصل الى آخر محطة وصل اليها هذا العالم المحسور

قال ديك يخال لي من المسافة التي جزناها انه يوجد بون عظيم بين الاماكن التي قصدها السواح المذكورون

قال العلامة . تعالَ نحسب هذه المسافة خذ الخارطة وانظر في اي طول هو راس البحيرة اوكاروه حيث وقف السائح اسبيك

قال ديك : انه واقع على التقريب في الدرجة السابعة والثلاثين طولاً

قال فرغوس : وما هو مركز مدينة يولا التي سنصل اليها ان شاء الله في نهاية النهار وقد بلغها برث الشجاع

قال ديك : مركزها في الدرجة الثانية عشرة طولاً

قال فرغوس : فاذاً الفرق هو خمس وعشرون درجة وكل درجة كناية عن ستين ميلاً فيكون اذاً الحاصل الف وخمسمائة ميل

قال يوسف: لعمري ان دا فسحة جميلة لمن يودُّ التنزه ماشياً

قال العلامة: لا بد لنا من قطع مثل هذه المسافة فعلاً فان ليونكستون ومُعات لا يزالان مقيمين في قلب افريقيـة ولا تبعد بياسا التي اكتشفوها كثيراً عن بحيرة تنغانيكا المكتشفة من برتون ولا يمضي هذا الجيل الّا وتُعرف جميع هذه الاماكن . ثم نظر العلامة الى البوصلة وقال: ولكن ارى الريح تدفعنا كثيراً الى الجهة الغربية وكنت اودُّ لو دفعتنا الى الشمال ولكن ما الحيـلة

وبعـد ان سارت المنصورة مدة اثنتي عشرة ساعة وصلت الى حدود بلاد اليكريسيـة اي السودان وسكان هذه البلاد الاولون من عرب الشول رعاة المواشي البادية . وفي الافق تراءت رؤوس جبال اتلنتيكا الشامخة التي لم تدسها بعد قدم رجل افرنجي ويقال ان علو تلك الذرى عن سطح البحر نحو سبعة الاف وثمانمائة قدم

ثم تراءى لاعين السواح نهر حقيقي عرف العلامـة انهُ نهر بنوه لوجود المماثل العظيمة المحيقة به وهو من اصاب نهر النيجر الكبيرة وقد دعاهُ الافريقيون منبع المياه

فقال العلامة لرفيقيهِ: سيأتي يوم يكون فيهِ هذا النهر سبيلاً طبيعياً لمد سلك العلاقات الى داخل اليكريسيـة وتوافي سفينة انكليزية تحت رئاسة احد قباطينا المشهورين في الحذق والمهارة فتنزلهُ وتصل بهِ الى مدينة يولا وعليهِ فاننا قادمون في بلاد غير مجهولة

ثم شاهد السواح عبيداً كثيرين يعتنون بحراسة الحقول وزراعة الحبوب ولما كانت تمرّ فوقهم المنصورة كشهب الكواكب ترى الاندهاش مستولياً عليهم وبالفًا اقصاه واعربهُ ولما امسى وقفوا السواح بعيداً عن مدينة يولا بارضين

الف ميل وامامهم كانت تقوم في الافق البعيد قنا جبل منديف الحادّان

فامر العلامة بالقاء المراسي فتعلقت براس شجرة سامية العلوّ غير ان ريح شديدة الهبوب احدثت تلاطم القبة الهوائية حتى انها قد لفتت وتلوّت وحصلت مرارًا في خطر عظيم لان تتمزّق فما نام العلامة ليلتهُ كلها الّا وهو في سهاد وكاد احيانًا يقطع حبال المراسي ليفر هاربًا من الزوبعة ثم بعدهُ هدأت الريح قليلًا ولم يعد يخشى العلامة من تعذب المصورة

وفي الغد كانت الريح اخف مهبًا لكنها دفعت السواح عن مدينة يولا وقد اشتاق العلامة لرؤياها لانها قد بُنيت حديثًا من الفلان ولكن اذ لم يكن لهُ حيلة سوى الصبر سار مع هبوب الريح الى الجهة الشمالية مائلًا قليلًا الى الجهة الشرقية

فسأل ديك ان يحط برهةً في تلك البلاد الكثيرة الصيد ووافقهُ يوسف على ذلك اذ قال انهم في احتياج كلي الى اكل اللحم الطري اما العلامة فلم ينقد الى بغيتهما لانه يخشى تلك الاقوام البربرة ويرى القبة مرشوقة بسهامهم

وكانت تمتد تحت المصورة قرى وضياع كثيرة ذات اكواخ طويلة ما بين المروج المفتشة بزهور سمحية

وما انفككت الريح تدفع القبة الى جهة شمال الشرق رغمًا عما بذلهُ فرغوسن من الجهود لتغييرها فاخذوا يتقدمون الى جبل منديف المتوارى بين السحب والغيوم ورؤوس هذا الجبل الشامخة تفصل حوض النيجر من حوض بحيرة شاد

ثم شاهدوا الجبل المعروف باسم باغله وفي جانبهِ اثنا عشر قرية متعلقة بهِ تخالها اطلالًا اصطفوا على حضن امهم وقد عظم هذا المنظر جمالًا لاشراف

السواح عليه من العلو وكانت الخنادق تتراءى لهم مغطاة بالزروع المتنوعة الالوان

وبعد الساعة الثالثة بعد الظهر قابلت المنصورة جبل منيف وعلى انه لم يتمكن العلاَّمة من الحيد عنهُ قد اخذ يهتم في مجازه فرفع حرارة القصبة الى مائة وثمانين درجة واذا بالقبة علت عن الارض اكثر من ثمانية الاف قدم وهذه كانت اعلى طبقة وصل اليها السواح في رحلتهم الجوية . فصدها اعتراهم البرد واضطروا الى ان يلتحفوا باغطيتهم خشية من المضرة ولكن لم يستقروا برهةً هناك الّا اخذوا بالنزول الى الارض بواسطة تخفيف حرارة القصبة وقد كادت تتمزَّق القبة لشدة تمددها وانتفاخها واستطاع مع ذلك العلامة ان يحقق كون اصل ذلك الجبل جبلاً ناريًا امست فوهاته المطفئة لججًا قعيرة جدًا

وفي الساعة الخامسة لطت المنصورة من ريح الجنوب فنزلت في منحدر الجبل نزول الهوينا . ثم وقعت في بقعة خالية من كل شجر وسط غاب وليس فيها ساكن اصلًا ولما مست الارض مكنها يوسف لئلا تفلت هاربة وقفز ذلك من المركبة وبارودته في يده وعدا في ذاك الفضاء الفسيح ثم عاد سريعًا بصيد وافرة من البط وجنس من دجاج الغاب فهيأها يوسف للطعام فاكلوا وشربوا بلذة وانشراح ورقدوا بسكون واطمئنان تامين

# الفصل الثامن والعشرون

في مدينة مصمية وجحود احد المشائخ للقبة الهوائية والكلام عن السواح دنهام وكلابرتون وودني ووجل وما كان من الحمام الناقله برا المرسلة من والي قرباق

ولما كان الغد وهو الحادي عشر من شهر ايار سارت المنصورة بهب الريح وكان السواح يثقون بها ثقة الوثيقة بالسفينة المتينة

ولم تكن ثقتهم بها خالية من الدعم اذ انهم كانوا قد ساروا مسافة عظيمة ونجوا من كل ما من شأنهِ ان يورطهم في لجج الاخطار والمهالك كالرمص والزوابع والمنازل والمطالع ويسوغ القول ان العلاَّمة كان يقيدها كيفما شاء وكأنهُ بمجرَّد الاشارة . ومع انهُ لم يكن عارفاً ما هي البلدة التي تنتهي فيها رحلتهُ لم يخشَ بتةً سوء العاقبة غير انهُ كان مشدداً حرصهُ وحذرهُ من الوقوع بايدي الاقوام البربرة المتعصبين الحالين في تلك البلاد ويوعز الى رفيقيهِ ان يترقبا دواماً كل طارق

ثم اخذت الريح تدفعهم قليلاً نحو الشمال ولما صارت الساعة التاسعة نظروا عن بعد مدينة مصمية الكبيرة المبنية على اكمةٍ مرتفعة بين جبلين شاهقين في العلو وهي في مركز حصين جداً اذ لا يُستطاع الدخول اليها الا من طريق ضيقة وقعت بين غاب وغدير

وفيما كانت المنصورة مارة فوق المدينة شاهد السواح شيخاً محمولاً بقوم خيالة وهو متسربل بثياب ذات الوان باهرة وامامهُ مزمرون وقوم مُسرعون يزيحون الاغصان لئلا تعيق مسيره في الطريق

فنزل العلامة قليلاً ليتأمل هؤلاء الاقوام عن قرب ولكن كلما دنت منهم القبة الهوائية لاحت على وجوههم امارات الدهشة والهلع ولم تمضِ برهةً

ألا احدوا في العدو على قدر خفة حيلهم

اما الشيخ فلبث وحده منتصباً قائماً ولم يتحرك من مكانه ثم اخذ قرابينهُ واذخرها وجعل ينتظر متنظراً فدنا منهُ فرغوس الى نحو مائة وخمسين قدماً وقرأه السلام بالعربية

فعند ما سمع الشيخ هذا السلام السماوي خرَّ ساجداً على الحضيض ولم يستطع العلامة ان يلهيهُ عن السجود

فقال العلاَّمة : انهُ لمن المستحيل ان لا يعتبرنا هؤلاء الاقوام بمنزلة خلائق فائقة الطبيعة حيث ان الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد قد حسبوا من نسل فائق الطبيعة البشرية واذا ما حدّث الشيخ الساجد لنا قومهُ وخلانه عن هذه الصدفة الغريبة فلن يقصر عن تعظيمها ودحرجتها وتجود لهُ القريحة العربية بتصوراتها المدهشة وهكذا يأتي يوم تحكي فيه الحكايات العربية عنا على اساليب شتى

قال الصياد· هذا مما لا يسر الخاطر لاننا اذا زعمنا في تمدن هؤلاء الاقوام فالاجدر بنا ان نشتهر عندهم اناساً وهذا من شأنه ان يجعلهم يحالون حسناً ماهية قوة التمدن الاوربي

قال فرغوس· سلمت معك في هذه القضية ولكن ما هي حيلتنا في ذلك فانك تتعب باطلًا اذا اردت ان تشرح لعلماء هذه البلاد عن آلات القباب الطيارة فلا يدركون كلامك ويصرون على زعمهم ان ما رأوهُ فائق الطبيعة

فقال يوسف : سيدي قد اشرت الى الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد فهل تتكرَّم علينا بذكر اسمائهم

قال فرغوس : اعلم يا صديقي اننا سائرون الان في الطريق التي سلكها

الضابط دنهام وقد اقتبلهُ سلطان مندارا في بعض مصمية كان بابن مملكة البرنو ولحق يغرو نشيج على قبيلة الفلاحين وحصر هنالك محاصرة المدينة فلم تنفع بواريد الشيخ اصلًا بل تبدد هو وجنوده بقسي الفلاحين فانتهز هؤلاء فرصة النصر ليستلوا سيف الانتقام وجرحوا يقتلون اعداءهم وينتهبونهم ويسلبون اموالهم وقد جردوا الضابط دنهام من اثوابهِ ولو لم يحتمِ تحت بطن حصانهِ ويعدو به عدو خيل السباق لما رجع اصلًا الى مدينة كوكا عاصمة البرنو

قال يوسف: ومن ترى كان الضابط دنهام

قال فرعوس: كان انكليزيًا ذا شجاعة وبسالة وقد جال معهُ فرقة رطاف الافريقية من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٢٤ قاصدًا مملكة البرنو وذلك بمعية القبطان كلابرتون والعلامة أودني فرحلوا من طرابلس الغرب في شهر اذار ووصلوا الى مورزوق قاعدة فزان وساروا في الطريق التي سلكها فيما بعد المعلم برث بعد ما قصد الرجوع الى اوربا ثم وصلوا الى كوكا بالقرب من بحيرة شاد في ١٦ شباط سنة ١٨٢٣ . وقد اكتشف دنهام اشياء كثيرة في مملكتي البرنو ومندارا وعلى شطوط البحيرة الشمالية وفي غضون ذلك اي في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٢٣ تقدم القبطان كلابرتون والعلامة أودني الى داخل السودان حتى بلغا صقاتو وقضى أودني نحبهُ في مدينة مُرمُر وهو عيان من التعب والضنك

قال ديك . فقد ادّت اذًا هذه البلاد الى العلم خراجًا جزيلًا بالضحايا النفيسة التي ضحت فيها

قال فرعوس . نعم يا خليلي فان هذه البلاد بلاد سوء والشؤم حالٌ فيها فيها اننا سائرون الان بخطٍ مستقيم الى مملكة برغمي التي قطعها فوجل سنة ١٨٥٦

قصد الدخول في مملكة واداي وهناك اختفى ولم يُعرَف له اثر وقد أرسل ذاك الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة فقط ليساعد العلاَّمة برث في اشغاله وقد تلاقيا معاً في الواحد من شهر كانون الاول سنة ١٨٥٤ ثم طفق فوجل يستقرئ عن تلك البلاد وفي سنة ١٨٥٦ ارسل كتباً وذكر فيها رغبتهُ في الدخول الى مملكة واداي والبحث عنها حيث لم تدسها بعد قدم اوربية فالظاهر انه بلغ وارة عاصمة واداي فمن الناس من قال عنهُ انه أُسر هناك ومنهم من قال انهُ قتل اذ حاول الصعود الى جبل مقدس. غير انه لا يسوغ ان يسلم حالاً في موت المسافرين لان هذا يصد عن طلبهم فكثيرًا ما شاعت الاخبار الرسمية عن وفاة العلامة برث فسببت له هذه الاشاعات حنقاً وغضباً . فمن الممكن اذًا ان يكون فوجل أُسر عند سلطان واداي طمعاً في فديته. فعزم البارون دي نيس على الذهاب الى واداي فماتهُ المنيـــة في القاهرة سنة ١٨٥٥ واما الآن فتوجهت جوقة سواح من ليبسيك ومعهم العلامة دي هكلين وقصدوا وجود اثر لفوجل وعن قريب يتضح لنا ما كان نصيب ذاك الشاب الشجيع(١)

ثم توارت مصعبية عن انصـــارهم وظهرت لهم بلاد مدارًا الجزيرة لخصب والريحان ومنها غابات الأقاقيــا والماش ذات الزهور الحمراء وبانات القطن والنيل. وهناك تجري مياه نهر شاري المزبدة وهو لا يصب الاَّ في بحيرة شاد عن بعد ثمانين ميلاً من ذلك المكان

فاخذ العلامة يدل رفيقيه على ذلك النهر في الخارطات الجغرافية المرسومة من المعلم برث

---

(١) من بعد ان تمت رحلة العلامة فرغوسن وردت الرسائل من الصيدية وهي موجهة من مدمحر رئيس الجوقة الجديد ومنها أُنعي الخبر المشؤم عن وفاة فوجل ـــ هذه الدنيا

وقال لهما. رأيتما يا خليليَّ ان ابحاث هذا العالم الحاذق هي في غاية الدقة والضبط لانا سنسير بخط مستقيم الى اقليم لغوم وربما الى قرناق عاصمته وهنالك كان سياح احد الانكليزيين المدعو تول وهو بالغ من العمر نحو اثنتي وعشرين سنة فقط وهنا كان قد لحق بالضابط دنهام في افريقية منذ بضع اسابيع فما لبث ان صادف فيها المنية . فتعساً وويلاً لهذه البلاد المشؤمة فانه يحق يقال عنها انها مدفن الاوربح

فشاهد السواح بعض القوارب نازلة في مجرى نهر شاري وهي تبلغ من الطول نحو خمسين قدماً واذ كانت المنصورة عالية عن الارض نحو الف قدم لم تجذب اليها التفات السودان. اما الريح فبعد ان كانت شديدة الهبوب اخذت تنقص وتخف شيئاً فشيئاً

فقال العلامة وهل ترى يحيينا الرواق كما في سابق الزمان

قال يوسف لا بأس من ذلك اذ لا عدنا نخشى بعونه تعالى لاقلة الماء ولاهول الصحراء

قال العلامة عليـنا ان نخشى اقواماً بربرة فاقوا قساوة وفظاظة

قال يوسف: هوذا شبه مدينة

قال العلامة: انما هي مدينة قرناق وارى ان النسيم يدفعنا اليها فاذا شئنا رسمنا هيئتها وفصولها

قال ديك: وهلاَّ نقترب من الارض

قال العلامة: هذا امرٌ سهل لانا نحن فوق المدينة دعني ارم قليلاً لولب القصبة فلا نلبث ان نأخذ بالنزول

فبعد مرور نصف ساعة وقفت المنصورة فوق المدينة بلو مائتي قدم

قال العلامة: انا اقرب الى المدينة من انسان واقف على قمة كنيسة

القديس بولس ومتفرج منها على مدينة لندرة يمكننا اذا التطلع على خاطرنا

قال ديك: اني اسمع صوت مطارق فما عساها تكون

فجعل يوسف يحدج بصره ويشدد نظره فراى ان تلك الضجة صادرة من الحياكين الكثيرين الذين يطرقون نسيجهم الممدود على ارواط طويلة وذلك في وسط الساحات

فرأوا عاصمة لقوم كانها على سطح مبسط ويحق لها اسم مدينة لان بيوتها متساوية الصفوف وطرقها عريضة وكان سوق الصيد قائماً في ساحة فسيحة وسط المدينة وهناك مشترون كثيرون لان الصدات المداريات ترغب كثيراً وتباع بقيمة وافية

فبعد ما نصروا بالمصورة اصابهم ما اصاب غيرهم قبلًا اذ انهم شرعوا اولًا بالصحيح ثم اتبع ذلك الصحيح سكوت الدهشة العظيمة وتركت الاشغال ووقفت وزال صوت المطارق اما السواح فما برحوا واقفين لا يتحركون وهم يتأملون اولئك الاقوام الكثيرين ثم نزلوا ايضاً نحو ستين قدماً

فخرج حينئذٍ والي بلاد القوم من مقرّه وهو حامل راية الخضراء ومعهُ اصحاب الموسيقى الذين كانوا يضربون في ابواق من قرون الجاموس ذات صوت أبح ثم احاق به قومهُ وحاول العلاّمة ان يسمعهم صوته فلم يطق ذلك

وكان لذلك الشعب جبهة عالية وشعر مجعّد وانف أقنى وهم متصفون بالمعرفة ولايخلون من الذكاء والفطنة ولكنهم مضطربون لظهور المصورة . ثم تحقق السواح ان جنود الوالي لبدوا في الاحتشاد والتأهب لمحاربة عدوّ لم يسبق له مثيل اذ شاهدوا الخيالة يتسابقون في الخيل ويعدون الى الخلاء شتى فنشر يوسف الرايات المشكلة الالوان فلم يحظَ بنتيجة البتة

ثم مضت فترة وطلب الشيخ الى قومهِ ان يصغوا له فخطب خطبة بالعربية

المروحة بلغة البحيري فلم يفهم العلامة ولا كلمة واحدة لكنهُ علم بلغة الوماء العمومية ان الوالي يدعوهُ للذهاب دعاء صريحاً . فودّ العلامة الذهاب ولكن لم توافقهُ الريح ولم يستطع الحراك من مكانهِ فاغتاظ الوالي من هذا الرسوخ واخذ زعماؤهُ ورجالهُ يعزّون ويصخبون ليحملوا الوحش الجوي على الانطلاق

في الحقيقة كان هؤلاء الزعماء مما يوجب الاستغراب والاعجاب فانهم متدثرون على جسدهم بخمسة او ستة قمصان ملونة وبطونهم بليغة كبرًا انتفاخاً وبعضها ترى كانها مصنعة ومحض حشو . فقال العلامة لرفيقيهِ ان هذه الهيئة واسطة عدمهم لمراضاة السلطان والتحول في خاطره ودوار الظن مما يدل عدمهم على الطمع . فكان هؤلاء الناس الضخام يتحركون ويومون بالايدي ويصرخون ويصخبون وخصوصاً واحد منهم كان صخماً جداً فظن به انهُ وزير اول في تلك الولاية لان الضخامة كما قيل لها اعتبار عظيم في تلك الديار

وكان الصيد السود ايضاً يصخبون مع ارباب الحكومة ويتحركون كالسعادين وبالجملة كنت ترى نحواً من عشرة آلاف ذراعاً مرتفعة ومتحركة باضطراب الجنون

فلما رأوا ان حركاتهم لم تجدِ نفعاً بل ذهبت هدرًا وعدوهم راسخ لا يتأثر منها جعلوا يتمسكون بوسائط افعل فاصطف الجنود المتسلحون بالقوس والنشاب قاصدين رشق القبة بالسهام الآلات المصورة اخذت حالًا بالارتفاع لئلا يصيبها ضرٌ من القسي فاخذ الوالي حينئذٍ قرابينة ووجهها نحو القبة الهوائية فلما رآهُ ذلك مستعداً لاطلاقها وهو اذ ذاك يرصدهُ رماه برصاصةٍ فكسر السلاح بين يديه

فعند هذه الضربة الغير المنتظرة اضطرب الكبار والصغار وتفرقوا طرائق وولوا الادبار هلعاً ووجلاً ودخل كلٌ كوخه فمضى النهار باسره ولم يظهر احدٌ

منهم البتة بل اصبحت المدينة خاوية خالية كالصحراء

ثم جن الظلام ودخل الليل ولم تهب الريح مطلقاً فاضطر العلامة الى ان يلبث قائماً بلا حركة فوق الارض علو ثلاثمائة قدم ولم يرَ وراً يصي. ظلام الاكواخ والبيوت بل كان السكوت المطلق مستولياً على المدينة كي بادية مقفرة فحسب العلامة من هذه النصتة مخاخاً يجب التحذر منه فضاعف انتباهه وسهره

وقد اصاب حق الاصابة في حدسه وسهره لانه ما انتصف الليل الّا ظهرت المدينة كأنها شعلة متأججة ناراً واخذت الخطوط النارية تتصلب كالشبكة وكأنك بالمدينة قد لبست حلة النار وتشعت شعتها في الافاق

فقال العلامة : هوذا امر غريب فيه العجب العجاب

قال ديك : سامحني الله فكاني ارى الحريق يتصاعد الينا

وفي الحقيقة كانت تلك الحلة الملتهبة والمتأججة ناراً ترتفع نحو المنصورة والاصوات المصخبة مرتفعة معها والقرابينات تطلق في الجو فتأهب يوسف لان يلقي ثقلًا رغبة في الارتفاع وما مضت برهة الّا فهم فرغوسن واقعة الحال

فان هؤلاء الاقوام كانوا قد ارسلوا حماماً بعد ان علقوا في اذنابها مواداً مشتعلة فلما احست بالنار اخذت تطير هرباً منها وارتفعت في الجو وهي تخط تلك الشعاب السارية . فجعل ديك يطلق الرصاص على قدر مكنته ولكن اعداوه كثيرون لا يحصون عدداً فكانت الحمام قد بلغت القبة واحاقت بها فشوهدت جوانب المنصورة كأنها في شبكة ملتهبة من جرا سطوع النور عليها

فما تمالك فرغوسن ان رمى قطعة معدنية ثقيلة وارتفع حالًا بسرعة فوق تلك الطيور الخطرة وقد حامت الحمام تحت اقدامهم نحو ساعتين من الزمان وهي

طائرة الى انحاء مختلفة . ثم اخذت تخف وتنقص رويداً رويداً الى ان توارت عن البصر بالكلية وانطفت نارها

فقال العلامة : الان يمكنا الرقاد راحة

قال يوسف : ان هذا العسكر مدهش ويدل على حذق عند هؤلاء البرابرة

قال العلامة . ان كثيرًا ما يستعملون الحمام لاحرق القش المنطاة به اكواخ القرى واما قريتنا فطارت وعلت عن حمامهم

قال ديك حقاً ليس للقباب الطيارة اعداء يتحكمون من مضرة اصحابها

قال العلامة : بلى يا صديقي

قال ديك : ومن عساهم يكونون

قال العلامة : انما هم اصحابها القليلوا الفطنة الذين يركبونها ولهذا احثكما يا خليليّ على التيقظ والفطنة فان الفطنة لا بد منها في كل امر

## الفصل التاسع والعشرون

في الارتحال في الليل والكلام عن حر الشاري وبحيرة شاد ومنها ورس النهر واطلاق الرصاصة عليه عبثاً

ولما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك قائم في حراسة رفع زي المدينة آخذة في الابتعاد عنهُ وسارت المصورة في الجو واستيقظ حينئذٍ العلامة والصياد معاً

فتطلع فرغوسن في البوصلة وعرف ان الريح تدفعهُ الى شمال الجهة الشرقية فطاب منهُ الخاطر

فقال ان نجم سعدنا مقبل معنا وقد نجحنا في كل مسعى وسنكتشف اليوم بحيرة شاد نفسها

فسأل ديك قائلاً وهل هذه البحيرة فسيحة كثيراً

قال فرغوسن انها عظيمة جداً يا صديقي ديك واذا قيست في طولها وعرضها الاكبرين بلغت مائة وعشرين ميلاً

قال ديك انا نغير المنظر بسيرنا فوق بساط مائع

قال فرغوسن ناهيك بالمناظر والمشاهد الكثيرة التي تراءت لاعيننا في رحلتنا هذه فليس لنا باعث للتشكي وعلى الخصوص من حيث اننا تنزهنا عن المخاطر الجسيمة

قال ديك نعم يا سيدي فرغوسن ما خلا اعتياضنا من الماء في قلب الصحراء فلولاهُ لما عددنا واقعة واحدة خطرة في رحلتنا كلها

قال فرغوسن ان مصورتنا عافاها الله حافظت على متانتها ولم يطرأ عليها طارئ فها نحن الان في اليوم الثاني عشر من شهر ايار وقد رحلنا في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان فيكون قد مشينا خمسة وعشرين يوماً وان

شاء المولى سنصل بعد عشرة ايام

قال ديك والى اين الوصول

قال فرغوس الى حيثما شاء ربك ولكن هذا لا يهمنا كثيرًا

قال الصياد اصبت فلندع العناية الربانية تامًا الى حيث شاءت معافين صحيحين كما نحن الان لعمري لاينبغي علينا انا عرفنا البلاد الاكثر وباء من العالم

قال فرغوس . ولكن كان في استطاعتنا ان نرتفع الى العلو لنخرج من وبائها وهذا ما عملناه

فصاح يوسف وقال . حيّ الله الاسفار الجوية فها انا سرنا في هذه الرحلة مدة خمسة وعشرين يومًا ونحن في صحة تامة وراحة وانشراح ولم نخلُ من الاطعمة الطيبة غير اننا حرنا راحةً زائدة للحدّ ولذا احسُّ ان ساقيّ آخذتا في التخدر لقلة الحركة وحبذا لو مشيت مسافة ثلاثين . ميلًا لانتعش واتقوّى

قال العلامة . مهلًا ستفعل ذلك في ارقة لندرة . ثم اعلما ياصديقيَّ اننا سافرنا ثلاثة كما سافر دنهام وكلابرتون واوفرويك وكما سافر ايضًا برث وريشردسون وفوحل واما نحن فلنا حظ وسعد اعظم اذ لم يفترق منا احد ويهمني ان نبقى ثلاثتنا سوية فلو لا سمح الله بذلك حدث مرة ان واحدًا منا يكون على الارض واضطرت المنصورة الى الارتفاع تخوفًا من خطر فجائي غير منتظر فمن يعلم ان كنا نتمكن من الاجتماع عليه ولهذا اقول لديك بحرية تامة اني لا اود كثيرًا في ان ينطلق الى الصيد خوفًا من مثل تلك الرزية

قال ديك : ولكن اؤمل ان تسمح لي بذلك لانهُ ينفصنا تجديد زاد اللحم فضلًا عن انك قبل ان نسافر قلت لي ان البلاد الافريقية بلاد صيد

وفيها من كل ما يروق للخاطر وها قد جزنا اكثر الطريق ولم اصطد شيئاً ذات اهميــة

فقال العلامة: الظاهر يا صاح انك نسيت ما فعلت او بالاحرى لا يدعك اتضاعك ان تتذكر ما اتيت من الاعمال المستحقة الذكر الجميل أليست ذمتك مثقلة بزرافة وفيل واسدين فضلاً عما ذكرت تصطاده للطعام في كل فرصة ولم يكن قليلاً

قال ديك: وهل يُحسب هذا للصيــاد الافريقي الذي يرى حيوانات الخليقة كلها تمر امامهُ مرور الطير والعصفور في بلادنا

وهنالك الآن سربة من الزرافي

قال يوسف: أظن ان هذه زرافي فاني اراها صغيرة لا تزيد حجماً عن قبضة الكف

قال العلامة: ليس ذلك الّا لاننا نبعد عنها الف ميل ولمّا اذا دنوت منها شاهدتها تعلوك ثلاث مرارٍ

قال ديك. وما قولك عن هذه الغزلان وتلك النعائم التي تجري جري الرياح

قال يوسف: وكيف تقول انها نعائم فاني لا اميزها قطعاً عن الدجاج اذ لا فرق بينها اصلاً

قال ديك: ألا يمكنا الاقتراب يا سيدي صمويل

قال العلامة: نعم يمكننا الاقتراب ولكن لانستطيع النزول الى الارض فوالحالة هذه لا أرى لك نفعاً باطلاق الرصاص على هذه الحيوانات فلو اردت قتل سبع ام نمر ام ضبعة لكان ذلك محتملاً فانها من الحيوانات المضرة واما الوعل والغزال فليس لك نفع من ذبحهما انما يغريك على ذلك حبك بالصيــد

بل فرط تولعك فيهِ ومع هذا فها انا دنو من الارض حتى لاتعلوها الاعلو مائة قدم فاذا صادفت حيوانًا كاسرًا رميتهُ برصاصةٍ في قلبهِ فيقرّ سلك الخاطر

ثم اخذت المصورة في النزول رويدًا رويدًا ووقفت في العلو المومأ اليهِ لئلا تدهمها داهية لان اهل تلك البلاد كثيرون ومتوحشون ويخشى على المسافرين من خطرٍ فجائي

وما انفكّ السوّاح طائرين فوق مجرى نهر شاري وسواحل هذا النهر منطاة من الاشجار المتسعة الاجناس ونباتات كثيرة ذات الوانٍ متنوعة. والتماسيح منها ما تختبط على الرمل ومنها ما تغطس في المياه تغرق وتتنزه فيها وتتظاهر بعد قليل شط الجزائر الخضراء القاطعة جريان النهر

وهكذا مرّ السوّاح بمقاطعة معاتاي بين الخضار والنضارة الطبيعية وعند الساعة التاسعة صباحًا وصلوا الى شط بحيرة شاد الحلوي وهذه البحيرة تشبه بحر قاف لانحصارها في اليابسة وانفصالها عن البحر المحيط وطالما قد أدخل ذكرها في سلك الخرافات والحكايات التي لا اصل لها ولم يكتشف عليها سوى دنهام وبرث في رحلاتهما الافريقية

فحاول العلامة ان يأخذ رسمها الحالي المختلف كثيرًا عن رسمها المأخوذ سنة ١٨٤٧ وفي الحقيقة لايمكن تسطير هيئة تلك البحيرة فانها محاطة ببطاح موحلة يشق عبرها وكاد برث يهلك فيها عند ما اراد ان يقطع امداها ولا تمضي سنة على سنةٍ حتى تصبح تلك البطاح المغطاة بالقصب ونبات البرديّ الطويل قسمًا من البحيرة نفسها وكثيرًا ما تعم المياه بعضًا من البلاد المبنية على ساحل البحيرة كما جرى في مدينة نغرنوسة ١٨٥٦ فشاهدوا الغرانق اي حمارير الماء تغطس في المكان الذي قامت فيهِ قبلًا مساكن مملكة البرنو

وكانت الشمس ساكبة اشعتها المنيرة على تلك المياه الصافية الهادية اما

في الجهة الشمالية فيرى المصران مختلطين في افق واحد

ورغب فرغوس في ان يحقق طبيعة الماء الذي طالما قيل عنه انه مالح وحيث ليس خطر في الدنو من سطحه دونت المصورة فوقه كالطير وعلت عن البحيرة نحو خمسة اقدام فقط

ثم تناول يوسف انية ودلاَّها الى البحيرة فملأها ماء ثم ذاقه العلامة ورأى انه لا يصلح كثيراً للشرب وله طعم يشبه طعمة الطرون

فبينما كان فرغوس يسطر نتيجة اختباراته وامتحاناته قد دوت في الافاق طلقة الرصاص فان ديكاً كان قد شاهد بريقاً حسناً فلم يطق اصطباراً وكان البريق في رواق تام فلما احس مدويّ الرصاص ضرب في الماء وكأنه لم يضطرب من رصاصة الصياد

قال يوسف . كان الاوفق لو مسكناه بخطاف

قال ديك . وما هو خطافنا

قال يوسف . انما هو احدى مراسينا فانها كثيرة الموافقة لهذا الحيوان

قال ديك في الحقيقة هذا رأيٌ .

قال فرغوس : هذا رأيٌ ارجوان لا تعدوه لانا لو مسكنا هذا الحيوان بمرسانا لجرنا حيث لا يروق خاطرنا

قال يوسف ما ! ! وله فانا علمنا الان كنه ماء البحيرة وكفى . ولكن هل يؤكل هذا السمك يا سيدي

قال العلامة ان سمكك هو حيوان من جنس الفيلة وقد قيل ان لحمه لذيذ ويتاجر به كثيراً سكان سواحل هذه البحيرة

قال يوسف : آه لو اصاب صاحبي ديك في ضربته

قال العلامة . لا يمكن جرح هذا الحيوان الا في بطنه وبين افخاذه فربما لم

تجرحهُ قط رصاصة الصياد ولكن اذا وافقني المكان فاني احطُّ على جهة البحيرة الشمالية فهناك منزل الوحوش وعلى ذلك ان يفعل ما يشاءُ خاطرهُ

قال يوسف . اودُّ ان يصطاد ذلك بعضاً من هذه الزرافة لاذوق لحمها فانهُ ليس من الصواب ان يدخل الانسان قلب افريقيـــة ويعيش فيها مقتاتاً بلحم دجاج الغاب واجمال البرية كما في بلاد الانكليز

## الفصل الثلثون

### في عاصمة البرنو وظهور الواشنق ومبارحتها المنصورة وما اظهر يوسف من الغيرة الفائقة عند احتراق غطاء القبة

وبعد وصول المنصورة الى بحيرة شاد صادفت ريحًا مائلًا الى الجهة الغربية وقد تجللت السماء بغيم خفف حرارة النهار ولم تحلُ الريح من الهبوب فوق تلك المسافة الفسيحة المائية وبعد الساعة الواحدة قطعت المنصورة قسمًا من البحيرة بخطٍ منحرف وتقدمت الى فوق الارض بمسافة سبعة او ثمانية اميال

فساء العلامة اتجاههُ نحو تلك الناحية ولكن لما شاهد مدينة كوكا الشهيرة وهي عاصمة مملكة البرنو قلب كدرهُ الى سرور فاخذ ينظر الى تلك المدينة المحاطة بجدرانٍ من تراب الفخار وبيوتها المبنية على شكل زهر اللعب وجوامعها القليلة الاتقان واشجار النخل والصمغ المكللة بطاقةٍ من الاوراق البالغة عرضًا اكثر من مئة قدم والنابتة بين البيوت وفي الساحات العمومية . فقال يوسف : ان تلك المظال مناسبة جدًا لتلك المحال نظرًا لاشتداد حرارة الشمس فيها وخلص من ذلك نتائج تشير الى حسن العناية الالهية

وكوكا مؤلفة من مدينتين ممتازتين الواحدة عن الاخرى وتفرقهما طريق واسعة جدًا يبلغ عرضها نحو خمسمائة وثمانين مترًا وتعرف عندهم بالدندال وكانت وقتئذٍ غاصة بالخيالة والمشاة

فمن الجهة الواحدة ترى المدينة غنية ذات دور مرتفعة ومن الجهة الثانية ترى الفقر حالاً فيها وبيوتها لا تمتاز عن الاكواخ الحقيرة وسكانها فقراء جدًا لان كوكا ليست بمدينة تجارية ولا صناعية

وقد شبهها ديك بمدينة ادمبرج اذا امتدت في سهلة واسعة وانقسمت الى مدينتين متفرقتين الواحدة عن الاخرى

ولما كانت مهبات الرياح في تلك الناحية متقلبة جدًّا قد هبت ريح شمالية دفعت المنصورة الى ما فوق بحيرة تشاد بعد ان سارت اربعين ميلًا فما كاد يتمكن السواح من مشاهدة تلك المناظر

فتراءى لهم حينئذٍ مشهد جديد وهو جزائر البحيرة الكثيرة التي يسكنها البيديوماه وهم قرصان مشهورون يخشى منهم في تلك النواحي كما يخاف من الكواسر في الصحراء

فتأهب هولاء القرصان لاستقبال المنصورة بالقسي والحجارة. اما المنصورة فارتفعت عن تلك الجزائر وحامت فوقها كجناحٍ عظيم

ففي تلك الساعة ارشق يوسف طرفه الى جهة الافق ثم قال الى ديك: سيدي ديك انت الذي تلهج بالصيد ليلًا ونهارًا هوذا ما يعجب خاطرك ويقضي وطرك

قال ديك: وما هو يا يوسف

قال يوسف: اظن ان سيدي لا يكون هذه الدفعة من الخائبين لك في ضرب الرصاص

قال ديك. احك اذًا وما هو

قال يوسف: أترى في تلك الناحية البعيدة فرقة الطيور الجسيمة المتجهة نحونا

فمسك العلامة منظرتهُ وقال ما عساها تكون هذه الطيور

قال ديك: بصرتها بصرتها فانها تبلغ اقلها يكون الاثني عشر

قال يوسف: اظنها بالغةً اربعة عشر

قال ديك: أسأل المولى ان تكون هذه الطيور من المؤذيات لئلا يجد فرغوسن حجةً عليَّ ويمنعني عن ضربها بالرصاص

قال وغوسن · ليس لي اذ ذاك كلام اقوله لك انما اخشى ان هذه الطيور تبتعد عنا بالكلية

قال يوسف · وهل تخاف منها

قال العلامة : انها نواشق من الجنس الكبير واذا وثبت علينا · · ·

قال يوسف · فاننا ندافع عن انفسنا لان الرصاص والبارود عندنا كثير جدًّا ولا اظن تلك النواشق مخيفة جدا

قال العلامة · ومن يعلم بذلك

فما مضت عشر دقائق الَّا اقتربت الفرقة من المنصورة عن بعد مسافة طلقة رصاص لكنها كانت تصيح وتعزّ بصوتٍ أبحّ ولا زالت تتقدم نحو المنصورة كأنها مغتاظة منها ولم يعترِها ادنى وجل ولا اهتمام

قال يوسف · ما هذا الصراخ والضجيج ارى انهُ يسوءها تسلطنا على ملاكها وطيراننا طيرها

قال ديك : في الحقيقة ان هيئتها مرعبة جدًّا واظن انها كانت ترمي الهول لو تسلحت بالقرابينة التي اخترعها بوردي مور

قال العلامة كن على يقين انها ليست باحتياج الى تلك القرابينة

فاخذت النواشق تطير وترسم في طيرانها دوائر متسعة جدًّا ثم حامت بالقرب من المنصورة وكانت تحط السماء بسرعة طيرانها وتندفع اندفاع قلل المدافع وترجع الى الوراء رجوعًا بغتيًّا

فشمل قلب فرغوسن القلق والاضطراب من هذه الطيور ولذا عزم على الارتفاع في الجو هربًا من حوازم الملاحظرًا

اما النواشق فلم يخطر بخاطرها ان تترك القنة الهوائية بل اتبعت اثرها الى الاعالي

فادحو الصياد سلاحهُ وقال . أرى انها تودّ مناطرتنا

وفي الحقيقة كانت تقترب من السواح فيها ما دنا نحو خمسين قدماً وكأنها تستخف بأسلحة الصياد

فقال ديك اني ارغب كثيراً في ان اضربها بالرصاص

قال العلامة . كلا يا ديك لا تورثنَّ نار غضبها وهيجانها بلا سبب فانها تحثها بالرصاص على مناطرتنا والوثوب علينا

قال ديك . ولكني لا اخطئ في ضربي الرصاص

قال العلامة أظن ذلك يا ديك فانك في خطاء مبين

قال ديك عندنا لكل منها اكثر من رصاصة

قال العلامة . واذا لا سمح الله وثبت على جهة القبة العليا . فكيف يبلغ اليها رصاصك واحسب انك امام فرقة من الاسود في البادية او تقابلة كلاب بحرية في قلب المحيط فان مثل ذاك الخطر يضاهي خطرنا في الجو

قال ديك . أتتكلم بجد

قال نعم يا ديك وبجدٍّ جادٍّ

قال ديك . والحالة هذه فلنتظرنَّ برهةً

قال العلامة انتظر برهةً وكن على اهبةٍ اذا وثبت علينا ولكن اياك ان تطلق رصاصةً قبل ان املك امري

ثم احتشدت الطيور بالقرب من المنصورة وكانت اذ ذاك مسلوحة الحنجرة من شدة صراخها وعرفها العصفور في مرتفعٌ تنجرف وعليهِ علوات ذات لون سمنجي ويبلغ طول جسمها اكثر من ثلاثة اقدام واجنحتها متلالئة من اسفل باشعة الشمس المضيئة ولها مشابهة عظيمة مع الكلاب البحرية

فلما شاهدها العلامة تلحقهُ الى الاعالي قال اني اراها تتبعنا ومهما

ارتفعا الى شرفٍ فانها تعلونا كثيرًا

قال ديك. فما الحيلة اذًا وما العمل

فلبث العلامة صامتًا وما تفوَّه ملفظة

فاردف الصياد كلامهُ وقال: صغ لي سمعًا ياسيدي صموئيل فان هذه الطيور تبلغ الاربعة عشر ونحن عندنا سبع عشرطلقة رصاص فاذا صرفناها بها هلاً نقتل اما نفنيها كاس الموت ولك ان تعتمد عليَّ بجانب منها

قال العلامة. لا ريب عندي في حذقك ومهارتك واؤكد لك ان الطيور التي تقع هدفًا لرصاصك تذهب فريسة الحمام ولكن اقول لك تكرارًا انها اذا وثبت على دائرة القبة العليا فكيف يصيبها رصاصك وسلاحك والحال تمزع هذا الغطاء الذي يحملنا فنهوي في لجة عميقة لجة الهلاك اذ انا بعيدون عن الارض مسافة ثلاثة آلاف قدم

وفي تلك الفترة دنا احد هولاء البواشق الاكثر توحشًا ووثب على الصورة ومخالبهُ ومنقاره اذ ذاك مفتوحة متأهبًا لان يمزق القماش الحريري

فقال العلامة: النار النار ياديك

فما فاه بهذا الكلام الّا أُصيب الباشق برصاصة الصياد فسقط وهو يدور في الجو

وقد كان الصياد امد البارودة ذات الطلقتين ومسك يوسف البارودة الثانية

فلما دوى صوت الرصاص شمل قلب الطيور الرعدة والهلع وتنحت قليلًا ثم عادت بعد برهةٍ وامارات الغضب لائحة على اطوارها فرمى ديك في الحال الطير القريب برصاصة اصابت عنقهُ وضرب يوسف طيرًا ثانيًا فكسر لهُ جناحيهِ

ثم قال: لم يبقَ منها سوى احدى عشر طيرًا

ففي الساعة والحال غيرت الطيور فيها في مهاجمة السواح وارتفعت جميعها متعانقة بواحد الى ما فوق المنصورة فنظر ديك الى فرغوس ورأى وجههُ قد علاهُ الاصفرار رغماً عن حماستهِ وجرأتهِ وقلة اكتراثهِ بطروق الحدثان واستولى على ثلاثتهم سكوت عميق مشوبٌ بالاضطراب والهلع ثم سمعوا صوت تمزيق اشبه بتمزيق القماش الحريري وفي الساعة هبطت مركبة السواح وكادت تفلت من تحت اقدامهم وتطرحهم ما بين السماء والارض

فنظر فرغوسن الى البارومتر ورآهُ يرتفع ارتفاعاً هائلاً فصاح صارخاً : القوا الثقل حالاً . القوهُ

ففي دهشة عين توارت الحجارة المعدنية الباقية في المركبة

قال . لا نزال نسقط وهوي . . اوعا صاديق الماء ايضاً . . ألا تسمع يا يوسف . . . ها انا واقعون في البحيرة

فادعن يوسف لامر سيدهِ ثم مال العلامة برأسهِ ورأى البحيرة كانها اتية اليهِ وترتفع الى العلو وشاهد الاشياء قد تعظمت في عينيهِ ووصلت القبة الى مسافة مائتي قدم فوق سطح البحيرة

فصاح العلامة قائلاً : القيا الزاد ولا تتركا منهُ شيئاً

ورمى الرفيقان الزاد مع صندوقه

فخفت سرعة السقوط ولكن ما برحوا ساقطين دائماً وهم فوق البحيرة

فصاح العلامة صيحة اخيرة : ما بالكما لا ترميان ارميا ارميا

فقال ديك : ما بقي عندنا شيء

فقال يوسف بعجلة : بلى

قال هذا ورسم على ذاتهِ اشارة الصليب وغاب متوارياً عن المركبة الجوية

فصاح العلامة مرتاعاً . يوسف يوسف

فلم يستطع يوسف على سماعهِ . ولما خفَّ ثقل المركبة انفكت عن الهبوط وارتفعت الى الاعالي نحو الف قدم وتغشأت الريح غطاء القبة المحروقة فدفعتها الى جهات البحيرة الشمالية

فقال الصياد ايسًا واسفاه عليهِ فانهُ وقع في لجة الهلاك وعدماه

قال العلامة اما هلاكه فكان لنجاتنا يا ديك

ثم ادرت عيون هذين البائسين دمعة سخينة لفراق خليلهما واشرفا على الارض ليجدا لهُ اثرًا فما وجدا لانهما ابتعدا كثيرًا

فقال ديك ما حيلتنا الآن وماذا ترى نستطيع ان نصنعهُ

قال العلامة . مرادي ان احط في الارض باول فرصة تمكني من ذلك

وبعد ان سارت المنصورة مسافة ستين ميلًا نزلت في موضع قفر في شمالي البحيرة وعُلقت المراسي في شجرة قليلة الارتفاع ثم حكمها الصياد تحكيمًا فدخل الليل وحاول الرفيقان الرقاد فلم يقدرا على ذلك

## الفصل الحادي والثلاثون

في ظنون السواح واصلاح موازنة القفة الهوائية وحساب العلامة

وصيد الصياد والاستقراء في بحيرة تشاد

ولما كان عند اليوم الثالث عشر من شهر ايار عرف السواح الجهة التي حلاً فيها فكانت شبيهة بجزيرة قائمة في وسط طحلة عظيمة وحول هذه اليابسة قصب كثير كأشجار اوربا يمتد على مدى النظر

وكان مركز المنصورة اميناً لا يخشى عليها من خطرٍ لان الطحلة صعبة الممر وما لزمهم ان ينتبهوا الا الجهــة البحيرة فان الما كان آخذاً بالاتساع خصوصاً في الجهة الشرقية ولا يُرى امامهُ ارض ولا جزيرة البتة

ولم يكن الرفيقان قد تجاسرا بعدُ على المحادثة عن خليلهم يوسف البائس وافتتح الصياد الحديث عنهُ واخذ يبث تحسياتهِ لرفيقهِ

فقال : على ظني ان يوسف لم يذق كأس الحمام فانهُ شهم شجاع نبيه وعارف فن السباحة بل قليل المثال به ولما عبر خليج ادمبرح لم يظهر عليــهِ ادنى ارتباك ولا شيء من الاضطراب ولا بد من ان نعود نراهُ ولكن لا علم لي كيف ومتى يكون ذلك . امَّا نحن فعلينا ان نبذل الجد والجهد ولا نهمل واسطة تمكنهُ من الاجتماع علينا

فقال العلامة بصوتٍ شجي اجاب الله سؤالك يا ديك فاننا نعمل ما في وسعنا لنجدهُ فلنهتدِ اولًا على مركزنا ولكن قبل كل شيء يجب ان نقلع عن القفة هذا الغطاء الخارجي الذي ليس لهُ نفعٌ فان وزنهُ يبلغ مائة وثمانيــة ارطال هذا لعمري ثقل جسيم نلقيهِ عنا

فابتدأ العلامة وديك بالعمل وفي اوّل الامر تحككا صعوبة كلية لانهُ لزمهما ان يقلبا القماش الحريري الصلب قطعةً فقطعة وان يجزءاهُ شققاً صغيرة ليخرجاهُ من بين خيطان الشبكة التي عليهِ وقد نظرا الى خرق البالون في الغطاء فكان كبيرًا جدًا

وقد استمرا في العمل نحو اربع ساعات ولكن لما تجردت القبة الداخلية من هذا الغطاء العظيم باتت غير محسوسة وكانت وقتئذٍ المصورة قد خفت من حمل ثقلها فتعجب ديك كل العجب من هذا الفرق الباهظ

فسأل رفيقهُ العلامة قائلًا . هل يمكن لهذه القبة الصغيرة ان ترفعنا الى الجو

قال العلامة : كن على طمأنينة وراحة بال من هذا القبيل لاني اصلح الموازنة واذا عاودنا يوسف اصدقاؤهُ معنا ورجعنا الى المسير في طريقنا حسب العادة

قال ديك : اظن يا سيدي صموئيل اننا لم نكن بعيدين عن جزيرة وقت سقطتنا

قال العلامة . نعم وانا اذكر ذلك واظن ان هذه الجزيرة كسائر جزائر بحيرة شاد يسكنها نسل قرصان وقتلة ولا بُدَّ انهم دروا بكبتنا واذا وقع يوسف بين ايديهم فاذا عسى يحل فيهِ ان لم يخالجهم اعتقاد باطل يصدهم عن قتلهِ

قال ديك : اقول لك انهُ ماهرٌ في جميع الحرف وانا واثق جدًا بفطنتهِ ولباقتهِ

قال العلامة : وانا ايضًا واثقٌ بهما واما الان ياديك فاذهب واصطد لنا ما يكفي زادنا لانهُ قد فرغ من عندنا كل شيء ولكن اياك ان تبتعد كثيرًا

قال ديك : على رأسي فلا اطيل عليك الغيبة

فأخذ ديك البارودة ذات الطلقتين وتقدم بين الحشيش المرتفع النابت في غابةٍ ليست بعيدة ولما سمع العلاَّمة بعد برهة تكرار دوي الرصاص تيقن ان صيده لا يخلو من ثمرة جيدة

وفي غضون ذلك اخذ العلامة ينظر الى ما بقي في المركبة وعزم على اصلاح موازنة القبة الصغيرة فرأى فيها نحو خمسة ارطال من اللحم المملح وقليلًا من الشاي والبن ونحو خمس ليترات من العرق وصندوق ماء فارغ

ولم يكن خافيًا على العلامة ان خسارة الادروجن الذي اتسرب من القبة الكبرى سبب لها نقصًا في قوتها الرافعة نحو تسعمائة ليرة انكليزية. فاتخذ العلامة هذا العرق اساسًا لهُ ليصلح الموازنة فان وسع المصورة الصغيرة سبعة وسبعين الف قدم مكعبة وهي تحوي ثلاثة وثلاثين الفًا واربعمائة وثمانين قدم غازٍ مكعبة ولما آلة لمداد الغاز فما زالت غير ممسوسة وصحيحة البنيان وهكذا المحكرة والانبوب الذي على هيئة الدرعي فانهُ لم يصبهما ضررٌ البتة

فبلغت اذًا قوة القبة الرافعة نحو ثلاثة الاف ليرة انكليزية فاذا جُمع ثقل السواح وزاد الماء والمركبة مع ضروريّاتها وأُضيف الى ذلك نحو مائتين وخمسة وعشرين ليترًا من الماء ومائة ليرة انكليزية من اللحم الرخص فيكون مجموع ذلك الفين وثمانمائة ليرة وبالحالة هذه يمكنهُ ان يأخذ معهُ ثقلًا يبلغ وزنهُ مائة وسبعين ليرة فيستعملهُ عند الحاجة وهكذا كانت القبة في موازنة تامة مع الهواء المحيط

فتمم العلامة بالعمل هذا النظام واقام مقام وزن يوسف ثقلًا زائدًا من الرمل وقد لبث منشغلًا الى ان ولى النهار بالادبار فعاد ديك الى رفيقهِ وقد صاد صيدًا وافرًا من الاوز والبط البري ودجاج الغاب وغير ذلك فهيأها جميعها واحماها في النار بادخال قضيبٍ رفيعٍ في كل قطعةٍ منها وتعليقها فوق حطب

اخصر مصرم بالنار وبعد ان تلحت بدرجة أعجبت خاطر ديك رفعها ووضعها في المركبة

وكان الصياد متأهباً لان يتمم المؤنة في الغد

ولما جن الليل على السائحين تعشيا لحماً مطبوخاً وكعكاً وشاياً وبعد ان اكلا جيداً من قبل التعب السابق استولى عليهما النعاس فناما وكان كلٌّ منهما سهراناً بالحراسة في دوره فكنت تراهما كأنهما يسألان الظلام متفحصين عن رفيقهما يوسف وكان يخال لهما احياناً انهما يسمعان صوتهُ ولكن واحسرتاه على هذا الصوت الذي تمنيا استماعهُ فانهُ لم يطرق آذانهما حقيقةً

ولما سطعت اشعة الشمس المنيرة ايقظ العلامة رفيقه ديك وقال له.

لقد اطلت الفكرة في ما ينبغي علينا فعلهُ لنجاة رفيقنا

قال ديك. قل يا سيدي فاني قابل برأيك قبل ان اعلمهُ

قال العلامة من الضرورة ان نطلع يوسف على اثرٍ من احوالنا

قال ديك لا بُدَّ من ذلك لانهُ اذا تصورانا تركناه فيستولي عليهِ اليأس والقنوط

قال العلامة: لاتظن مثل ذلك الظن فان يوسف يعرفنا حق المعرفة ومن المحال ان يطرقهُ فكر كهذا. غير انهُ يقتضي ان يعرف مكاننا ومقرنا

قال ديك: وكيف العمل

قال العلامة انا مزمعون ان نجلس في المركبة ونرتفع الى العلا

قال ديك. وعسى ان الريح تدفعنا الى ما ابعد فما حيلتنا حينئذٍ

قال العلامة. ان الريح لاتدفعنا الى حيث لانشأ تأمل مهبها الحالي فانها تدفعنا الى فوق البحيرة وهذا ما نرغبهُ الان ويوافقنا ونستدل ونسعى في ان نستقر فوق هذا البساط المائي طول النهار فلا شكَّ في ان يوسف ينظر

اليا حيث ان عينيه متجهتان دائماً الى العلو وربما يجد ايضاً وسيلة ليدلنا على مقره

قال ديك · اذا كان مقيماً وحده فانهُ يدلنا لا محالة

قال العلامة : ولنفرض انهُ أُخذ أسيراً فمن عادة هولاء الاقوام ان يحبسوا المأسورين في الاماكن الجهارية وعليهِ فانهُ يشاهدنا ويبهم غاية تفتيشنا

قال ديك · ولكن فلننظر الى سائر الاحوال ولنفرض اننا ما وجدنا له اثراً ولا وجد هو منا دليلاً فترى ماذا نصنع

قال العلامة انا نبذل جهدنا في ان نصل الى جهة البحيرة الشمالية ونلبث منظورين على قدر استطاعتنا وهناك ننتظر ونستقرئ السواحل والشواطئ فلا بدَّ ان يوسف يجدّ في الطلوع الى احداها ولا نترك تلك المحلات الّا من بعد جهدٍ كلي نبذلهُ حباً بهِ

قال الصياد · هيا بنا اذاً على الرحيل

فنظر العلامة مركز اليابسة التي ازمع ان يرحل منها فكانت بموجب رسومهِ في شمالي بحيرة شاد بين مدينة لاري وقرية أنجميي اللتين زارهما القائد دنهام وفي خلال ذلك اكل الصياد مصيدتهُ ولم يصادف في طريقهِ شيئاً من الوحوش الضارية التي تكثر في تلك البطاح

ولما كانت الساعة السابعة صباحاً نُشلت المرساة من الشجرة بتعب جزيل مع ان يوسف كان يرفعها دائماً بلا اعياء · ثم انتشر الغاز وارتفعت المنصورة الجديدة الى علو مائتي قدم عن الارض ففي اوَّل الامر اضطربت قليلاً ودارت على ذاتها لكنها دُفعت من ثمَّ بهبوبٍ شديد وتقدمت الى فوق البحيرة وهي تسير مسافة عشرين ميلاً في الساعة

فابرح العلامة واقفاً فوق البحيرة بعلوّ مائتين الى خمسمائة قدم وديك

يفزع احيانًا قرابيتهُ وكانا يأخذان بالوطوء فوق الجزائر ويقتربان كثيرًا من الارض بل يخاطران بنفسيهما ويستقربان باعينهما في الآجام والادغال وفي كل لطوة او صخرة كان يمكن ان يختبئ بها رفيقهما ونزلا مرارًا الى قرب القوارب الموجودة في البحيرة . فبعد ما كان يبصر الصيادون بالقبة الهوائية كنت تراهم يبادرون الى التطلس بالماء ويسبحون حتى يصلوا الى جزيرتهم وامارات الخزع والهلع لائحة على اطوارهم وهيأتهم

وبعد ان استقرأوا مدة ساعتين قال ديك : ما وجدنا شيئًا

قال العلامة : مهلًا يا ديك ولا تقطع الرجاء بعد الان فانا لسنا بعيدين عن مقرّ الحادثة

وعند الساعة الحادية عشرة تقدمت المنصورة تسمين ميلًا ومن ثمّ صادفت مهبًا دفعها الى الجهة الشرقية بمسافة ستين ميلًا وحامت وقتئذٍ فوق جزيرة متسعة كثيرة السكان حسبها العلامة جزيرة فرّام حيث توجد عاصمة البيديوماه وبعد كل اجتيازٍ كان يرجو فرغوس ان يسمع صوت يوسف ينادية فقال في نفسه عساهُ حرًّا لم تأسرهُ البرابرة فانا ننشلهُ بلا تعب ولا اعياء وهب انهُ اسير فسنعمل بشأنه ما فعلناهُ بذلك المرسل الفراري وهكذا يعود الينا بالسلامة

ولكن لم يسمعا صوتًا ولم يشاهدا لهُ اثرًا فكان ذلك مما يوجب اليأس والقنوط

وفي الساعة الثانية ونصف بعد الظهر وصلت المنصورة الى قبالة قرية تنغاليا الكائنة على جانب شاد الشرقي وهي النقطة الاخيرة التي بلغ اليها القائد دنهام وقت دخوله في بطون افريقية

فشمل قلب فرغوس القلق والاضطراب من جرى تداوم اتجاه الريح لانهُ

رأى انها دافعته الى الجهة الشرقية حيث مركز افريقيــة والقفار والبوادي التي لا نهاية لها ولا مناص منها

فقال وقتئذٍ لرفيقهِ ديك · لا بُدَّ من الوقوف هنا والنزول الى الارض وينبغي لنــا الرجوع الى البحيرة حبًا بصالح رفيقنا يوسف وقبل كل شيء . فصعد هبًا مخالفًا للمهبّ الحالي

فلبث مدة ساعة وهو ينتقل من طبقةٍ الى طبقةٍ في الجوّ وما انفككت المنصورة معرّجة الى الارض ولكن بعلوّ الف قدم صدمت ريحًا شديدة دفعتها الى شمالي الغرب

ولما عاد العلامة ورأى شاطئ البحيرة الشمالي أخذ يظن بنفسهِ ان يوسف ليس بموجود اصلًا في جزيرة من جزائر البحيرة والّا لقد كان اظهر ذاتهُ لرفيقيهِ باي واسطةٍ كانت ثم قال عسى ان الافريقيين ذهبوا بهِ الى البر

ولم يخطر قط بــال الرفيقــين ان يوسف ذهب فريسة الغرق لانهُ ماهرٌ في فن السباحة ولكن هنا طرقهما تصوُّر هائل وهو ان التماسيح كثيرة الوجود في تلك النواحي وقد اعترى هذا الفكر خاطر كليهما ولكن لم يتجاسر احدهما ان يكاشف بهِ الآخر بل انهُ دهمهما علنًا حتى ان العلامة ما تماسك ان قال بدون ديباجة لا تلبث التماسيح الّا على شواطئ الجزائر او البحيرة وليوسف فطنة كافية لتجنبها وهي ايضًا قليلة الخطر لان اهل ذلك البلد يسبحون في الماء ولا يخافون من وثباتها

فما فاه ديك بجواب بل آثر السكوت على المباحثة بهذا الامر المكدر

وبعد الساعة الخامسة مساءً اشار العلامة الى قرب مدينــة لاري ولما وصلا اليها شاهدا سكانها مشتغلين في حصاد الاقطان امام اكواخهم المبنيــة من القصب المجدول وسط حظائر طيبة ومنتظمة وكان مجموع تلك الاكواخ

السالفة نحو الخمسين واقعًا في ارض منخفضة في وادٍ متسع قائم بين جبـــال واطية . ودفعت الريح لشدتها منصورة السوّاح اكثر مما كان يرغب فيهِ العلامة ولكن لم تدم على ذلك الحال بل انقلبت مرةً ثانية وارجعتهُ الى مركز سفرهِ اي الموضع الذي قضى فيهِ ليلتهُ السالفة ثم تعلقت المرساة في دردم من القصب القائم هناك بكثرة عظيمة اذ لم تُصادف شجرة تلتصق باغصانها

ثم كابد العلامة صعوبة كلية لتهدئة المنصورة من شدة الريح لكنها خمدت بدخول الليل وسهر الرفيقان كلاهما وهما مكبلان بقيود القنوط

# الفصل الثاني والثلاثون

## في الزوبعة الشديدة وما اشتمل به الرفيقان من الفكرة المكدرة وهبوب الريح المضادة والموافقة والرجوع الى الجنوب

وبعد الساعة الثالثة صباحاً هبت نفحة شديدة شبه العاصفة وكادت المنصورة تهوي الى الارض من تقلبها بايدي تلك الريح والقصب الذي حولها يتمايل ويتهدد القبة بالتمزيق

قال العلامة . هيا بنا على الرحيل يا ايها الخليل لان حالتنا لا توافقنا

قال ديك . ويوسف هل نتركهُ

قال العلامة . معاذ الله تعالى ان اتركهُ او انساه ولو دفعتني العاصفة الى مئة ميل في الشمال فاني اعود اليهِ ولكن هنا خطر علينا جميعاً

فصاح الصياد بصوت الكآبة وانجراح الفؤاد وقال : كيف نرحل بدونهِ

قال العلامة . أتظن يا ديك ان فؤادي ليس بمجروح مثل فؤادك على فراقهِ ولكن هلاَّ تضطرنا الضرورة القصوى الى الرحيل من هنا

فقال الصياد : هاءنذا بين يديك فلنرحلنَّ اذاً

ولكن حال دون ارتحالها صعوبة جزيلة لان المرساة كانت مشتبكة اشتباكاً شديداً ولم يستطع الصياد على اقتلاعها فكانت الريح تدفع القبة وتقلبها على وجهٍ مخالف واضحى حال ديك في خطر مبين لانهُ خاف ان تفلت المرساة بدهشة عين وترحل القبة الى المواطن الجوية قبل ان يبلغ اليها

فلم يرغب العلامة في ان يعرض رفيقهُ لهذا الخطر بل ادخل الصياد الى المركبة وصمم على قطع حبل المرساة وبعد ما قطعها قفزت المنصورة قفزة هائلة الى العلاء وسمت عن الارض نحو ثلاثمائة قدم وسارت نحو الشمال على الخط المستقيم

فانقاد فرغوسن لتلك الرغبة وكتف ذراعيه على صدره وهو في المركبة غارقًا في بحر من الافكار المحزنة

وبعد سكوتٍ برهةً التفت الى رفيقهِ ديك وقال · اننا لربما جرنا المولى لانه لم يُعطَ للانسان ان يرحل بمثل هذا الرحيل

قال هذا وتنفس الصعداء من قلب جريح

قال الصياد · لقد هيأنا بعضنا البعض من برهة بعض الايام لتخلصنا من الاخطــار والويلات الكثيرة في رحلتنا الافريقية · هل ترى نقض الان المقال

فصاح العلامة قائلًا: واسفــاهُ على يوسف النفيس ذلك الشهم الكريم المجبول باللطف والمروءة ذي الطبع السليم الريان من مــاء المكارم والفتوة · فانهُ بعد ما أُخذ عقلهُ بالثروة والغنى من الكنوز الثمينــة لم تماسك ان ضحاها جميعها جودًا هو الان بعيدٌ مــا والريح تدفعنا بسرعةٍ لا حدَّ لها وتقصينــا عنــهُ

قال ديك · ولكن فلنفرض سيدي فرغوسن ان يوسف التجأ الى احدى القبائل الكائنــة في بحيرة تشاد اما كان يتمكن من الرجوع الى بلاده كما عاد دنهام وبرث الى الاوطان

قال العلامة · ولكن يا صاحبي ديك ألا تعلم ان يوسف يجهل لغة هؤلاء الاقوام ولا يعرف كلمة واحدة منها وهو وحدهُ لا رفيق لهُ ولا حيلة · واعلم ان السواح الذين تكلمت عنهم كانوا قبل ان يتقدموا في البلاد يرسلون الهدايا العظام الى رؤساء الاقوام ومعهم ايضًا فرقة من الجنود الشــاكين بالسلاح المستعدين لهذه الرحلات ومع كل ذلك كان لابدَّ لهم من احتمال العــداوات والمشقــات باسوإ حال · فماذا ترى اذًا يحل برفيقنــا المسكين فان هذا

الفكر يقاتلني ويؤلمني وفي حياتي قط لم اتكبد حزنًا اشدَّ مرارةً

قال ديك: ولكن سنرجع اليهِ سيدي صموئيل

قال العلامة · انا سنرجع ولو الجأتنا الاحوال الى ترك المنصورة او العودة الى بحيرة شاد راحلين بل الى فتح المخابرات مع سلطان البرنو . فاني لا اظن ان العرب عندهم سوء ذكر نحو الافرنج الاولين

فاجاب الصياد بعزم وحماسة القلب : وسأتبعك الى حيث سرتَ فلك ان تعتمد عليَّ واذا لزم الامر أبينا تتميم سفرتنا وكما ان يوسف اظهر خلوصه نحونا واوقع نفسه في المهلكة حبًا بنا فانا نضحي ذواتنا لاجلهِ

فاحيا هذا الكلام روح الشجاعة والشهامة في قلب السائحين وشعرا انهما متشددان بالفكر نفسهِ ثم عمل العلامة ان يلتق مهبًا مخالفًا يقربه من بحيرة شاد وبذل جهده في ذلك غير انهُ قد تعسر عليهِ حتى النزول الى تلك الاراضي لكون الزوبعة ما زالت شديدة الهبوب

وهكذا مرَّت المنصورة باقليم تيبوس وجازت قفرًا ذات اشواك يُعرف ببلد الجريد وهو على تخوم بلاد السودان ثم دخلت بادية الرمال المختلطة بآثار القوافل فشاهدوا الروضة التي في تخوم البادية مكسية بالخضار وفيها آبار كثيرة تحتاط بها الاشجار الجميلة وهي اعظم روضة في البلاد الافريقية . لكنهم لم يستطيعوا الوقوف فيها ولكن لم يخلُ القفر من قوم عربان وبعض الخيم والاتلال المادة رؤوسها فوق الرمال شبه رؤوس الافاعي . فمرَّت المنصورة فوقها كسهم جارٍ وهكذا طافت مسافة ستين ميلًا بردهة ثلاث ساعات وفي تلك المدة كلها ما استطاع فرغوسن ان يقسم القبة الهوائية في مسيرها

فقال حينئذٍ: ما هذه الحالة التي نحن فيها فانا لا استطيع الوقوف ولا النزول اذ ليس شجرة ولا صخرة نلقي عليها مرساتنا فهل يا ترى ارمصا ان

تجوب الصحراء من اقصائها الى اقصائها في الحقيقة ان المولى سبحانه وتعالى يعارضنا في نيل مآربنا

وفيما كان يتفوه بهذا الكلام وامارات الغيظ واليأس مستولية على محياهُ اذا لاح لهُ من الشمال ان رأى رمال البادية ثائرة في وسط غبار كثيف وهي تدور محركة من الجهات المتضادة المشتبكة في الجوّ

وكان في وسط تلك الزوبعة قافلة بكاملها مبتلعة من وثوب تلك الرمال الطيارة وقد تبددت شذر مذر اذ لعبت بها ايدي الرياح فكنت تسمع حينئذٍ أطيط الابال وحنينها وتأوّه الناس وصراخ يأسهم وانقطاع قلبهم وتارة كان يطير عنهم ثوب مشكل الالوان ويحوم مع الرمال وفوق هذا جميعه كان عصف الزوبعة يشبه قصيف الرعد بالهدير والعجيج

وبعد ذلك اخذت الرمال في التكدس بعضها فوق بعض وتألفت منها اكوام وربوات بحيث كانت السهلة الممتدة كالبساط قامت علوة فوق القافلة بمثابة رمس لها

فتأمل الرفيقان هذا المشهد المرعب ووجههما مكلل بالاصفرار وما عاد في مكنتهما ان يسوسا القبة الهوائية الدائرة في وسط مجاري الرياح المتضادة حتى لم يعد يهمهما انتشار النار وامتداده واذ وقعت في شباك تلك الفوّارة الهوائية اخذت ترتجف وتسرع في مسيرهــا وتتذبذب تذبذباً هائلاً وجعلت الالات الموضوعة في المركبة تتلاطم بعضهــا بعضاً حتى كادت تتحطم ومالت الانابيب حتى اوشكت الانقطاع وصارت صناديق الماء تتناقل من محكانها بخفة وحركة شديدة وتعسر على السائحين ان يسمع الواحد صوت الاخر مع انهما غير مفترقين بعضهما عن بعض بمسافة قدمين وكان كلٌّ منهما متمسكاً بالحبال ومحاولاً ان يمكث ثابتاً رغماً عن هياج الزوبعة

وكان شعر الصياد مبعثرًا وهو ينظر الى الرياح صامتًا ساكتًا . واما العلامة فحول هيئتهُ الى الجسارة والجراءة حسب عادته عند ما المت به الاخطار ولم تلح على وجهه امارات الاضطراب الشديد بل كان في رونق تام ولم يضطرب ايضًا عند ما وقفت المنصورة فجأةً في الطبقات الجوية بعد ان دارت على ذاتها دورة اخيرة ثم علت ريح الشمال وظفرت بجميع الرياح وعكست مسير المنصورة وذلك بسرعة زائدة كما جرى في الصباح

فصاح ديك قائلًا : والى اين نحنُ ذاهبون

فقال العلامة . دع العناية الالهيـة تفعل بنا ما تشاء واني قد اتكلت بعدم اتكالي عليها وهي عارفة بما يوافقنا اكثر منا وها نحن راجعون الى الاماكن التي آيسنا من العودة اليها

واما الطريق التي سارت فيها المنصورة فاختلفت قليلًا عن الطريق التي اتوا بها صباحًا ولذا شاهد السائحان في خلال الساعة التاسعة فسيح البادية عوضًا عن مشاهدة سواحل بحيرة شاد

واشار ديك الى العلامة بهذا الامر

فقال العلامة . هذا لا يهمنا كثيرًا ويكفينا ان نرجع الى الجنوب فاننا نصادف هناك مدائن الدربو ودية وكوكا ونحط فيها لا محالة

فقال ديك حيث انك راضٍ عما نحن عليه ومنشرح الخاطر فانا على ما انت عليه ولكن ارجو المولى ان لا يدعنا نطوف الهواء فيحلُّ بنا ما حلَّ باولئك الاعراب التعيسي الحظ وفي الحقيقة ان ذلك المنظر اثر فيَّ وارعب مني الفؤاد

قال العلامة ان هذا الامر كثير الحدوث فان اخطار التطواف في القفار يضاهي اخطار السفر في البحار لان البادية تتناول جميع اخطار البحر حتى والابتلاع

نفسهُ وزد على ذلك ان البادية فيها اتعابٌ ومشقات لا يُطاق احتمالها والتجلد لهـا

قال كادي : ارى الريح مائلة الى الهدوء والاستكانة فاني اشاهد عثرة الرمال تحت كثافة وتموجها يقلُّ والافق يأخذ في الانجلاء من غشاوتهِ

قال العلامة : حسناً تفعل الريح بهدئها فعلينـا ان نفحص الافق لئلا تفوتنا نقطة واحدة لا ننظر اليها

قال ديك : دع هذا الامر عليَّ فاني انبئك حالًا عند ما اصادف اول شجرة

قال هذا واخذ المنظرة وجلس في مقدم المركبة

---

## الفصل الثالث والثلاثون

في قصة يوسف وما كان من عادة الافريقيين له ووصوله الى ارباب الصخرة وسعره راجلاً ومكابدته المشقة والتعب والجوع ومرور المنصورة وارتحالها ويأسه وصراخه الاخير

فماذا يا ترى قد اصاب يوسف في غضون تفتيش العلامة عليهِ وتكبدهِ التعب الباطل حباً بهِ

فاعلم وفقك الله ان يوسف في سقوطهِ في البحيرة اول ما بدا منهُ كان انهُ نظر الى العلاء فرأى المنصورة قد سمت عن البحيرة وعلت بسرعة الى الجو ثم غابت عن عينيهِ باتجاهها الى جهة الشمال فايقن حينئذٍ ان سيدهُ وصاحبهُ ذلك فازا بالنجاة

ثم قال في نفسه : انهُ ضرب من السعادة والحظ ما طرقني من الفكر لان ارمي بنفسي في البحيرة فداء لرفيقيَّ لانه ربما كان طرق هذا الفكر صاحبي ذلك الصياد فلو حيل بينهِ لما كان تماسك قط عن تتميمهِ بالعمل . ولامرٌ ضرواني هو ان يبذل انسان نفسهُ رغبة في نجاة اثنين اذ يتفضل الاثنان على الواحد في كل حساب

ولما اطمأنَّ خاطره من هذا القبيل اخذ يهتمُّ بامر نفسهِ فانه كان مقيماً وسط بحيرة عظيمة جداً وحولها اقوام يجهلهم بالكلية وربما هم من البرابرة المتوحشين لكنهُ قال في ذاتهِ . ان ارتعابي من هذا والتفكر بهِ قبل اوانهِ لا يجديني نفعاً بل من الواجب عليَّ ان اضاعف حرصي وتحذري لاتخلص من حالتي والَّا كنت انا الخاسر

وكان قد لاح جزيرة في الافق قبل ان تحمل الطيور الجوارح على القبة وقد زعم يوسف ان تلك المواشق تصرفت تصرفاً لاق تشراستها المألوفة . فعزم اذا

على الذهاب الى تلك الجزيرة واستعان بجميع معارفه في فن السباحة بعد ان جرّد نفسهُ من الثياب التي تربكهُ . وكانت مسافة ستة اميال في البحر لا تروعهُ ولهذا لما كان سابحاً على الماء ما افتكر قط بشيء سوى بان يسبح بنشاطٍ وان يتجه خطاً مستقيماً الى ما قصدهُ من الخطة

وبعد ان مضت نحو ساعة ونصف نقصت كثيرًا المسافة الفاصلة ما بينهُ والجزيرة ولكن في اقترابهِ من الارض دهمهُ تصوّرٌ هائل من شأنه ان يحملهُ على الهرب وهو ان التماسيح كثيرًا ما تألف سواحل البحيرة ولم يكن يخفى عليهِ ما تنطوي عليهِ تلك الحيوانات من النهامة وشدة الحرص في تلقف جثمان بني آدم

فاضطرب يوسف من هذا الفكر رغمًا عما كان متصفاً بهِ من الخفة المائلة بهِ الى الظن ان كل شيء في هذه الدنيا يجري مجراهُ الطبيعي فخاف ان يلد للتماسيح اللحم الابيض . ولذا لم يتقدم الى الساحل الاجرد كلي وعينهُ محدقة بكلما حواليهِ ولما وصل الى قرب ريفٍ مظللٍ بالشجر الاخضر هبَّ نسيم فاحت منهُ رائحة المسك الخارقة

فقال : هذا ما كنت احشاهُ فان التمساح غير بعيد مني . فغطس في الماء ولكن لم يغطس غطساً عميقاً ولذا ما تحاشى صدمة جسم عظيم ذات خراشف مسنة فخدشت جسمه في مره فحسب يوسف انهُ ذهب فريستهُ وجعل يسبح بسرعة من ناهز اليأس ثم طلع الى سطح الماء وتنفس قليلاً ثم عاد فغاب في الماء وهكذا قضى برهة كانت فيها ضيقة وغمًا شديدًا رغمًا عما كان عليهِ من الجلد العربي . في كل دقيقة كان يخال لهُ انهُ يسمع حركة ذلك التمساح وراءهُ فاغرًا فاهُ ليبتلعهُ بلعة واحدة وفيما كان محتفظاً على ذاتهِ من كل جانب وهو يسبح بطاقة واذا مُسك من ذراعهِ ثم من وسطهِ

فتصور حينئذٍ ان قد حاق بهِ التعس والويل وفكر فكرة اخيرة بمولاه واخذ يصارع ويسارع كقاطع الرجاء وهو مع ذلك مشعرٌ بان قوّة تجره الى سطح الماء وليس الى القعر كما هي عادة التماسيح عند ما اصطادت صيداً

فلما طفا وفتح عينيهِ نظر ذاتهُ بين عبدين ذات لون الأبنوس ماسكين بهِ وهما يضحكان بصوت غريب

فما تمالك ان قال يا للعجب فاني نجوت من شباك التماسيح ووقعت في شباك السودان . فلعمري هذه احسن من تلك ولكن كيف يا ترى يتجاسر هؤلاء على السباحة في مثل هذه المحلات

فكان يجهل يوسف ان سكان جزائر شاد يسبحون في المياه الخالة فيها التماسيح بلا خوف ولا قلق لان تماسيح تلك البحيرة شهيرة بقلة توحشها وعدم حرصها في اذية الناس

فكان يوسف قد نجا من خطر لكنهُ وقع في غيره فترك للتقادير ان تعمل فيهِ ما تشاء وحيث لم يستطع الخلاف انقاد الى الاسودين اللذين اتيا بهِ الى الساحل ولم يُظهر على ذاتهِ وجلاً

فاخذ يردد في افكاره قائلاً . لا شك في ان هؤلاء العبيد نظروا الى المنصورة عند ما حامت فوق البحيرة شبه وحش جوّي فقد شهدوا من بعيد لسقطتي فلا يبعد ان يخالوا انساناً نزل من السماء ويخصوه باكرام خصوصي فلندع الحوادث تجري مجراها

نَمْ للخطوب اذا احداثها طرقت    واصبر فقد فاز اقوام بما صبروا
فكلُّ ضيقٍ سيأتي بعدهُ سعةٌ    وكل صبرٍ وشيكاً بعدهُ ظفرُ

وفيما كان يحدث بهذه الافكار اذا وصل الى ساحةٍ وفيها قوم سود من كل جنسٍ وعمرٍ وهي قبيلة من قبائل البيديوماه ولم يستحِ من حمة ثوبهِ

فانهُ كان على زيّ سكان ذلك القطر

ولكن قبل ان يتنبه الى حالتهِ وموقعهِ رأى الصيد قد اخذوا في تحيتهِ وتعظيمهِ فطمأن روعه من هذا الامر وان اتت لبالهِ حادثة كازه عند ما ظهر القمر

ثم قال في نفسهِ: ارى اني مزمع ان اصبح ثانية الهاً واباً للقمر. فلا بأس من هذه الحرفة لانها احسن من غيرها عند ما تضحكون الحارية واما الذي يهمني فهو ان اربح زماناً حتى اذا اتت المنصورة مرّت فوقي انتهز الفرصة من حالتي هذه لاصعد صعوداً عجيباً واجعل عابديَّ يتأملون بهذا المشهد الغريب

ثم ازدحم القوم حولهُ واخذوا يسجدون لهُ ويضحون ويمسونه وأنس الجميع بهِ ولم يتهاملوا ان صنعوا لهُ وليمة فاخرة مؤلفة من الحليب الحامض وكان ذلك الحليب ممزوجاً بارزٍ مسحوق في العسل. فلما كان من دأب يوسف ان يقبل بكلما يأتيهِ تناول الطعام معهم واكل كثيراً وضحكنا أرى عابديه كيف ان الالهة يتلقفون الاطعمة في الفرص الغير الاعتيادية

ولما امسى المساء اتاه حكماء الجزيرة وضبطوا يده باحترام كلي وجاءوا بهِ محدعاً اشبه كوخاً محتاطاً بالطلاسم السحرية وقبل ان يدخلهُ يوسف شاهد عظاماً مكوّمة حول ذلك المعبد فنظر اليها نظرة قلقة ثم حاوهُ بهِ وتركوهُ فأخذ حينئذٍ يجوب بيداء الافكار في واقعتهِ وفيما صُمم عليهِ من النية

في جانب عظيم من الليل ما برح يوسف يسمع غناء وترتيلاً واصواتاً تشبه اصوات الطبل وقرقعة حديد تحلو في اذان الافريقيين ولما كان الرقص قائماً على قدمٍ وساق حول الكوخ المقدس كان القوم يعرّون باصواتهم الصحيحة وجميع هذا تبجيلاً لمقام يوسف الفائق

وكان يوسف ناظرًا الى هذه الفوغاء من خلال جدران الكوخ المبنية من الطين والقصب . فلو جرت هذه الحادثة في وقت غير ذلك الوقت ربما لكان فرح فرحا عظيمًا في تلك الطقوس الغريبة ولكن قد حيل في باله امرٌ اوقعهُ في شال لانهُ وان نظر الى الاشياء بعين رائقة بل مجردة فمع ذلك قد ساءه وجودهُ في تلك البلاد الوحشية وبين اقوام برابرة

زد على ذلك انه قلَّ السواح الذين تجاسروا فقدموا الى تلك الآفاق ثم عادوا ورجعوا الى الاوطان وعليهِ لم يثق كثيرًا بعبادتهم وتكريمهم لهُ لان عظمات هذا العالم والمحادة كانت عندهُ اباطيل ولهُ دواعٍ كثيرة لاحتقارها وعدم الاكتراث بها ثم سأل نفسهُ بنفسهِ قائلا: عسى ان عادتهم تفضي اخيرًا باكل المعبود

فمع ارتباكهِ بهذه الافكار التي من شأنها ان تلقيه في وهاد التأسف والكدر غلب عليه التعب ورقد في سبات لذيذ ولطال معهُ هذا الرقاد حتى الصباح لو لم تيقظهُ رطوبة غير منتظرة

ثم امست تلك الرطوبة ماء وازداد ذلك في كوخ يوسف حتى وصل الى اواسطهِ

فقال ما هذه الحال أعذاب على عذاب هل يا ترى انا غارق في غمر المياه فلعمري ما كنت في انتظار هذه الحيلة الغريبة وعلى كلٍ لا امكث محبوسًا حتى تبلغ المياه الى رقابي

وبعد ان تفوه بتلك المقال ضرب الحائط بكتفهِ فوجد نفسهُ في قلب البحيرة ولم يعد يرى اثرًا للجزيرة بل انها غطست في الماء بالليل وقام مقامها سعة البحيرة

فقال يوسف: بئس البلاد لاصحاب الاملاك لانهم يُعدمون رزقهم في

بهتةٍ وحيرة ثم شدد قواه وضاعف نشاطهُ للسياحة من جديد

فقد نجا يوسف من ايدي البرابرة بحادثةٍ من الحوادث التي كثيرًا ما تجري في بحيرة شاد فان حراذين كثيرة تتهوَّر في هذه البحيرة مع انها تشاهد قبلًا صلبة طير الصخور وكثيرًا ما يأتي الاقوام المجاورون لها بموت المساكين الذين يلجأُون الى الفرار

اما يوسف فلم يكن عارفًا بهذا الامر لكنهُ اخذهُ سبيلًا الى تخلصهِ واذ لم قاربًا تائهًا في البحيرة قد اقترب منهُ ورآه شبه جذع شجرة نُخر حفرًا خشنًا وكان فيهِ مقذافان فطلع اليهِ ورأى مجرى ماء سريعًا فانتهز الفرصة واخذ في المسير

ثم قال فلسطرِ قبلًا الى اين نذهب ولاحذر من كوكب الصباح ان يأتي نحوي لانهُ من حسن عادته ان يهدي الناس الى طريق الشمال

ورأى ان مجرى الماء يبلغهُ ريف البحيرة الشمالي فسار مسرورًا ولما كانت الساعة الثانية بعد انتصاف الليل صعد الى علوة مغطاة بقصب شائكٍ لكنهُ بصر هناك شجرةً وخيل لهُ انهُ يرقد على اغصانها كعلى فراش فتسلقها يوسف واخذ هناك في انتظار الفجر ولو امتنع عليهِ الرقاد

واذ وافى الصباح سريعًا حسب عادتهِ في تلك بلاد خط الاستواء القى يوسف لحظةً على الشجرة التي التجأَ اليها فارعهُ منظرها رعبًا شديدًا لان الحيات والحرباء تغطي اغصان الشجرة من اعلاها الى اسفلها وكان ورقها اذ ذاك متواريًا تحت لفائفها واذا ما شاهد احدٌ تلك الشجرة قال عنها انها تنبت ذباباتٍ ولما بزغت اشعة الشمس اخذت تدب وتزحف وتلتف فشعر يوسف برعب خالجهُ النفور ورمى نفسهِ الى الارض بين فحيح الحيات

ثم قال: هذا شيء غريب يصعب تصديقهُ

فكان يجب عليه ان يرحل في رسالته الاخيرة ذكر تلك الغرابة الظاهرة في سواحل بحيرة شاد حيث تكثر الذبابات والهوام كثرة لا مثيل لها فبعد ما رأى يوسف ما رآه عزم على ان يشدد حرصهُ في المستقبل واخذ يسير الى الجهة الشمالية الشرقية وكان يعتني كثيراً في تجنب الاكواخ والبيوت والخيام وبالاجمال كل محل قابل لسكنى الناس

وكم من مرة قد رفع يوسف لحاظهُ الى العلاء وهو يرجو مشاهدة المنصورة غير انهُ ذهب تفتيشهُ عليها هدراً ولم يرَ لها اثراً ومع ذلك لم تنقص ثقتهُ بسيده اما حالتهُ فكانت تقتضي صبراً جميلاً وشجاعةً عظيمة للتجلد عليها اذ انه كان مضنوكاً بالتعب متضرراً من الجوع لكونهِ لم يقتصد سوى بالعروق ولب بعض الشجيرات او بالثمار من جنس النخل فهذه كلها ليس من شأنها ان تقوي المعدة وتقيت المرء . ومع هذا كلهُ فانه تقدم نحو عشرين ميلاً الى الناحية الغربية وكان جسمهُ مخدشاً بالاشواك في امكنة كثيرة وذلك لطلوعهِ الى سواحل البحيرة وارجلهُ كانت مخضبة بالدماء واصبح من ثم مسيرهُ عسراً ومؤلماً فاحتمل هذا العذاب بصبر ولما امسى المساء عزم على ان يقضي ليلتهُ في سواحل البحيرة

فهناك اقتضاهُ الحال ان يقاسي لدغ الهوام التي لا تحصى عدداً وهي من اجناس كثيرة كالذباب والبرغش والبعوض والنمل الذي يبلغ طولهُ نحو نصف ابهام وهي تغطي الارض كالبساط الممدود . فما مضى عليهِ نحو ساعتين الّا تأثر الثوب الخفيف المكسي جسمهُ ولم يبقَ منهُ اثر فان الهوام قرضتهُ كلهُ فكانت ليلة هائلة لم يستطع فيها يوسف رقاداً ولا راحةً البتة

وفي غضون ذلك كانت الخنازير والجواميس الوحشية وغيرها من الحيوانات تصيح باصوات الغضب في الآجام او تحت مياه البحيرة وكانت تدوي اصواتها

في ظلام الليل فلم يتحرّك يوسف من مكانهِ بل كاد من جرا ذلك عذابًا اليمًا كاد ان يتعب صبره ويُفضي بهِ الى اليأس

ثم وافى النهار بعد انتظار طويل فنهض حينئذٍ يوسف بسرعة ولما نظر حواليهِ عرفت نفسهُ اذ رأى ان ضفدعة سمجة كبيرة وحشية قد صاحبتهُ ليلًا ومن مجرّد النظر اليهــا تتقزّز النفس وتحمل على التكره . فاحس يوسف بتقلب امعاء ولكن قد تقوى من كرههِ وعدا راكضًا الى البحيرة وارتمى في مياهها فرطب الماء قليلًا مـــا كان يكابدهُ من الحكاك ثم عاد الى البر ومضغ بعض اوراق الشجر وسار في طريقهِ بحذر لم يدركهُ واصبح كأنهُ لا يدري ما يفعلهُ بل شعر بقوّةٍ تعلو فيهِ قطع الرجاء

ومع ذلك احد يصوّره الجوع وصاحت عصافير بطنهِ لان بطنهُ لا يمكنـــهُ الاصطبار مثلهُ فاضطر الى ان يربط حسمهُ بحزام ساقي واما عطشـــهُ فكان يرويه في كل دقيقة واذ اتى لبالهِ ذكر ما احتملهُ في البادية من قلة الماء حسب نفسهُ سعيدًا لخلوه من هذه الحاجة الفائقة لجميع الامًا

ثم قال في ذاتـــهِ اين يا ترى هي المنصورة فان الريح تهب من الشمال وينبغي علينا ان نرجع فوق البحيرة ولا بدّ ان يكون سيدي صموئيل رتب القبة بموازنة جديدة ولكن حكماهُ النهار البارح شغلًا فلا يبعد اذًا اليوم الذي فيهِ المنصورة . . . ولكن ما لي ولهـــا الان عليّ ان اتصرّف كأني لست بزمع ان اراها ابدًا واذا وصلت الى مدينة كبيرة من مدائن البحيرة فاني اكون بمقـــام السواح الذين ذكرهم لي سيدي فلمـــاذا لا انحو مثلهم فان كثيرين رجعوا الى الاوطان وشاهدوا الخلان فالشجاعة الشجاعة اذًا ولا اليأس ابدًا

فبيا هو يتفوّه بهذا المقال سائرًا في طريقهِ وصل الى غاب وشاهد فيهِ قومًا متوحشين متألبين بعضهم على بعض اما هم فلم يدروا بهِ لكونهم عاملين على

ستي سلهم بعصير نبات مسمّ وهي مشمعة عطية يهتمّ بهـا قبايل تلك البلاد
صيد حافل

فاختبأ يوسف بين الآجام وهو لا يتنفس لئـلا يُحسّ بهِ وفيما هو رافع
بصرهُ الى العلاء لمح المصورة فاتها سارية فوق راسهِ بطو نحو مائة قدم ومتجهة
نحو البحيرة فودّ لو استطاع ان يُسمع صوته او يُعلم رفيقيهِ بوجوده في تلك الحال
ولكن أنّى له من نيل هذا المرام

وفي تلك الساعة ادرت عينهُ دمعة سخية ولكن لا دمعة اليأس
والقنوط بل دمعـة السرور ومعرفة الجميل الذي بدا من سيده نحوه فانه
كان يستقرئ عنهُ ولا يريد ان يذهب بدونهِ فاقتضى حينئذٍ ان ينتظر رحيل
السودان حتى ينطلق راكضاً الى ارياف البحيرة

واما المصورة فتوارت عن البصر في طي الآفاق فعزم يوسف على انتظارها
هناك لانهُ قال في نفسهِ . لا بدّ من رجوعها فرجعت حقيقةً واذ اتجهت نحو
الشرق فركض يوسف وراءها واومى بيديه وصرخ وصاح باعلى صوته ولكن
عبثاً لان ريحاً شديدة دفعت القبة الهوائية بسرعة عظيمة نزعت منهُ كل امل
ورجاء

في اول وهلة خارت فيهِ قوى الشهامة والرجاء وظن انهُ قد تاه في بيداء
الهلاك وحسب ان سيده رحل رحلةً اخيرة وما عاد يرجع اليـهِ فذهب عقلهُ
واضاع كل فكرةٍ وبقي برهة لا حراك لهُ حساً وعقلاً

ثم شرع في المسير كانسان فاقد العقل ورجلاهُ مخضبتان بالدماء وجسمهُ
مخدّش ولبث ماشياً كل النهار ومدة من الليل وتارةً كان يسحب على اقدامهِ
وطوراً كان يتوكأ على ايديه وكان يرى الساعة التي فيها تخور قواه ويأتيهِ الاجل
لا محالة

فبيا هو يتقدم الى الامام اذا وصل الى قرب طحقة وكان قد جنّهُ الليل ثم سقط بلا معرفة في طين لزج . وشعر كأنهُ يتساقط رويداً رويداً في تلك ارض الحماء . وما مضت بعض الدقائق حتى رأى نصف جسمه مغمساً في الطين

فقال حينئذ : هوذا الموت هوذا قد اقبل ولكن يا لها من ميتة شنيعة

فاضطرب واختبط واراد الخلاص فلم يفز به بل ما زال يتعمق في الطين وكان في حركته كانهُ يحفر الهوَّة لنفسهِ ولم يرَ بالقرب منهُ قصبة ام قطعة خشبية ليستند عليها فايقن ان قد دنت ساعتهُ الاخيرة واطبق جفونه

ثم صاح قائلاً : سيدي سيدي ما بالك لا تأتي اليَّ تعالَ تعالَ

فتاه ذلك الصراخ المفرد صراخ اليأس والقنوط في بيادي الظلام المدلهم

---

## الفصل الرابع والثلاثون

في ما كان من الفرسان المتسمين وملاحقتهم لاحد المهرويين وقتل الصياد عرباً برصاصة وانتشال يوسف من الارض بصاعة وحرية

فبعد ما فوّض العلامة امر المراقبة الى ديك الصياد ما امك هذا عن التفرس في الافق بحرص والتباه لا مثيل لهما

وبعد برهة التفت الى العلامة وقال له: ارى هناك طائفة من الناس والبهائم مجتمعين ولكن لا يتميز شيء منها بل اني اشاهدهم في حركة عظيمة لان امامهم غباراً كثيفاً من الرمال يرتفع من الارض

فقال فرغوس يمكن ان يكون هذا ريحاً مخالفة ام فوارة ارمعت ان تدفعنا الى الشمال

فنهض ديك ليفحص الافق جديداً

ثم قال لرفيقه: اظن انها طائفة من الغزلان او من بقر البرية

قال العلامة: ان ذا من المحتمل ولكن اعلم يا ديك ان هذه الفرقة المجتمعة تبعد عنا نحو تسعة او عشرة اميال فانا اذا تطلعت بالنظارة الصغيرة لا امير فيها شيئاً

فقال ديك: على كلٍّ ها اني مراقبها على جميع الاحوال لاني ارى فيها شيئاً غير اعتيادي يُشغل بالي وعلى ما اظن ان هذا الازدحام اما ازدحام خيالة يجارون في ميدان السباق هوذا قد اصاب تخميني فانهم بالحقيقة خيالة. تطلع يا فرغوس تطلع

فتأمل العلامة بانتباه الى تلك الفرقة المزاحم بعضها بعضاً

ثم قال: على ما ارى قد اصبت في ظنك فانها فرقة من عربان ام تيبوسية والناس انهم يركضون الى الجهة التي نحن سائرون اليها غير ان عدوهم لا

يباري سرعة قبتنا ولا يمضي نصف ساعة الّا ونقف على الحقيقة ونعلم ما يجب علينا من العمل

ثم اخذ الصياد منظرته وجعل يحدق نصره فتراءت له الخيالة المزدحمون باكثر وضوح وشاهد ايضاً بعضاً منهم يعردون على جانب

ثم قال لفرغوس: في الحقيقة ان هذا هو سباق خيل فكأنهم يتعقبون شيئاً واود كثيراً ان اشعر بما هو موضوع مطاردتهم

فقال العلامة: صبراً ياديك فعن قريب نصل اليهم بل نتجاوزهم اذا داوموا الجري في هذه الطريق نفسها واعلم ان قبتنا تسير الان بسرعة عشرين ميلاً في الساعة ولا يوجد خيل يمكنها ان تجري بهذه السرعة

ورجع ديك الى المراقبة من جديد ولم تمض بعض الدقائق الّا قال: انهم عرب يركضون ركضاً شديداً وقد ميزتهم حق التمييز وهم يبلغون الخمسين وهودا براسهم تقوم على جناح الريح فانها رياضة للخيالة ورئيسهم يسبقهم عن بعد مائة قدم وهم يجرون وراءه متتبعين اثاره

قال العلامة من ما كانوا فاني لا اخشى اذيتهم واذا اقتضت الحال ارتفعنا الى المعالي

قال ديك: اصبر قليلاً يا فرغوس اصبر

ثم استتلى ديك كلامهُ بعد فحص جديد وقال انهُ لامر غريب حيَّر فكري لاني ارى شيئاً ما تمكنت من معرفتهِ ولا تمييزه جيداً والناس من كد الخيالة وعدم مساواة جريهم انهم مطاردون احداً لا لاحقون رئيسهم كما ظننت

قال العلامة: وهل تؤكد ذلك يا ديك

قال ديك: لا شك في هذا لاني اشاهد الخيالة كانها راكضة وراء صيد

ولكنها ليست مصيدة حيوان بل انسان والذي يتقدمهم هو منهزم منهم وليس هو رئيسهم وقد خالجهُ الاضطراب

قال فرعوسن: ألعلهُ منهزم

قال ديك · اي نعم سيدي

قال العلامة لانحولنَّ اذاً نظرنا عنهم ولننتظرَ ما يحدث

فسارت القنة مسافة ثلاثة او اربعة اميـــال فوق هؤلاء الخيالة الفارين بسرعة شديدة

وبعد ان قطعوا هذه المسافة صاح ديك بصوت مرتجف وقال سيدي صموئيل سيدي فرعوس

قال العلامة · ما بالك اخك

قال ديك: هل هو حلم ام خيال هل هذا ممكن

قال العلامة - وما معنى قولك

قال ديك: تصدعليَّ

قال هذا ومسح زجاجة المنظرة وجعل يحدق نظره من جديد

فقال العلامة: قل اذاً ما هذا

قال ديك: هو هو نفسه يا صموئيل

فصاح العلامة قائلاً: هو هو بذاتهِ ( فقد اعنى بلفظة هو هو عن مراده ولم يحتاج الامر الى ايضاح )

ثم قال ديك: انهُ راكب فرساً ومنهزماً من امام اعدائهِ . . . وهو بعيد عنهم نحو مائة قدم

قال العلامة وقد علا وجههُ الاصفرار عافاك الله يا يوسف

قال ديك: لا يمكنهُ ان يرانا في انهزامهِ وهربه

قال العلامة · لا بد يا ديك من ان يرانا

قال هذا وخفض حرارة القصة

قال ديك · وكيف ذلك

قال العلامة · لا تمضي خمس دقائق الّا ونقترب من الارض حتى لا نعلوها الّا ٥٠ قدماً وبعد خمسة عشر دقيقة نصبح فوق رأسهِ

قال ديك : ألا يلزم ان تنبهُ بطلقة بارودة

قال العلامة كلا فانهُ لا يستطيع الرجوع الى الوراء والّا ذهب فريسة اعدائهِ

قال وما العمل

قال الصبر يا صاح الصبر

قال ديك : الصبر وهؤلاء العربان ما العمل فيهم

قال العلامة · اننا نلحقهم ونسبقهم ولسنا ببعيدين اكثر من ميلين فقط فليبقَ حصان يوسف جارياً بجواهِ ولا نخشى العربان

قال ديك : الهي الهي

فقال العلامة · وما الذي جرى

قال ديك كذا صاح بصوت مأيوس بعد ما شاهد يوسف مصروعاً على الحصيص لان حصانهُ قد اعياه التعب فسقط على الارض خائر القوى

فقال العلامة انهُ نظرنا وفي نهوضهِ اشار الينا بحركة يدهِ

قال ديك · ولكن قد اوشك العربان ان يلحقوه فما الذي ينتظره · فلله الحمد فانه شهم باسل عافاه الله عافاه

فكان يوسف بعد سقوطهِ نهض حالّا اذ وثب عليهِ خيال ثم قفز كالفهد وحاد يسيراً عن طريقه ثم انقض على فرسهِ كالباشق ومسكهُ من عنقهِ

وحققهُ باصابعهِ الحديدية ويديهِ العصبيــة وجدلهُ على الارض طريحًا واحد في ابهامهِ بسرعة الطير

فصاحت العربان بصوت عظيم دوى في الآفاق ولكنهم لم يشاهدوا قط المنصورة التي كانت تبعد عنهم نحو خمسمائة قدم وهي تعلو عن الارض ثلاثين قدمًا فقط الآن واحدًا منهم قارب يوسف وحاول ان يضربهُ برمحهِ ولما كان ديك الصياد شاخصًا اياهُ اوقفهُ برصاصةٍ واحدة وصرعهُ على الارض

فلم يلتفت يوسف اصلًا لصوت الرصاص بل داوم المســير واما الخيالة فوقف بعضهم ومنهم من خرَّ على وجههِ في الارض عند مشــاهدة المنصورة ومنهم من داوم معاقبة يوسف

فقال ديك ولكن ما الذي يعملهُ يوسف فانه لايقف

قال العلامة : بل انه يتصرف تصرفًا اوفق من الوقوف فاني فهمت غايتهُ وهي انه لا ينفك من المسير الى جهة مسير القبة الهوائية ويثق بفطنتنا وتدبيرنا وبسلنهُ من ايدي هؤلاء العربان وها نحن بعيدون منهُ نحو مائتي قدم فقط لله درهُ من شهم فريد

قال ديك ما الذي يجب فعلهُ

قال العلامة : دع بارودتك جانبًا

فترك الصياد بارودته وقال . هوذا فعلت

قال العلامة . أتستطيع ان تحمل بين ذراعيك ثقلًا يوازن مائة وخمسين ليرة انكليزية

قال : واكثر من ذلك

قال العلامة . لا لزوم لاكثر بل هذا كافٍ

فرفع العلامة اكياس الرمل وناولها لديك ليحملها بين ذراعيهِ

ثم قال · الست واقفاً في مؤخر المركبة وكن متأهباً لان ترمي هذا الرمل كله دفعة واحدة ولكن بحياتك لاتفعل ذلك قبل امري

قال ديك · ثق بي وكن مطمأن البال

قال العلامة · والا خسرنا يوسف وذهب فريسة الهلاك

قال الصياد : لاتخف يا فرعوس والق عليّ هذا الهم

فوصلت المنصورة فوق رؤوس الخيالة الذين ما انفكوا من تتبع اثر يوسف

واما العلامة فوقف في مقدم المركبة وهو ماسك السلم منشوراً ومستعدٌ لان يلقيهُ في الدقيقة الموافقة وكان يوسف بعيداً من اعدائهِ نحو خمسين قدماً اما المنصورة فتقدمتهم

ثم قال فرعوس لديك : انتبه يا صاح

قال ديك · ها انا حاضر وعلى اهبة

ثم صاح العلامة بصوتهِ الرنان : عليك عليك يا يوسف

قال هذا ورمى السلم فوصلت الدرجة الاخيرة الى الارض واثارت غبرة من الرمال

بعد ما نادى العلامة يوسف لم يقف هذا في محله بل التفت قليلاً فوصل السلم بالقرب منهُ وفيما كان يتماسك بهِ صاح العلامة الى ديك قائلاً · الق الرمل يا ديك

فقال ديك : قد فعلت

فلما خفت المنصورة من ثقل يفوق ثقل يوسف ارتفعت في العلاء حالاً وبلغت علو مائة وخمسين قدماً فوق الارض

وبعد مــا ارتفعت المنصورة وتذبذبت كثيراً في صعودها كان يوسف

متمسكاً شديد التمسك بحبل السلم ثم اشار الى العربان اشارة غريبة وداعاً لهم وتسلق السلم بخفة البهلوان ووصل الى رفيقيهِ فاقتلاه بين الاحضان فصحت العربان وقتئذٍ باصوات الدهشة والغضب لان المهرم طار من بين ايديهم وانتملت عنهم المصورة بعداً شاسعاً

هتف يوسف. سيدي صاحبي ديك

قال هذا ووقع مغشياً عليهِ من شدة الاضطراب والاعياء فيا حكان ديك كأنهُ في بحر الهذيان يصيح قائلاً:

قد خلص قد فاز بالنجاة

اما العلامة فرجع الى رواقهِ القديم وقال. اواه ما هذه الحالة حالة يوسف فان يوسف كان متجرداً عن اثوابهِ وليس على جسمهِ الّا رسمٌ من الكسوة واما ذراعاهُ فكانتــا مخضبتين بالدم وجسمهُ مثخناً بالجراح فكل هذا دلَّ على ما تكبدهُ من العذاب والشقاء فهجس العلامة حالاً وضمد جراحهُ وانامهُ داخل الخيمة

وبعد برهة استفاق من غشيانهِ وطلب كأساً من العرق فما اراد العلامة ان يرفض طلبهُ لان يوسف لم يكن يُطبب كسائر الناس وبعد ان شرب اخذ بايدي رفيقيهِ وقال لهما انهُ مستعدٌ لان يقص قصتهُ

فلم يسمح لهُ رفيقاهُ بالتكلم في تلك الساعة وعليهِ عاد فرقد رقاداً ثقيلاً كان في غاية الاحتياج اليهِ

فسارت حينئذٍ المصورة خطاً منحرفاً الى جهة الغرب وعند ما اشتدت الريح وصلت الى حدّ القفر الشائك فوق النخلات التي قد احنتها او اقتلعتهــا الزوبعة وبعد ان سارت مائتي ميل مذ انتشال يوسف قد حازت مســاء الدرجة العاشرة من الطول

# الفصل الخامس والثلاثون

في طريق الغرب ونقطة يوسف وعناده ونتمة قصته ووصول السواح الى نحلة وقلق الصياد واتجاه المنصورة نحو الشمال

ثم سكنت الريح من مهبها الشديد وقرّت المنصورة على رأس حميرة عظيمة

فسهر كل من العلامة وكادي في حراسة القبة . اما يوسف فانتهز الفرصة وغرق في سبات مريح مدة اربعة وعشرين ساعة بغير انقطاع

فقال العلامة هذا الدواء النافع ليوسف اعني به الرقاد فان الطبيعة تأتيه بالشفاء من تلقاء نفسها

ولما كان النهار عادت الريح شديدة متقلبة فكانت تهب تارةً نحو الشرق وتارة نحو الجنوب غير انها هبت اخيرًا آخذةً المنصورة الى الجهة الغربية

فتطلع فرعوس الى الرسوم الجغرافيــة ورأى انه قائمٌ في مملكة دامرعو واراضي تلك البلاد معوجة السطح لكنها ذات خصب وريعان وبيوتها مبنية بقصب تتخللهُ اغصان شجرة يقال لها اسكابية وترى فيها المطحنات مرتفعة فوق اخشاب متصلة وذلك خشية من هجوم الجرذان عليها

وما مضت رهة الّا وصل السواح الى مدينة زندر المشهورة بجبل العقاب المتسع القائم فيها فترى في وسطهِ شجرة الموت وكل من مرّ بينها يمسكهُ الجلاّد الحالس دوامًا عندها ويشنقهُ على تلك الشجرة في الساعة والحال

ثم تطلع الصياد الى البوصلة وقال لفرعوس هوذا رجعنا الى طريقنا الشمالية

قال العلامة . لا بأس منها اذا قادتنا الى تمبكتو فان رحلتنا لا تماثلها رحلة توفيقًا ونجاحًا

فقال يوسف وقد مدَّ رأسهُ من خلال ستار الخيمة وامارات السرور على محياه ولا غاثلها رحلة نتوفيق صحة اصحابها

قال ديك: هوذا صاحبنا الشهم الفريد ومخلصنا الوحيد. كيف حالك يا يوسف

قال يوسف: مالي خير كخاري عادتي وطبيعتي فاني لم ار ابداً منشرح الصدر اكثر مني في هذه الساعة وكيف لا ينشط من قد تحمم مثلي في بحيرة شاد ثم مشى برهةً لانشراح صدره فما قولك يا سيدي

فقال له العلامة لله درك من شهم فريد ولكن كم سببت لنا من القلق والغم والرعب والهم

قال يوسف: اتظنّ اني كنت على طمأنينة قلب من قبلكم. كلاًّ بل يمكنكما ان تعتبرا عما سببتما لي من الفزع الشديد

فقال العلامة اذا قلبت المسألة على هذا النسق فلا نتفق على رأي

قال الصياد. ارى انهُ لم يتغير اصلاً من بعد سقطتهِ

فقال العلامة. ان حبك يا يوسف كان حباً خالصاً لنا وهو الذي نجانا من الهلاك لاننا كنا ساقطين في البحيرة بسرعة كلية وعلى الخط المستقيم فلو عطست المصورة في الماء من تراه لكان نشلها ونشلنا

قال يوسف: ولكن اذا كان انقلابي الذي تنازلت الى ان تدعوهُ حباً قد.. خلصكم ألم يخلصني انا ايضاً اذ اننا الثلاثة لا نزال على احسن حال واجود صحة وبالنتيجة فليس لاحد ان يعزى التقصير لنفسه ام لخلافهِ

قال الصياد: سبحان من كوّن طبعك يايوسف فانك لا تسلم معنا بشيء

فقال يوسف: احسن واسطة للاتفاق انما هي ان ننسى هذه المادة ولا نتكلم عنها لقد جرى ما جرى ان كان قبيحاً ام مليحاً فلا عودة اليهِ

فقال العلامة ضاحكاً . يا لك من عبيدٍ على القليل لا تتماسك ان تحكي لنا قصتك

قال يوسف : اذا كان لابدَّ من ذلك فعلى الراس والعين ولكن ارغب قبل ان اخبر قصتي في ان اشوي هذا البط المدهن فاني ارى ان الصياد لم يدع رصاصه يذهب باطلًا

فقال لهُ الصياد ان الامر كما قلت

قال يوسف . عن قريب ترى كيف يسلك الصيد الافريقي مع معدةٍ اوربية

وفي الحال شوى يوسف البط على لهيب القصبة واخذ كلٌّ حصةً اما يوسف فكانت حصتهُ وافرة لانه لم يذق طعاماً منذ بضع ايام وبعد ان شرب الشاي والعرق اخذ يقص ما جرى لهُ من الحوادث والوقائع غير انهُ كان يظهر في كلامهِ نوع من الهيجان والاضطراب لكن لم يفلت ملاحظاً لحوادث فلسفه الاعتيادي ولما كان يرى العلامة ان يوسف قد اهتم في خلاص سيده اكثر مما في نجاة نفسهِ كان يمسكهُ بيده علامة المعروف والشكران وبعد ما جره الحديث الى التكلم عن غرق جزيرة البيديوماه فسر لهُ فرغوسن كيف ان هذه الحادثة كثيرة الوقوع في بحيرة شاد

ثم وصل يوسف اخيراً بسياق حديثهِ الى الساعة التي فيها غطس في اللجة وصرخ صراخ اليأس الاخير

فقال . سيدي لقد ظننت اني ولجت لجة الهلاك واذا اتجهت افكاري نحوك اخذت اصارع واخبط خبطاً شديداً وقد عزمت عزماً ثابتاً بان لا اترك نفسي فرصة للابتلاع بدون مجاهدة ومعاندة . واذا ابصرت شيئاً عن بعد قدمين وما هذا الشيء الا طرف حبل مقطوع حديثاً فبذلت جهدي وكدي حتى

وصلت الى ذلك الحبل تمسكتهُ ورأيتهُ لا يتحرّ معي فانسحبت عليهِ واذا انا على ارض صلبة وشاهدت مرساة في طرف الحبل. فبالصواب ادعو تلك المرساة (عن اذنك يا سيدي) مرساة الخلاص فاني عرفتها من مراسي المنصورة ولهذا تبعت اتجاه الحبل الذي دلني الى اتجاه المنصورة وبعد ان كانت شديد العذاب نجوت من السحابة فتشددت قواي وتضاعفت شجاعتي فسرت مدة من الليل وانا مبتعد عن البحيرة ثم وصلت اخيراً الى طرف غاب عظيم فشاهدت هناك حوشاً ترعى فيهِ خيل وهي لا تفتكر بشيء فمن الحياة اوقات يحس بها كل انسان ركوب جياد الخيل ويجري كالخيالة فما امضيت قط برهة للتفكر بل وثبت على جواد وشرعت اجري سريعاً الى الجهة الشمالية. فليس لي ان اذكر البلاد التي لم اشاهدها ولا القرى التي تحتمت المرور بها بل اقول اني جزت الحقول المزروعة وقطعت الآجام والسياجات وسقت حصاني وصرتهُ واوعبت جهدي بالاستعجال فوصلت الى حدود الاراضي المفلوحة وانبسطت البادية امامي فقفات. ولا احلى منها لاني ارى ما امامي وارى من بعيد. وكنت اومل دائماً ان المنصورة تنتظرني بحسب املي ولم ارَ شيئاً حتى وصلت اخيراً في برهة ثلاث ساعات الى محطة عرب ووقعت وقعة الطير في احبولة الصياد وانا كنت الصيد

اعلم يا سيدي دبك ان الصياد لا يعرف قيمة الصيد حتى اصطيد هو بالذات ومع ذلك اذا استطاع فيحترس من مثل ذلك الصيد. هذا وكان العربان تجد في اثري حتى اعيى حصاني واقترب مني احد العربان فانقضضت على فرسهِ وصارعتهُ واخضعتهُ غير اني لم افعل ذلك بغضاً لهُ وعليهِ اومل انهُ لا يريد لي سوءا من قبل ذلك وحينئذٍ شاهدتكما وانتما تعرفان ما جرى بعد هذا فقد جرت المنصورة تابعة اثري ونشلتني كالطائر من الارض. ألم يحق لي ان

اني بكما وبمعروفكما ولباقتكما. اما الان فاسألك يا سيدي هل ما جرى ليس شيئاً طبيعياً بسيطاً جداً وكثير الوقوع وها اني مستعدٌ لان اعيد العمل اذا امكني ان اسعفكما بامر من الامور ولكن كما قلت لك سابقاً لا تستحق المسألة ان نتكلم عنها

قال العلامة: عافاك الله يا يوسف فانك ذات شمائل وطبائع حسنى ما لها من مثيل ولم نخطئ. نحن اصلاً باتكالنا على ذكائك وفطنتك

قال يوسف: على الانسان ان يتبع جري الحوادث فينجوا من المهالك وعندي ان الطريق الايمن لراحة البال هو اقتبال الامور كما تُقبل الينا

وفيما كان يحكي يوسف قصتهُ قطعت المنصورة مسافة بعيدة في تلك البلاد ثم اشار ديك الى وجود اكواخ في الجهة الافقية تظهر كانها مدينة فنظر العلامة الى رسومها وعرف انها قرية تجلة في مملكة دامرغو ثم قال سنجد هناك الطريق التي سلكها برث وفيها انفصل عن رفيقيه ريشردسون واورويك. فكان ريشردسون متأهباً للسير في طريق زندر واورويك مستعداً للانطلاق الى مارادي وكما لا يخفى كما لم يرجع الى اوربا من هولاء السواح الثلاثة سوى برث وحدهُ

فنظر الصياد الى رسم اتجاه المنصورة وقال. فاذاً نحن متجهون نحو الشمال على الخط المستقيم

قال العلامة: نعم نحن متجهون الى الشمال قواماً

قال الصياد: أليس من شان ذلك ان يسبب لك شيئاً من القلق

قال العلامة. ولماذا

قال الصياد لان هذه الطريق توصلك الى طرابلس فنضطر من جرى ذلك ان نطوف الصحراء الفسيحة

قال العلامة : اومل انا لا ندهب الى مدركهنا ولا بهده الطريق المشومة

قال الصياد : وهل من بيتك ان تحل بمكان

قال العلامة : قل يا ديك هل ترغب في زيارة تمبوكتو

قال الصياد : تمبوكتو

قال يوسف : اي نعم لا يسوغ لاحد ان يسافر في امصار افريقية وتفوته زيارة تمبوكتو

قال العلامة : فتكون الخامس او السادس بين رحال اوربا الذين زاروا هده المدينة العجيبة في عواصمها

قال الصياد : فلندهب اذاً الى تمبوكتو

قال العلامة . ولحالة هده دعنا نصل الى بين الدرجة السابعة عشرة والثامنة عشرة من العرض وهناك نتوقع ريحاً موافقة تقدف بنا نحو الغرب

اجاب الصياد . نعم الرأي اما هل بقي علينا مسافة طويلة في جهات الشمال

قال العلامة : علينا مسافة مائة وخمسين ميلاً على الاقل

عندها اجاب ديك : ولحالة هده اود ان انام قليلاً

قال له يوسف . نم يا سيدي وانت يا معلمي اقتفِ اثر ديك فانك محتاج للراحة لاني اسهرتك سهراً زائداً

فاضطجع الصياد في المظلة لما فرغوا فقلما كان يؤثر فيه التعب ولنا نشاطاً زائداً

وفي برهة ثلاث ساعات كانت المنصورة تجوب بسرعة لا مزيد عليها ارضاً مخصبة تعلوها سلاسل جبال شامخة فخمة وتتخللها بعض اوطاد علوها اربعة الاف قدم وتنصب اسماء والظرافة والوعل بخفة وسرعة عجيبة في وسط

غابات من السنط وسات المستحيـة والهليج وشجر العيـل ثم تلي الملوك العامرة لرض كساها دباج النبات مطرزاً بالانوار والالوان وهو بلاد الكلاوص وهؤلاء يلقون على وجوههم براقع من قطن نظير التوارج جيرانهم الذين من يجاورهم لا يأمن على نفسه من الهلكة لشدة شراسة اخلاقهم وغلو توحشهم . في الساعة العاشرة مساء بعد ما قطعت المنصورة تلك المسافة الطويلة وقدرها مائتان وخمسون ميلاً وقفت فوق مدينة كبيرة فكان يرى منها على ضوء القمر قسم بين عامر وعامر وبعض رؤوس مآذن مرتفعة هنا وهنالك تضربها اشعة النور فتظهر بيضاء فالعلامة قد اطلع من حساب علو الكواكب انه قائم تحت خط عرض اغاد

فكانت هذه المدينة قديماً مركزاً لتجارة وسيعة جداً الا انها قد بدات تتقهقر وتخرب قبل ان زارها المعلم برث

اما المنصورة فكانت غير مضطورة عن بعد فاستوت على الارض على مسافة ميلين من اغاد في حقل وسيع مزروع ذرة بيضاء وقضوا الليل بسكون وراحة وفي الساعة الثالثة بينما كانت ريح خفيفة تدفع القبة نحو الغرب لجنوب انبلج الصباح

فاسرع فرغوسن في اغتنام هذا الطالع السعيد فارتفع سريعاً وفرّ هارباً

# الفصل السادس والثلاثون

في معرفة سير المنصورة وفي الاعمال الصادرة عن حكمة وفي الاثقال وفي الامطار المتراكمة وفي عاو والنهر الاسود والسواح كلابرتي وحوفروا وعراي وموسوربرك وليلك ورايي كالية وكلابرتون وحون وريشار لندر

فقضي اليوم السابع عشر من ايار بهدو وسكون وبدون عارض مكدر وعادت تطهر المفازة وكانت ريح معتدلة تحمل المنصورة ما بين الجنوب والغرب بدون ان تميل يمنة او يسرة بل كان ظلها يرسم على الرمل خطا مستقيا لم يشوهه ادنى انحراف او اعوجاج

وكان العلامة قبل سعيه قد جدد مؤونتها ماء اذ كان يخشى انه يمتنع عليهما النزول الى الارض في تلك البقاع المستهدفة لغارات التوارج الكثيرة وكان هنالك السهل المرتفع الف وثمانمائة قدم عن شاطي البحر ينخفض نحو الجنوب واذ قطعوا الطريق المودية من اغاد الى مرزوق الممهدة باقدام الجمال بلغوا مساء الى الدرجة السادسة عشرة من العرض والرابعة ونصف من الطول بعد ان يكونوا قد قطعوا مسافة مائة وثمانين ميلاً من ارض مستوية مملة

في ذلك النهار اتم يوسف اعداد الطعام اخر ما كان عنده من الصيد فأتى للعشاء بشيء من لحم دجاج ارضي مشوي مما يهيج شاهية الاكل لجودته ولذته. اما الريح فكانت تصلح للسفر فعمد العلامة على ان يداوم السير في ليل كان البدر فيه تمما ساطعا. فارتفعت المنصورة الى علو خمسمائة قدم وسارت ليلاً قاطعة مسافة نحو ستين ميلاً بهدو وسكينة لايقلق فيها طفل خفيف النوم

اما في يوم الاحد صباحاً فقد انقلبت الريح فكانت تحمل المنصورة الى

ما بين الشمال والغرب وكنت ترى بعض الغربان تطـير في الهواء وسرب من الشوح تطير بعيدة عنها بعداً عظيماً

فلما نظر يوسف الى هذه الطيور الكاسرة خطر له على بال ان ينبئ معلمهُ على ما رآه من الراي المصيب في اتخاذ مركبتين هوائيتين الواحدة عن الاخرى

فقال . كيف ترى كان حالنا لو كنا في منطـاد واحد . لعمري ان هذه المركبة الثانية هي بمنزلة قارب في البحر توقي الركب من الغرق عند انكسار السفينـة

اجابهُ معلمهُ : اصبت يا صاح غير انني لا اركن الى قاربي كل الاركان لانهُ لا يساوي المركب

قال ديك . وما معنى قولك هذا

قال : معناي ان المصورة الحديثة لا تسوى القديمة اما لان قماشهـا قد بُري واما لان صمغها قد داب على حرارة الانبوبة فاني تحققت تاماً ان الغـاز ليس بكثير الى الان انما معتبر وقد اخذت القبـة بالميل الى الهبوط وقد اضطررت لتثبيتها الى ان ازيد الادروجين عمداً

قال ديك لا حول ولا قوة الا بالله فاني لا ارى علاجاً لهذا الخلل

قال العلامة : بالحقيقة لا علاج لهذا الداء ياصاحبي ديك ومن ثم يحسن بنا ان نسرع في المسير ونتحاشى من وقفات الليل

قال يوسف : أنحن بعيدون من الساحل حتى الان

قال العلامة : اي ساحل يا ولدي وهل نعلم الى اين تحملنـا التقادير فكل ما يمكنني ان اقول لك هو ان تموكتو تبعد عنا مسـافة اربعمائة ميل نحو الغرب

قال . وكم من الزمان يلزمنا للوصول اليها

قال . ان ساعدتنا الريح وصلنا الى تلك المدينة يوم الثلاثاء مساء

عندها اشار يوسف الى سربة بهائم واناس منسرية في الفيافي وقال :
اذًا نصل اليها قبل هذه السرب

ثم انحنى فرغوسن وديك ونظرا خليطًا كثيرًا من كل نوع فكان هناك اكثر من مائة وخمسين جملًا يؤجر الواحد بمائة وخمسة وعشرين فرنكًا من تمبوكتو الى تافيلة حاملًا قنطارًا على ظهره وكلٌّ من الجمال تحت ذنبه جراب يأتي فيه بعره لكي يشعلوهُ في البرية اذ ليس للجمالة وقود خلافه في الفلوات

اما جمال التوارج فهي من النوع الاولى وتصبر على الظماء من ثلاثة ايام الى سبعة وتسير يومين بدون اكل وهي اسرع من الخيل عدوًا وتطيع بحذاقة صوت الخبير الذي هو قائد القافلة فتعرف في البلاد باسم مهاري . فبينا كان العلامة فرغوسن يقص هذه القصص كان رفيقاهُ يحدقان نظرهما الى ذاك الجمهور الغفير من رجال ونساء واولاد يسيرون مشاة على كثائب رمل رخو تغرق فيه اقدامهم ولا يتخللهُ الّا قليل من العوسج والاخشاب الجافة والعليق النابت في بعض نخالهِ وكانت الريح تذري الرمال وتمحو آثار خطواتهم حالًا بعد تخطّطها

فسأل يوسف : كيف تتوصل العربان الى معرفة الطرقات ويتمكنون من وجود الآثار المتفرقة في تلك الفلوات الفسيحة

اجاب فرغوسن : ان العربان قد ربّت الطبيعة عقولهم بذكاء غريزي يهديهم في سبيلهم . فالمحال التي يتوقف عن المسير فيها الاوروباوي تحيرًا وارتباكًا تطوفها العربان بهدًى وطمأنينة فيجدون لهم علائم في الطريق

وتحكيهم ارشاداً في المسير وتكون هذه العلائم لشياء طبيعية كحجر او صمغ عشب او اختلاف لون الرمل وهلمَّ جرّاً

وفي الليل يجعلون الكوكب القطبي دليلهم في الطرقات . ويقطعون مسافة اقل من ميلين في الساعة ويستريحون في الهاجرة . فانظر الآن ما يلزمهم من الزمن لقطع الصحراء وهي مفازة طولها اكثر من تسعمائة ميل . اما المنصورة فقد كانت توارت عن ابصار العربان وقد اولتهم الدهشة من سرعة مسيرها ووَدُّوا لو ماثلوها جرياً. وعند المساء بلغت الدرجة الثانيــة وعشرين ثانية من الطول وقطعت في الليل مسافة اكثر من درجة

واليوم الاثنين قد انقلب الفلك انقلاباً تاماً فاحدث الامطار تهمل وبلا فزادت القبة والقــارب ثقلاً لزعج السواح وعن مثل هذه الامطار الشديدة قد نشأت البحيرات ومستنقعات المياه المعشبة سطح تلك البلاد وفيهـا من النبات الشجرة الصابحة والبوباب والتمر الهندي

فهذه حالة بلاد ضُراي وقراها المعممة باسطحة مقلوبة تماثل القبعـات الارمنية فقلَّ ما فيها من الجمال الَّا انه توجد فيهــا تلال بينها غدران وبرك مياه تخطّها طيور الدجاج الارضي والعرعرة وهي طائرة على سطحها وترى هنـا وهنالك سيول سريعة الجري تقطع الطريق فيلتزم المســافرون ان يجوزوها متمسكين بحبل مركب من اغابين الاشجار القائمة على جانبي السيول وممدود من جهةٍ الى اخرى وغابات مراتع للتماسيح والاوعال والخراطيط

قال العلامة . اوشكنا ان نرى نهر النيجر اي الاسود فان البلدان تتغير هيئتها بقرب الانهار . لان الانهر طرقات جارية كما قيل ومارَّة وراءها الخصب وفيما بعد تأْتي بالتمدن والعلاج هكذا قد نزل النهر الاسود على جانبي صحراء السائع الفين وخمسمائة ميل اكثر مدن افريقية واعظمها اهمية وعمرانا

فاحدت يوسف حركة العجب وقال· ان هذا يذكرني قصة من كان يتعجب من حسن العناية الالهية ويثني عليها جميل الثناء لانها اجرت الانهار في وسط المدن الكبيرة او بالقرب منها مع ان الانهار جرت مجراها قبل انشاء المدن

وكانت المنصورة في الظهيرة تسير فوق قرية غاو وهي الان مجموع اكواخ حقيرة مع انها كانت في القديم مدينة معتبرة بل قاعدة البلاد

قال العلامة· هنا قد عبر برث النهر الاسود لدى عودته من تمبكتو. وهذا النهر الشهير في الاعصار القديمة بشهرة نهر النيل الذي اعزي لخفاء منشائهِ الى الالهة وقد اشغل نظير نهر النيل افكار الجغرافيين في كل زمان وتكابد الباحثون عنهُ مشقات كثيرة وتعرضوا لاخطار وفيرة كما تكابد الباحثون عن النيل

وكان النهر الاسود يجري بين ضفتين منفرجتين وتنحدر مياههُ نحو الجنوب انحدارًا شديدًا اما السواح فكادوا لا يميزون عرجاتهِ العجيبة

قال فرغوسن اني اريد ان احاطكم عن هذا النهر ولو كان الان بعيدًا منا جدًّا فانهُ يجوب بلدانًا شتى ويسمى تارةً نهر الدواليب وتارةً نهر المايو وطورًا نهر قُرًّا وفي بعض محال يدعى باسماء أُخر وكاد يوازي النيل بطول مجراهُ. وكل هذه الاسماء معناها النهر في لغات البلدان التي يجتاز بها

قال كادي. لعلّ المعلم برث سار هنا المسير

قال ديك : كلاَّ بل لما بارح بحيرة تشاد مرَّ باكبر مدن البرنو والتقى بالنهر الاسود في ساي وهي على مسافة اربع درجات تحت غاو ثم ولج اواسط تلك البلدان التي لم يكن تجسسها احدٌ وكان النهر يحدق بها بعوجاته وبعد ما قاسى اتعابًا جديدة مدة ثمانية اشهر وصل الى تمبكتو. اما نحن فانا سلغ

اليها ماقل من ثلاثة ايام ان ساعدتنا الارياح

فقال يوسف . هل عُرفت ينابيع النهر الاسود

اجابهُ العلامة : منذ زمن مديد قد رغب رجال كثيرون في الاكتشاف على النهر الاسود والبحيرات الصابة فيهِ ويمكني ان اذكر لك احدهم من سنة ١٧٤٩ الى سنة ١٧٥٨ عرف ادمسون النهر وبلاد غورا . ومن سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٧٨٨ جاب غولباري وجوفروا بلاد ستيغمبي وصعدا حتى بلاد المغاربة الذين قتلوا صوبية وبريسون وآدم وريلاي وكوشلة وكثيرين غيرهم ممن ساروا حظاً وهلكوا في تلك الامصار ولحق بهم مونغوبرك الشهير خليل ولترسكوت وابن وطنهِ الاسكوسي . فهذا بعثت بهِ الشركة الافريقية من لندرة سنة ١٧٩٥ الى تلك الاطراف فبلغ الى عمبارا ونظر النهر الاسود وقطع مسافة خمسمائة ميل برفقة احد تجار الصيد وعرف نهر غمبيا وعاد الى لندرة سنة ١٧٩٧ . ثم عاد فسافر في ٣٠ ك ١ سنة ١٨٠٥ برفقة صهرهِ اندرسون وسكوت المصوّر وجماعة من العملة فوصل الى بلاد غورا فهناك ضم الى جماعتهِ فرقة عددها ٣٥ جندياً ورجع يبطر النهر الاسود في ٣٠ آب غير انهُ لم يبقَ في قيد الحياة من الاربعين اوربيا الَّا احدى عشر نفراً والباقون قد هلكوا من جراء ما قاسوهُ من المشاق والرزايا وسوء الهواء وقلة الضروريات . وفي ١٦ ت ٢ بلغت اخر رسائل مونغوبرك الى زوجتهِ وبعد سنة اخبر احد التجار من تلك الاطراف انهُ لما وصل الى مدينة بوصا الكائنة على النهر الاسود في ٢٣ ك ١ انقلب فيهِ القارب عباريب النهر ثم نجا من الغرق الَّا انهُ وقع بين ايدي سكان تلك البلاد فقتلوهُ

قال ديك : الم توقف مثل تلك الميتات التعيسة زود الواندين الراغبين في اكتشافات جديدة

قال العلامة : كلاَّ بل اصبحت لهم مهماراً حضهم ليس على البحث عن النهر فقط بل على طلب اوراق المقتول ايضاً . ومن ثم قد اعدُّوا في لندرة سنة ١٨١٦ رسلًا لتلك البلاد وكان من جملتهم الضابط غراي فوصل الرسل الى سنغال ودخلوها في فوتادجالون وزاروا شعوب فولا ومنديك ثم اخذوا بالعود الى انكلترة بدون نتيجة أخرى . وسنة ١٨٢٢ تجسس الضابط لينك كامل امصار افريقية الغربية المجاورة املاك الانكليز وهو اوَّل من وصل الى ينابيع النهر الاسود فبناء على تقريراتهِ ليس لنبع هذا النهر الكبير الّا عرض قدمين

قال يوسف : وما ايسر قفزهُ

قال العلامة : مهلًا ياصاح ان صدقت التقليدات كل من حاول عبار ذاك الينبوع فاورًا امتلأتهُ المياه في الحال ومن رام ان يستقي منهُ ماء ممتنعةُ عن الاستقاء يدهُ غير مطورة

قال يوسف : هل يُحرَّم علينا عدم الاعتقاد كلمة من مثل تلك التقليدات

قال العلامة . ليس بحرام قط لما الضابط لينك فقطع سنة ١٨٢٧ فسيح الصحراء ودخل تمبوكتو ومات محروقًا من اولاد سليمان الحبين عليهِ بالاسلام دون نيل اربهم ولما قُتل لم يبعد عن تمبوكتو الّا مسافة بعض اميال

قال الصياد : وبلادهُ هالك ضحية اخرى صحوها

قال العلامة : فحينئذٍ قام واحد من صناديد الشبان وعقد على اتمام ما كان اعجب واهول الاسفار الحديثة مع قلة ما كان لهُ من الوسائط والمال لنفقات السفر وهو الافرنسي راني كاليه . فبعد ما حاول مرارًا مباشرة هذا السفر سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٤ اعاده في ١٩ نيسان سنة ١٨٢٧ من ريوبونياس وفي ٣ آب وصل الى تيه مضنوكًا منهوكًا من التعب والمرض حتى

لنه لم يبارد السفر الّا في كانون الاول سنة ١٨٢٨ اي بعد ما شرع به بستة اشهر . فاضطر حينئذٍ الى قفلٍ لابساً ثياباً شرقية تقيه عن اخطار المملكة . فبلغ النهر الاسود في ١٠ اذار ودخل مدينة جنه وركب النهر حتى تمبوكتو فوصل اليها ونزل فيها في ٣٠ نيسان . وربما كان قد شاهد تلك المدينة العجيبة اوربي اخر يقال لهُ ايمبر سنة ١٦٧٠ وانكليزي يُسمى وودرت آدم سنة ١٨١٠ غير ان رأي كالية يُعدّ اوّل اوربي اتى باخبــار يقينية عنها . وفي ٤ ايار بارح تلك المدينة سلطانة البرية وفي ٩ منهُ عرف المحل بعينهِ الذي فيهِ قُتل الضابط لينك وفي ١٩ وصل الى الهرواك وبارح تلك المدينة العامرة بالتجارة وجاز تلك الفيافي الرحيبة الواقعة بين بلاد السودان وامصار اوريقية الشمالية مقتحماً فيها اخطاراً شتى اخيرًا بلغ الى تحرو وفي ٢٨ ايلول سافر الى تولون . والحاصل انهُ في مدة تسعة عشر شهرًا جاب اوريقية من غربيها الى شماليهـــا مع ما قاساه من المرض مدة مائة وثمانين يوماً . ولعمري لو كان كالية قد وُلد في انكلترة لكافوه بما يستحق من الاكرام والشرف اسل السواح في هذه الايام كما كافوا الانكليز ابن وطنهم منغوبرك لكنهُ لم يُعتبر في فرنسا الاعتبار الذي حقّ لهُ

قال ديك نعم الرجل وحبذا لو كان رفيقاً لنا ولكن ترى ماذا حلّ بهِ

قال العلامة . انهُ توفي وهو في عمر ثمان وثلاثين سنة من جراء ما قاساهُ من الاتعاب فطن الفرنسيس انهم وفوهُ حق الكرامة بمنحهم اياهُ جائزة الشركة الجغرافية سنة ١٨٢٨ فلو كان في انكلترة لقد أُتحف بجزيل الاكرام وسامي الاجلال ونال حسن السمعة فبينما كان مباشرًا هذا السفر العجيب عمد احد الانكليز على هذا العمل نفسهِ واقدم عليهِ نظيره ببسالة ولكنهُ لم يسعف نظيره وكان القبطان كلابرتون رفيق دنهام فتوصل سنة ١٨٢٩ الى اوريقية من الجهة الغربية في خليج بنين . واخذ يسـير على اثار منغوبرك وليك ووجد في بوصه

الافادات المتعلقة بوفاة اولهما ووصل في آب الى سكاتو وهناك قُبض عليهِ وحجز اسيرًا وقضى نحبهُ بين يدي خادمهِ الامين ريشار لاندر

فسال يوسف ماذا جرى للاندر وكان يهمهُ الاطلاع على امرهِ

قال العلامة: قد تيسر لهُ الاتيان الى الساحل ومن هناك عاد الى لندرة ومعهُ اوراق القبطان وتقرير مدقق عن سفره الخصوصي فاعرض حينئذٍ خدامتهُ للدولة في اتمام اكتشاف النهر الاسود فسافر وحده معهُ اخاهُ جون وهو ثاني ولد لعائلة فقيرة من بلد كورنوايل فسافر كلاهما في النهر فقطعاهُ من بوصا حتى مصبهِ وجرا طولهُ ميلًا فميلًا واطلعا على اريافهِ قريةً فقريةً وبقيا في هذا السفر من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٣١

قال ديك فالمفهوم اذًا من قولك ان هذين الاخوين نجيا من الهلكة وعادا الى اوطانهما سالمين خلافًا لما اصاب عموم المسافرين الى تلك الجهات

قال العلامة: نعم توفقا في هذا السفر غير ان ريشار قد سافر مرة ثالثة الى النهر الاسود سنة ١٨٣٣ ولما بلغ الى قرب مصب النهر هلك بطلقة بندقية لم يُعرف مطلقها. فرأيتما اذًا يا خليليَّ ان البلاد التي تجتازانها قد شاهدت من تسامّوا بسالةً ونشاطًا وكانت المنية واحسرتاهُ على العالم جراء همهم الخطيرة ومروتهم الكبيرة

## الفصل السابع والثلاثون

في البلاد التي في عرصات النهر الاسود وفي منظر حال اومدي العريب
وفي كابرة وتمكتو ورسم المعلم برث وسقوط المدينة عن رونقها القديم
والسير على رحمة الهواء

وكان العلامة فرغوسن مدة ذلك النهار المكرب نهار الاثنين يسلي رفيقيه بقصه عليهم قصصاً شتى عن البلاد التي كانوا يجتازون بها وكانت ارضها مستوية على الاكثر لم تأتهم بصعوبة في مسيرهم ولم يكن شيء يكدر صفاء بال المعلم الا تلك الريح المشومة التي كانت تهب عاصفة من الشمال الشرقي وتبعدهم عن عرض تمبكتو . لما النهر الاسود فيجري شمالاً حتى يصل تلك المدينة ثم يدور كأنهُ فوارة ماء كبير ويصب في البحر الاطلنتيك متفرقاً خلجاناً متفرعة جداً . اما الاراضي التي يكتنفها النهر في عرصاته فمنها عامرة بهية بالخصب ومنها عامرة قاحلة كثيرة المحول . فتلي السهول البائرة حقولاً رحبة يكسوها ديباج المزروعات او بساط الزتم . وفي ارياف السيول والبطاح والبحيرات تعيش بكثرة جميع انواع الطيور العاشقة المياه كالبجع والاوز والبط والمصص وما شاكلها

وترى كل مدة محطة من محطات التوارج المضعين ضمن مظال من اديم فيها تتفرغ نساؤهم للاشغال الخارجة ويحلبن نوقهن ويشربن دخان التبغ بغلايين كبيرة المواقد

اما المصورة فكانت نحو الساعة الثامنة مساء قد تقدمت مسافة ما ينيف عن مائتي ميل نحو الغرب فشاهد حينئذٍ السواح مشهداً جميلاً اورع قلوبهم عجباً وانتهاجاً

وهو ان بعض اشعة من القمر نفذت من خلال الغيوم وانبعثت بين لهاليل السحب وسطعت على جبال همري فجاءت عليها بمطر ثياب بيضاء كالثلج لم يزَ كمطره في مفاعيل النور . ثم تألمت في الفضاء القاتم هيئة اشباح كأنها اطلال مدينة كبيرة دارسة من بناء العصر المتوسط كما تظهر في الليالي الداجية انعكاس الجمد في البحور الجامدة

قال العلامة : هوذا منظر من مناظر اسرار اودلف لعمري ان المصوّر ردكليف لم يقدر ان يصوّر هذه الجبال بمنظر اغرب واهول من المنظر الذي نعاينهُ الآن

اجابهُ يوسف : وحياتي اني لا احب ان اسير وحدي مساء في هذه البلاد المرعبة اطياناً واشباحاً أترى يا معلمي لو لم تكن هذه القعة ثقيلة لحملتها الى بلدي والقيتها على شاطئ بحيرة لوند فتتقاطر اليها النقاشون والمتفرجون افواجاً افواجاً

قال العلامة : ان قمتنا لا تسعها حتى تشغل بالك بهذا الفكر الشاذ غير اني ارى ان اتجاه مسيرنا قد انقلب فلا عاد عفاريت هذا المكان يعارضوننا بل انهم يبعثون لنا ريحاً لطيفة تهب من الجنوب الشرقي فتحملنا الى طريق حسنة

وبالحقيقة عادت المنصورة تسير في طريق تميل الى الشمال . وفي اليوم العشرين صباحاً مرّت فوق مدينة اقنية وبحيرات وغدران تصب جميعها في الانهار الصابة في النهر الاسود وكثير من هذه الاقنية مغشاة باعشاب كثيفة كأنها مراعٍ دسمة فهناك اهتدى العلامة الى الطريق التي سار فيها برث حينما سافر في النهر قاصداً تمبوكتو . وعرض النهر ٤٫٨٠٠ قدم وعلى ضفتيه كثيرٌ من شجر الصبار والتمر الهندي فترتع بهِ سرب الايائل وتتشابك قرونها المحلقة بين الكلاء

فيرصدها التمساح ليثب عليها ويفترسها

وكنت ترى اقفالاً كثيرة من حمير وجمال تسرب تحت الاشجار الجميلة محمولة بضائع واردة من جنة وبعد هنيهة ظهر على عوجة من عوجات النهر حوقة بيوت منخفضة مبنية في منحدرٍ وعلى اسطحتها كمسان علف للدواب أوتي به من الاراضي المجاورة

فلما نظرها العلامة أخذتهُ حركة الابتهاج فهتف قائلاً : هذه كبرى وهي مرفأ تمبكتو فلم تعد المدينة بعيدة عنا اكثر من خمسة اميال

قال يوسف : فطبتَ اذاً نفساً يا سيدي

قال العلامة : قد انشرح صدري يا ولدي وابتهج فؤادي

قال يوسف : الحمد لله على توفيقهِ

وها تمبكتو سلطانة البرية مدينة الخفايا والغرائب التي حارت كأثينا ورومة بمدارس العلماء والفصحاء والفلاسفة قد أخذت تنجلي شيئاً فشيئاً لابصار السواح

وكان فرغوس يتأمل الرسم الذي اتخذهُ بَرْث نفسهُ في سفرهِ وحقق غاية صحته وحقيقتهِ

ورسم المدينة على هيئة مثلث الزوايا فهي منبسطة على سهل رحيب من رمل ابيض ورأسها المتجه نحو الشمال نافذ في جهة من الصحراء . وكاد لا يكون شيء من الاغراس في دوائرها الّا بعض اشجار ذات زهر ونبات العامة وغيرها من نباتات مهذولة صغيرة

اما منظر تمبكتو فهو مجموع كرّات وكمات تظهر بديعاً لعين الناظر فشوارعها ضيقة وعلى حافتيها بيوت ليس لها الّا طبقة سفلية مبنية باجر ميبس على الشمس وبعض اكواخ من قش وقصب منها شكل مخروط ومنها مربعة . وعلى الاسطحة ترى بعضاً من سكانها منصمين اضجاع المرطلين الكسالى

متردين بكساء يهي ثمين ويلبسهم القباء او القريبة. اما النساء فلا يُظهرنَ في تلك الساعة من النهار

قال العلامة. قيل ان النساء حبيلات المنظر. فلم يبقَ آثار من المدينة القديمة سوى ثلاثة مآذن لثلاثة جوامع لان المدينة قد سقطت كثيرًا عن رونقها السالف. ففي الرأس المثلث الزوايا ترى جامع سنكور وايوانهُ الطويل المسنود على قناطر ليست بخاليةٍ من جمال البناء وطامهِ وعلى مسافة منها بالقرب من حي سانقونغو جامع سيدي يحيى وبعض من الدور على طبقتين. فمتى تفتش في المدينة على قصور وبنايات كبيرة فشيخها تاجر بسيط ومنزلة الملوكي ما هو الّا مكتبهُ التجاري

قال ديك. كأني ارى اسوارًا مهدومة من باب النصف

اجابهُ العلامة · نعم قد دكها الفولانيون سنة ١٨٢٦ وكانت المدينة وقتئذٍ اكبر مما هي الآن من باب الثلث لان تمبوكتو كانت منذ القرن الحادي عشر هدفًا لسهام مطامع شعوب كثيرة فتحها التوارج والصنراويون والمغاربة والفولانيون وكانت مركزًا كبيرًا للتمدن والفلاح وكان فيها للعلاَّمة احمد بابا في القرن السادس عشر مكتبة تحوي الف وستمائة كتاب خط يد. اما الان فليست سوى مخزن تجارة افريقية الداخلية يدل ظاهر حالها على انها أُسلمت لرحمة المتوالين وأُصيبت بداء التهاون الآتي منهُ زوال المدن واضمحلالها وتكدّس فيها الردم حتى لا ترى على سطح ارضها المستوية تلال مرتفعة الّا تلك التي رُكم فيها ذلك الردم الماضي

فلما مرت المنصورة فوقها قد بدا فيها بعض الحركة بل ضُرب بالطبل غير ان من كان من اهلها على شيءٍ من العلم لم تسنح له الفرصة المناسبة لمراقبة هذه الحادثة الجديدة اذ دفعت الريح الشديدة السوّاح نحو المفازة فعادوا

يسيرون فوق مجرى النهر الكثير العرجات فمي للحال توارت عنهم تمبوكتو ولم يبقَ لهم منها ألَّا ذكرها

قال العلامة: اما الان فليذهب بنا المولى الى حيث يشاء

اجاب ديك: اللهمَّ نشرط ان يسير بنا نحو الغرب

قال يوسف. لو عدنا الى زنجبار في الطريق التي اتينا بها او جرينا نحو الاوقيانوس حتى امريكا لما كنت لاخشى ضرًا

قال العلامة وضحك يا يوسف لكان يلزمنا اولاً ان نستطيع سبيلًا الى ذلك السفر

قال يوسف. ترى ما الذي يعوزنا لمباشرته

قال العلامة . يا ولدي يعوزنا الغاز لان قوَّة التصاعد في القبة أخذت تنقص شيئاً فشيئاً فيلزمنا اخذ احتياطات كبيرة لكي تحملنا الى الساحل . فاوشكت ان اضطر الى ان اطرح شيئاً من الصورة . لاننا ثقالٌ ثقلًا زائدًا

قال يوسف هاك يامعلمي ثمرة البطالة وانكث النهار بطوله كمن ينجم في ارجوحته . فنسمن ونضخم ونثقل . فان سفرنا هذا من اعمال الكسالى فمتى عدنا الى انكلترة ارعبنا من هزلنا بسمنتنا وضخامتنا

اجاب الصياد لعمري ان مثل هذه الملاحظات لا يأتي بها الا يوسف ولكن مهلا يا يوسف مهلًا انتظر النهاية أتعلم ماذا يقدّرهُ الله علينا . لم نزل بعد بعيدين من منتهى سفرنا ما رأيك يا صموئيل اين نصادف ساحل افريقية

قال العلامة : اني قاصر جدًا عن محاورتك يا ديك لاننا مسلمون الى رحمة رياح متقلبة . غير اني احسب نفسي سعيدًا اذا وصلت الى ما بين سيارة ليوني وپورتنديك . فهناك بلدان واسعة لا بد من ان نصادف فيها بعضا من الاصدقاء

قال ديك . وما اوفر سرورنا عند ما نقابلهم ونهديهم التحيات الودادية .
ولكن ترى هل انا سائرون الى الجهة المطلوبة

قال العلامة . لسنا عالمين على ما يبنى من المسير . هاك البوصلة فترانا
سائرين الى الجنوب وذاهبين الى ينابيع النهر الاسود

قال يوسف . لكانت هذه فرصة حسنة لاكتشافها لو كانت لم تزل مجهولة .
ألا سبيل لنا ان نكتشف لها ينابيع اخرى

قال العلامة : كلا ولكن كن مرتاح البال يا يوسف اني اؤمل ألا
نتقدم الى ذلك الحد

فلما اظلم الظلام رمى العلامة بما بقي من اكياس الصابورة لان القبة لم
تحتملها مع اشتعال آلة الغاز الى اعلى درجة . فكانت القبة وكتور سارت
ستين ميلا في جنوب تموكتو وفي اليوم الثاني اصبحت على شاطئ النهر الاسود
بالقرب من بحيرة ديبو

---

# الفصل الثامن والثلاثون

## في قلق العلامة فرغوسن وفي الجراد وفي انقلاب الريح

فكان مجرى النهر وقتئذٍ منقسماً الى فروع ضيقة سريعة الجري لوجود جزائر شتى في وسطهِ وكانت احداها تحوي بعض اكواخ للرعاة. الا انهُ لم يكن يتيسر للسياح رسم ما كان على طريقهم بوجه الضبط والتدقيق لازدياد سرعة مسير المصورة ولسوء حظهم قد كانت مائلة لجنوب اكثر من ذي قبل وجازت بحيرة داتو بسرعة وحيرة

اما فرغوسن فكان ينقل القبة الى درجات مختلفة من العلو ليحكمها في مجاري رياح غير التي كانت تحملها. الّا انهُ لم ينجح في عمليتهِ ومن ثم قد ترك حالاً هذه المحاولة الزائد من قبلها تلف الغاز بداعي شدة على جوانبها المنهوكة بالارياح. فاستولى عليهِ قلق جسيم لكنهُ وارى اماراتهِ صامتاً. وكانت الريح تلازم دفعها الى جهات جنوبي افريقية وتوقع خللاً في حساباتهِ. لما هو لم يعد يدري عن اوما يعتمد عليهِ فان لم يبلغ الاراضي الانكليزية او الافرنسية وقع في ايدي البرابرة الشائنين الاغارة على سواحل غوينى والله اعلم بما يصيبهُ هنالك من البلايا والرزايا. فلا يعود يتيسر لهُ سفينة يعود بها الى انكلترة. وكانت الريح تقذف بهِ نحو مملكة داهوماي في وسط قبائل فاقت جميع الملاء توحشاً وغطاطة فيترك هناك الى رحمة ملك يذبح في الاعيـاد الجمهورية الوفاً من البشر ضحايا لالهتهِ فمن وقع في تلك البلاد ذهب لامحالة فريسة الهلاك

وكانت القبة من جهةٍ أخرى تعيي اعياءً ظاهراً في مسيرها ولم يخفَ امرها على العلامة لكنهُ كان يؤمل انهُ متى قشع السحاب وانقطع المطر تنقلب

مجاري الهواء في الجو الى ما يُحس جريها فساءهُ اذا ما انبأهُ به يوسف عن حالة الفلك بقوله.

هوذا المطر اوشك ان يتضاعف هطلهُ ويكون هذه المرة طوفاناً عرمرماً على ما تبشر هذه السحب المقبلة

قال فرغوس. لا حولَ ولا قوةَ الّا بالله أسحبٌ هي حقاً وما حاجتنا اليها

فقال ديك. لعمري انها سحبٌ كثيفة

قال يوسف: وحياتي لم ترَ مثلها قط ولها اطرافٌ حادة كأنها مخططة على الريح

ثم أخذ العلامة النظارة ونظر اليها واذ رفع النظارة قال قد اطمأن قلبي لانها ليست سحب

قال يوسف: لله العجب. أليس هذا سحاب

قال العلامة. هذ ليس سحاب بل ضباب

قال يوسف. ما فرق الضباب عن السحاب

قال العلامة. انما ضبابٌ من جراد

قال يوسف وقد أخذتهُ هزة العجب: أهذا جراد

قال العلامة: ان مليونات مليونات من الجراد اوشكت ان تمر بهذه البلاد فالويل لها ان عطفت عليها لقد جعلتها فريسة الدمار

قال يوسف. اني لراغب ان ارى مثل ذلك

قال العلامة: مهلًا يا يوسف فمن الان الى عشر دقائق يدركها هذا الضباب فتراهُ بعينيك. وقد اصاب العلامة فرغوس بقوله هذا لان سحابة هذا الجراد الكثيفة المنتشرة الى مسافة اميال كثيرة وصلت سريعاً الى السواح وهي تدوي دوياً يصم الاذان وتلقي على الارض ظلها الطويل فكانت

جيوشًا لا يحصى عددها من جراد ذات اربعة اجنحة. فعلى مسافة مائة قدم من المنصورة انصبت على بلدةٍ محضرة فما مضى ربع ساعةٍ من الزمان الّا وسحابة الجراد عادت تطير فظهر السواح عن امد الاشجار والآجام مجردة من كل خضراء وغبراء والحقول معراة وقد امست المروج لا عشب لها. فكأن فصل الشتاء قد فاجأ تلك البقعة مفرقها في اقصى المحل والجدب

ثم قال: أرأيت يا يوسف ما كان من هذا الجراد

قال يوسف: ان ذا غريب لكنهُ طبيعي فكما ان جرادة واحدة تتلف يسيرًا كذلك ربوات من الجراد تتلف كثيرًا

قال ديك: وانهُ لخطرٌ وابل بل مهول وأهول من البرَد الشديد دمارًا

قال العلامة: وأهول من هذا جميعه محال التوقي منهُ. احيانًا رأى الاهلون حرق الغابات حتى والمزروعات لكي يتمكنوا من اهلاك هذه الهوام ولكن لم ينجحوا كثيرًا بهذه الطريقة لان الزفوف الاولى تنقض على اللهيب فتمشيه وتطفئه. اما الباقية منها فيمرّ فوقها بغير صعوبة ولا معارضة غير ان الاهالي يستفيدون من هذا المصاب بعض العوض عما يالهم من الرزايا وهو انهم يلتقطون كثيرًا من هذه الهوام ويأكلونها فيستمنونها مأكلًا

قال يوسف: اني اشبههُ بالقريدس الذي في البحر وآأسف لعدم تمكني من دوقهِ لاعلم كيفية هذا الطعام

وكانوا يرون البلاد عند المساء تزداد سباخًا فلم يعودوا ينظرون غابات بل بعض شعب من الشجر. وعلى ضفتي النهر بعض نبات من التبغ ومروجًا ذات عشب كثيف لرعاية المواشي ففي وسط جزيرة كبيرة لحوا مدينة جنة ومأذنتي جامعيها واشتموا الرائحة الكريهة المنبعثة من الوف بالوف من اوكار السوس المنتشرة في اسوارها وفي خلال بيوتها وابصروا رؤوس اشجار البرباب

والصاحة والنخيل . اما اهلها فانهم ذوو عزم وهمة ونشاط لا يزالون النهار والليل في العمل ومدينتهم جنة وسيعة الدائرة وكبيرة الحركة التجارية فتاتي تمبكتو بكل ما يلزمها وتنقل اليها على القوارب بالنهر وعلى ظهور الجمال في الطرقات المظللة بالاشجار جميع محصولات صانعها

قال العلامة : فلولا الحذر من اطالة سفرنا لحاولت النزول في هذه المدينة فلا بد من ان يوجد فيها من العرب من سافروا الى فرنسا وانكلترة فلعلهم لايستغربون مركبتنا انما هذا لا يخلو من خطر

قال يوسف وهو يتبسم : فلأُعلِّ هذه الزيارة الى سياحتنا القادمة

قال العلامة وزد على الخطر . . . اني اشعر بعلة خفيفة للريح ليهب من الشرق فمن الواجب ان نغتنم هذه الفرصة

فرمى العلامة من المنصورة بعض اشياء امست غير مفيدة كبعض قناني فارغة وصندوقا يوضع فيه لحم لم تعد حاجة اليه وتوصل الى انه اقام المنصورة في منطقة انسب للمسير الى حيث يشاء في الساعة الرابعة صباحا كانت اشعة الشمس تضيء سفو وهي عاصمة عبارا المعروفة جيداً بالاربع المدن التي تتألف منها وبجوامعها المزخرفة وتوارد القوافل الناقلة بلا انقطاع سكان المدينة من محل الى اخر . اما السوّاح فلم يُبطروا اكثر مما نظروا فكانوا يمرون بسرعة وعلى الخط المستقيم الى الجهة الشمالية الغربية . وأخذ العلامة يطمأن قليلًا قليلًا من قلقه وبلباله فقال : ان بقينا نسير الى هذه الجهة وبهذه السرعة وصلنا بعد يومين الى نهر سنغال

فسأله الصياد . هل نكون في بلاد امينة

قال العلامة : ليست امينة بالتمام انما اذا نقصتنا المنصورة نستطيع بالحصر ان نصل الى معاقل فرنسوية . وان سارت بعدُ مسافة بعض مئات من الاميال

فانا نصل آمنين من الاتعاب والمخاوف والاخطار الى الساحل الغربي

قال يوسف: أسكون انتهيا من السفر. حاشا لنا فلولا رغبتي في ان اقص قصة سفري لما شئت قط ان القي قدميَّ على الثرا. هل ترى يا معلمي يصدق الناس قصصا

اجابهُ العلامة: ما ادراك يا صاحبي ان كانوا يصدقونها. لكنها لا تزال صادقة اكيدة ان صدقوها ام لا فيكون عندنا الف من شهودٍ عيان يشهدون بسفرنا من ساحل افريقية الشرقي والف يروننا واصلين الى الساحل الغربي

قال ديك. والحالة هذه فاني ارى امرًا عسرًا قول قائلٍ باننا لم نجز افريقية من اقصائها الى اقصائها

قال يوسف وهو يتنهد الصعداء: اه انني متأسف شديد الاسف على قطع ذلك الذهب الخالص فلو حفظناها لزادت كلاما اعتبارًا وقصصنا تصديقًا ولكنت اذا اعطيت كل رجلٍ شيئًا من ذلك الذهب الفت جمهورًا كبيرًا من الناس يسمعون حكاياتي ويتعجبون لخطبي ويستعظموني

# الفصل التاسع والثلاثون

في دنو السواح من سنغال وفي ازدياد المنصورة انحطاطاً وفي الدرويش الحمي وشكال ومصور وكارتوس والجبال الشاهقة وسلاح ديك ولناقة يوسف والوقفة فوق غاب

في اليوم السابع والعشرين من ايار نحو الساعة التاسعة صباحاً ظهر منظر البلاد جديداً فولى الدرجات المنبسطة تلالاً واوتاداً تشرت تقرب الجبال والاكام وازمع السوّاح ان يقطعوا سلسلة الجبال الفاصلة بين مسيل النهر الاسود ومسيل نهر سنغال المؤدّيين المياه الى خليج غويني او الى جون الرأس الاخضر

فان قسم افريقية هذا حتى سنغال مشهور بتوحش اهلهِ واذاتهم للسواح وكان العلامة فرغوس يعرف ذلك من اخبار سلفائهِ الذين قاسوا من العذاب وعانوا اشد الاخطار ما بين اولئك السودان البرابرة وقد هلك رفقاء مونغوبارك من تأثير سوء الهواء وشدة الحرّ في تلك الاطراف فحزم فرغوس جزماً قطعياً بالّا يدوس تلك الكورة التي لا تاتي ضيفها الّا بالاهوال والاخطار

غير انهُ لم يرتح له بال ولم يهدأ له بلبال لكون المنصورة لم تزل تنحط انحطاطاً ظاهراً فاقتضى ان يخفف حملها بطرحه منها اشياء جمة غير لازمة او غير مفيدة ولاسيما عند ما اوشكت تمرّ فوق قمّة من قمم الجبال ولم تبرح على هذه الحال من العلاء ومن الصعود والنزول على مسافة اكثر من مائة وعشرين ميلاً وهي مجدلة تتدحرج دواماً كحجر سيزيف (١) ولما كانت القبة الهوائية

---

(١) زعم الوثنيون القدماء انهُ كان محكوماً على سيزيف في جهنم بان يُصعد من اسفل جبل الى قمتهِ صخراً يتدحرج حالاً من القمة الى اسفل

قليلة الانتفاخ قد ارتخت حواشيها فكانت تمتد طولاً وتضيق عرضاً واخذت الريح تحمل في ملفها طيات وسيعة

قال ديك وهو قد لحظ ما جرى لها. لعل في القبة شق من جهة

اجابهُ العلامة . كلا بل ان طليها قد داب لشدة الحرارة واخذ الادروجين ينصرف من خلال قماشها

قال ديك . وما الحيلة في منع انصراف الادروجين

قال العلامة : لا حيلة في ذلك الّا ان نخفف حملها وهذه هي الطريقة الوحيدة فلنلقِ منها كل ما يمكن طرحهُ

قال ديك وهو ينظر الى قارب القبة . ترى ما الذي نطرحهُ بعدُ هذا القارب فارغ من كل ما كان فيهِ

قال العلامة فلننزع عنها المظلة لان ثقلها ليس بيسير

ولما كان يوسف منوط بهِ هذا الامر صعد فوق الحلقة الجامعة حبال الشبكة وتيسر لهُ هناك ان فصل عنها استار المظلة السميكة ورمى بها خارجاً وهو يقول هاك غنيمة وسعادة لشمل قبيلةٍ من السودان فهذه الاقمشة تكفي لكسوة الف من الاهلين لانهم يشحون كثيراً على القماش في ملابسهم

فارتفعت القبة برهةً الّا انها عادت فيما بعد تهبط وتدنو من الارض

قال ديك : فلنعلمْ ولندرِ ما يمكننا عملهُ لاصلاح هذا الملف

قال العلامة قد قلت لك يا ديك واقول ايضاً ان لا سبيل لاصلاحهِ

قال ديك . فما الحيلة اذاً

قال العلامة : الحيلة ان نضحي كل ما يمكننا ان نستغني عنهُ من الامتعة فاني اريد بلا بدٍّ ان نتحاشى من الوقفة في هذه الجهات لان الغابات التي نحن الآن فوق رؤوسها هي غير مأمونة ومرتعة اخطار المهلكة

قال يوسف · وما اخطارها لعلّ فيها أسد او صباع فلا يُعبأ بهما

قال العلامة · ان فيها يا ولدي ما كان شرًّا من الأُسد والضباع اعني بهِ اناسًا برابرة واسوأ سكان افريقية قساوةً وتوحش

قال يوسف · ومن اين علمنا ذلك

قال العلامة · قد اخبرنا عنهم السواح الذين سلكوا في هذا القطر · ثم الاوربيون سكان مستعمرة سنغال اذ لم يكن لهم بدٌّ من المعاطاة مع القبائل المجاورة على عهد الكولونال فيدرب فوقفوا على اكتشافات قاصية بالبلاد فطافها بعض الضباط منهم اي نسكال ومنصور ولمبرتوس واتونا بالفادات نفيسة عن اسفارهم · فانهم تجسسوا تلك الكور الواقعة في تعريجة نهر سنغال ولم تدعها الحرب والنهب الّا قاعًا صفصفًا

قال يوسف · وماذا جرى فيها

قال العلامة · هاك ما جرى · ظهر سنة ١٨٥٤ شيخ سنغالي من فوطا يقال لهُ الحجي وادعى النبوة والقى الفتنة بين القبائل وحملهم على محاربة الكفار اي الاوربيين وانزل ويلات الدمار والخراب في ما بين نهر سنغال ونهر فليمة الصاف فيهِ فاقام ثلاث عصابات من اولئك القوم الرفاض وطاف بهم البلاد ينهب ويقتل كل من صادفهُ ولم يعفُ عن قرية ولم يسلم من شرهِ دارٌ ولا كوخٌ حتى ولج في وادي النهر الاسود وبلغ مدينة سغو وتهددها زمانًا طويلًا بالخراب · وسنة ١٨٥٧ عاد الى جهات الشمال برجالهِ واحاط بقلعة مدين التي بناها الافرنسيون على شاطئ النهر فدافع عن هذه القلعة رجل صنديد يقال لهُ بولس هول عدة اشهرٍ ولبث ثابتًا يحميها من شر الحجي ورجالهِ وما كاد عندهُ قليل من القوت حتى وصل اليهِ الكولونال فيدرب ونجدهُ وانقذهُ من الهلكة · فبعدها رجع الحجي وجماعتهُ عنهُ وجاوزوا سنغال وعادوا الى كرتا ينهبون

البلاد ويقتلون العباد والحاصل ان هذه هي البلاد التي لجأ اليها هو وجماعته واحتموا فيها ومن الثابت انهُ لا يحسن بنا اصلًا الوقوع بين ايديهم

قال يوسف : لا سمح الله ان نقع بين ايديهم ولو اقتضى ان نخلع عنا احذيتنا ونرمي بها الى الثرا لترفع المنصورة في الفضاء

قال العلامة : لم نبعد من النهر لكنني أرى ان القبة لا يمكنها حملنا الى ما وراهُ

اجاب الصياد : فلنصلنّ الى شاطئهِ وحسبنا توفيقًا في المسير

قال العلامة . هذا ما نحاول صنيعهُ غير انهُ يقلقني امرٌ واحد

قال الصياد . وما هو

قال العلامة . ان امامنا جبالًا ينبغي ان نقطعها ويشق علينا قطعهـا لانني لا اقدر ان ازيد قوة التصاعد في القبة ولو اتيتها باعظم ما يمكن من الحرارة

قال الصياد : فصبرًا جميلًا . علينا بالانتظار لنرى ما يكون في آنهِ

قال يوسف وهو يتأسف على حالة المنصورة : مسكينـة المنصورة اني تعلقت بها تعلق النوتي بسفينتهِ فلا انفصل عنهـا بدون ضيم وكدر . ولكن ما الحيلة فانها ليست كما كانت عند بداية سفرنا فلا باس علينا ولا ينبغي ان نقول فيها سوءًا لانها اتتنا بخدامات سنية وان هجرتها قد اسطر فؤادي عليها غمًّا

قال العلامة . ـ كن طيب الخاطر يا يوسف ان تركناها فلا عار علينـا لانا نتركها رغم انفنا فتخدمنا حتى تنزف جميع قواها فاني اطلب منها ان تخدمنا بعدُ اربعة وعشرين ساعة

فأخذ يوسف يتفرس فيها وقال : قد خارت قواها وانحلت وكادت روحها تزهق واسفاهُ عليها

قال الصياد · يا معلمي صموئيل انظر الى الافق · اني ارى جبالًا · لعلها الجبال التي ذكرتها

فاخذ العلامة نظارتهُ ونظر بها الى الافق ثم قال : هذه هي بعينها واراها شاهقة فيشق علينا قطعها

قال الصياد : ألا يمكننا ان نتحاشى من المسير فوقها

قال العلامة · لا اظن لانها تشغل مسافة كبيرة من الارض وهي نحو نصف امتداد الافق

قال يوسف : ويتراأى لي انها تتزاحم حولنا وتحلق بنا يمنةً ويسرةً فلا بدَّ لنا من المرور فوقها

وكانت هذه الجبال تستبين سائرة لملاقاة السواح وتقترب منهم بسرعةٍ لا مزيد عليها او بالحري كانت الريح عاصفة تقذف بالمصورة نحو القمم الرفيعة فكان لا بد لها من الارتفاع على كل حال والَّا صدمت الصخور وتلفت

قال فرغوسن · فلنفرغنَّ صندوق الماء ولا نبقِ منهُ الَّا ما يلزمنا للشرب يومًا واحدًا

فافرغهُ يوسف وقال · هاك افرغناهُ

فسأل الصياد : هل ارتفعت القبة

اجابهُ العلامة : قد ارتفعت قليلًا اي مسافة خمسين قدما ولم يكن العلامة يحول نظرهُ عن ميزان الهواء غير ان هذا الارتفاع غير كافٍ لحمايته خطر مصادمة الجبال · وبالحقيقة ان القمم الشاهقة كانت تصادر السواح كأنها واثبة عليهم لتطبق على رؤوسهم · وكانوا يبعدون عن علوها مسافة خمسمائة قدم

فرموا من القبة ايضاً عزنة الماء اللازمة للانبوبة ولم يبقوا منها الَّا قليلًا ولم يكن هذا التخفيف كافيًا

قال العلامة · فلا بد لنا من المرور فوق الجبال فما الحيلة

قال ديك · فلنلق عنا الصناديق حيث افرغناها

قال العلامة : القوها

فالقاها يوسف وقال : آهاً على الخسارة ما امرّها

فقال له العلامة · يا يوسف لا تخاطرنّ في حياتك لاجلنا كما صنعتَ فيما مضى احلف لي انك لا تفارقنا

قال يوسف : طِب نفساً يا معلمي انا لا نفارق بعضنا بعضاً

اما المصورة فقد زادت صعوداً نحو عشرين قامة لكنها لم تزل منخفضة عن قمة الجبل وكانت هذه القمة شبه مسلة منتصبة قائمة في رأس جبل شامخ كأنهُ مخروط بالبيك وكانت تعلو السواح مسافة مائتي قدم

قال العلامة في نفسهِ · من الآن الى عشر دقائق يصدم القارب هذه الصخور ويتحطم بها اذا لم يتيسر لنا ان نرتفع فوقها

قال يوسف · والان كيف الحال ياسيدي صموئيل

اجابهُ العلامة · اطرح كل هذا اللحم المثقل على القفة ولا تبقِ الّا مونتنا من مربّى اللحم

فطرحوا اللحم الآخر وخفت القفة من ثقل خمسة وعشرين رطلاً فارتفعت ارتفاعاً ظاهراً ولكن ما الفائدة طالما لا تعلو قمم الجبال وعليهِ كانت المصورة في حالةٍ تلقي شديد الرعب والهول في قلوب السواح اذ كانت تسرع سرعة الطير فلو لطمت الصخور لتمزقت اربًا اربًا

فنظر العلامة الى ما حولهُ في القارب فوجدهُ كأنهُ فارغ ويكاد الّا يكون فيهِ شيء

فقال لديك : ان اقتضى الامر ينبغي ان تكون مستعدّاً لطرح اسلحتك

فلما سمع ديك هذا الكلام ارتجفت جميع اعضائه واجاب . هل ترى اعني اسلحتي

قال له العلامة : يا صاحبي لا يخطرنّ على بالك اني اطلب منك تضحية اسلحتك بدون ضرورة قصوى

قال ديك : صونيل صونيل . وانقطع كلامهُ لشدة حركة الكدر

قال له العلامة : ان نجاتنا من الهلكة موكولة على تخفيف القنة من ثقل اسلحتك ومونة البارود والرصاص

ثم هتف يوسف قائلاً : قد قربنا قد قربنا عشر قامات فقط . هيا يا رجال ان الجبل يعلو المنحدرة مسافة عشر قامات ايضاً . قال هذا واخذ الاعطية ورمى بها الى الثرا ثم رمى بجملة حعب مملوة رصاصاً بدون استشارة كادي

تصعدت القنة وجازت القمة الخطرة وصار قطبها الاعلى بأشعة الشمس اما القارب فلم يزل اوطى من الصخور العظيمة التي ارمع ان يلطمها ويتحطم بها لا محالة

فصدها صاح العلامة : ديك ديك ارمِ باسلحتك والّا هلكنا

قال يوسف : مهلاً يا سيدي ديك مهلاً

فالتفت ديك فرآهُ قد توارى خارج القارب . فصاح به : يا يوسف يا يوسف

ثم صاح العلامة واسفاه على يوسف

فكانت مساحة قمة الجبل في ذاك المكان نحو عشرين قدماً ومن الجهة الاخرى كانت منحدرة قليلاً فوصل القارب على تمام مساواة هذه القمة المبسطة وزحف على ارض مخصبة فسمت قعقعة الحصى عروره

فصاح واحد من الرفاق قائلاً : الحمد لله والشكر لله مررنا ونجونا من

الخطر . فسمعهُ وعوس وطفح قلبهُ سرورًا اذ كان يوسف الشهم الشديد البأس الذي رمى بنفسهِ الى الثرا ولبث شابت اليدين بطرف القارب الاسفل واخذ يسير بقدميهِ على قمة الجبال محمقا على هذا النحو عن القمة ثقل جسمهِ حتى كان مضطرًا الى ان يشد بيديهِ عليها لئلا تتعالى وتفلت من امامهِ

فلما وصل الى منحدر الجبال واشرف على الهاوية قد تسلق متمسكا بالحبال تمسكا شديدًا فجاء حذا رفيقيهِ في القمة وهو يقول ما اسهل هذه الحيلة وما احسن ما قالهُ احد الادباء . واذا جار عليك الدهر فليكن عندك حيلة

فصدعها ناداهُ العلامة وقلبهُ يخفق بهزة الفرح : عافاك الله يا يوسف حبيبي عافاك الله لا ثكلتك امك

اجابهُ يوسف وهو يتفكه بالكلام . لم اعمل ما عملتهُ بشأنكم يا سيدي بل بشأن قرابينة الموسيو ديك . فاني كنت مديونا لهُ بهذا العمل منذ واقعة الاعرابي . فأحببت وفاء ما عليَّ من الدين فوفيتهُ واصبحنا الآن على سوية حال وراحة بال قال هذا وقدم للصياد قرابينتهُ التي كانت عندهُ اعزَّ شيء في الدنيا وقال لهُ . لكان قد شق عليَّ جدًا لو رأيتك خاليًا منها

اما كادي فشدَّ على يدهِ علامة الوداد ولم يدعهُ الفرح يفوه بكلمة

فمن بعد ذلك لم يكن للمصوزة الاَّ ان تهبط متحمصة وكان انخفاضها من ايسر الامور . فما مضى برهة من الزمان الاَّ وُجدت بعيدة من الثرا مسافة مائتي قدم فقط وصارت تمام موازنتها وكانت الارض تستبين كأنها مصابة بالزلزلة وكان عدم مساواة سطحها ياتي بموانع تعسر مخانتها ليلًا بحركة هوائية لم تعد تاتي ادارة مديرها . فلما جنَّ الليل حرم العلامة على الوقوف حتى الصباح رغمًا عن اشمئزازهِ من المبيت في ارض تلك البلاد

فقال العلامة : هيوا بنا نفتش على محلٍ مناسب لنقف فيهِ

اجابة كادي مجاً يا سيدي اراك حرمت على الوقوف في هذه الارض

قال العلامة نعم لاني قد امعنت فكري ذلك وتحصرت فيه زمانا طويلاً فاريد الان ان ابرزهُ الى حيز العمل . فالان الساعة السادسة فقط بقي ادا لنا زمن للعمل . فالقِ المرساة يا يوسف

فامتثل يوسف امرهُ في الحال والقى المرساة وكانت مدلاَّةً تحت القارب

ثم قال العلامة : اني ارى غابات فسيحة يجب علينا ان نسرع الى فوق قممها ونقف متشبثين على رأس شجرةٍ من اشجارها . لاني لا اريد قط ان ابيت الليل على الارض ولو ملكوني هذه البلاد برمتها

قال ديك : أنستطيع النزول

قال العلامة . وما الفائدة من نزولنا وقد قلت لكم ان في اعمالنا خطرًا على حياتنا . غير اني استعين بكم على عمل عسير

اما المنصورة فكانت تطفو في الهواء فوق قمم الغابات المشار اليها ولم تطوِ ان وقفت فجأةً لان مرساتها قد تعلقت ولما سكنت الريح مساء لبثت كأنها جامدة فوق تلك الرياض الخضراء المتألفة من رؤوس اشجار غابةٍ من الجميز

## الفصل الاربعون

في المنازعة بينهم على الشهامة واخر رزوهم والة النسيج ولباقة يوسف
وما جرى بنصف الليل وهجمة الملامة وهجمة كادي وتباعه
والحريقة والنسيج والعويل واخطاء طلقات الرصاص

وجد الملامة فرغوسن يبحث عن مركز القبة فوجدها بقياس علو النجوم
بعيدة عن سيعال نحو خمسة وعشرين ميلًا فقط

فبعد ان علّم خارطتهُ قال حل ما يمكنا عملهُ يا خليليّ اما هو ان نجور
النهر. وحيث لا جسر للنهر ولا قوارب لنا قد تحتم علينا ان نجوره بالقبة ولهذا
لزمنا ايضًا ان نخفف حملها

اجاب الصياد وكان يخاف على سلاحهِ. لا ادري باية طريقـةٍ نتوصل
الى تخفيفها الّا ان يتهجم احدنا على النزول منها ويبقى ورانا .... فانا مقدم
ذاتي الى هذه الخدمة لان هذه المرة قد جاءت نوبتي

جاوبهُ يوسف. قد اخطأ سهمك، انا المعود على مثل هذا العمل

قال لهُ الصيـاد: ليس المقصود هنا يا صاح الانحدار من القبة الى
اسفل بل السير مشيًا حتى الساحل اما انا فصيـاد متين واعد نفسي اشد
منك جريًا فهذا عملي

اجابهُ يوسف. وحياتك لا يقدم على هذا العمل غيري

قال فرغوسن لا فائدة يا صاحبيّ من نزاعكما على المروّة. لاني اومل
الّا نتوصل بنا الحال الى حدّ هذه الشدة. ومع ذلك اذا اقتضى الامر لا
نفترق ابدًا بل ننحدر جميعًا ونجتاز بهذه البلاد معًا

قال يوسف: لا اصوب من هذا الراي فلا بأس من بعض المشي في
هذه الاراضي

اجاب العلامة · هلموا نبادر قبلاً الى اجراء احزم ما بقي لنا من الوسائل لتخفيف ثقل المصورة

قال كادي وما عسى تكون هذه الطريقة ينبغي ان اعرفها

قال العلامة · يلزمنا ان نرفع عن المصورة ثقل صناديق الاسوية والآلة الكهربائية والحية · وكل هذا يزن نحو نصف قنطار يعسر حمله في الفضاء على اجنحة الريح

قال كادي · يا صموئيل كيف يتيسر لك بعد ذلك نشر الغاز وتوسيعه

قال العلامة : لا يتيسر لي غير اني استغني عنه

قال كادي · وكيف ذلك

قال العلامة : يا صاحبي اني قد صرفت حساب ما بقي للمصورة من قوة التصاعد فوجدتها كافية لتحملنا معا بقي لنا من الامتعة القليلة فيكاد ثقلنا يوازي قنطارين مع الرساتين اللتين انقيهما

اجاب الصياد · سيدي الحبيب صموئيل انك اعلم منا في هذا الامر ونصيبك وحدك الحزم والتدبير في امر المسير قل لنا ما يجب عمله فانا لك طايعان ولامرك خاضعان

قال العلامة قد قلت لكما ايها الاحباء لا بد لنا من تضحية آلاتنا مهما كان الاعتماد عليها باهظاً كبيراً

اجابه كادي : ضحها ولا بأس

قال يوسف : هلمّ بنا للعمل

ولم يكن ذلك عملاً من صغار الاعمال اذ يلزم تفكيك الادوات قطعةً فقطعةً فرفعوا صندوق المزج ثم صندوق الانبوبة اخيراً صندوق حلّ عنصريّ الماء · وقد تواطىء الثلاثة السواح وجدّوا بتمام عزمهم حتى تمكنوا من خلع

الاوعية المحكمة بالقارب . فكان كادي ذا عزم شديد ويوسف ذا لباقة وباعة وحتونيل ذا حذق ودراية حتى انتهوا من عملهم بغاية التوفيق والنجاح

فالقوا هذه القطع شيئاً فشيئاً خارج القبة فسقطت على اوراق الحمير حارقة فيها حرقات فسيحة

قال يوسف ان السودان يأخذهم العجب لدى مصادفتهم هذه الاشياء في الغابات ولا يبعد انهم يصنعون منها اصناماً يعبدونها

ثم بادروا الى الشغل بتفكيك الانابيب المنشأة بالقبة والموصولة بالحية اللولبية فتيسر ليوسف ان قطع الصلات الصمية على علو بعض اقدام فوق القارب . اما الانابيب فكان فصلها متعسراً لانها كانت موصولة بطرف القبة الاعلى ومحكمة بشرائط من نحاس اصفر في نص دائرة مسد الغار

فصلها ثم يوسف عن ذراع لناقته العجيبة وخلع نعليه من رجليه حذراً من ان يعطل نسيج القماش بحذائه وتمسك بالشبكة الملتفة بها القبة وشرع يتسلق الى ان بلغ قمة المنصورة الخارجة وهناك تمسك باليد الواحدة في ذلك السطح الزلق وبالاخرى بعد كدّ كديد وجدّ جهيد قلع البراغي الرابطة للانابيب . فحينئذ تفككت الانابيب بسهولة ونحت من الطرف الاسفل الذي سدّت ثغرتهُ سدّاً محكماً بعقدة شديدة

فما تخففت المنصورة من هذا الحمل الكبير استوت في الهواء واوترت حبل المرساة بشدة

فجرت كل هذه الاشغال نصف الليل بغاية التوفيق لكنها قد كلفت الفعلة اتعاباً ومشقات لا مزيد عليها . ثم تناولوا على جناح السرعة ما تيسر لهم من الطعام النيء لان العلامة لم يعد عنده نار يطبخ بها يوسف طعاماً

غير ان يوسف وكادي قد اعياهما الشغل . فقال لهما فرغوسن اضطجعا

ونام يا صاحبي . فانا اسهر الهجعة الاولى وفي الهجعة الثانية ارقظ كادي ليسهر هجعته والهجعة الثالثة كادي يوقظ يوسف ويساور الساعة السادسة ويسأل ربي العباد ان يرفقا بين عنايته في هذا النهار الاخير

فدون ان يكرر عليهما العلامة امره قد اصطجعا وناما في قعر القارب واسرع اليهما النعاس فاستغرقا في السبات

وكان ذلك الليل هادئاً والفلك صافياً الا ان بعض غيوم كانت تحيم على القمر البالغ ربعه الاخير فكادت اشعته لا تبعد ظلالها وكان فرنوس متكئاً على طرف القارب يجول نظره الى ما حوله ويسهر متيقظاً على اوراق الشجر الغضة المسطحة تحت قدميه حاجبة نطاقها منظر الارض . ويجفل من ادنى حركة ويتقصى علة كل حفيف وهرير

وكان في هذه الحال يزداد باله قلقاً وتشوشاً لوجوده في مغارة مرعبة فاهدت الاهوال تدركه والقلاقل تشغل دماغه لان المخاوف تزداد هيجاناً والرعشات ثوراناً عند ما يكون السائح دنا من نهاية مثل هذه السياحة وقاسى مشقات ومخاطر شتى . ففيما يقارب نهاية السياحة يتخيل له الميعاد فاراً من امامه

زد على ذلك ان حالتهم كانت تنبي الاطمئنان اذ انهم في وسط بلاد برية ومتعرضون في كل وقت لخطر فقدان ما كان لهم من الواسطة الوحيدة لخروجهم منها . لان العلامة لم يكن يركن اركاناً قطعياً للقبة الهوائية اذ لم تعد كما كانت فيما مضى حين كان يديرها بكل طمأنينة وهي تابي ادارته

وفيما كان العلامة فريسة لهذه الهواجس تراءى له احياناً انه يحس بدوي في تلك الغابات الرحيبة حتى خيلت له نار مشبوبة بين الاشجار فدقق نظره

حيث تحيلها ثم تناول طارته الليلية وطرحها الى تلك الجهة فلم يرَ شيئًا بل ظهر له انهُ قد انقطع الدوي وزاد الهدء والسكينة

فتحير وخطر على باله ان قومًا يرصدونهُ خفية ليغدروا به فلبث يتوجس ويتسمع ولم يشعر بادنى حركة فمضى وقت محمته وايقظ كادي وامرهُ بشديد التيقظ والسهر واضطجع حذا يوسف المستغرق في النوم

اما كادي فاخذ يفتح عينيه تعبًا وهو على اتم الهدو والرواق ويفرك عينيهِ اذ كان يشق عليهِ فتحهما من شدة النعاس ثم سند راسهُ الى كوعهِ واخذ ينفخ بغليونهِ مثيرًا منهُ الدخان كالمحاح لكي يطرد من صدره عفريت النعاس

وكان كل ما حولهُ في هدء وسكينة الّا نسيم لطيف يثني افنان الاشجار ويهز القارب هزًّا خفيفًا ويزيد على الصياد سطوة النعاس المستولي عليهِ رغمًا عن ارادتهِ فعمد لمقاومتهِ بعزم وكثيرًا ما كان يفتح مقلتيهِ ويطرق حينًا بعد حين بنظرهِ الى الظلام فلا يرى فيهِ شيئًا اخيرًا تغلب عليهِ التعب وساط عليهِ النعاس. الّا انهُ لم يدرِ كم من الزمن مكث في راحة النوم عندما ايقظهُ تكتك حريق. فهب من رقاده ففرك عينيهِ ونهض على قدميهِ فشعر بحرارة شديدة في وجههِ من النار المضطرمة في الغاب

فصاح وهو لا يدري علة هذا السعير النار النار

فهب صاحباه من رقادهما وصاح صمونيل مرتعدًا: ما هذا

قال يوسف. هذه حريقة ولكن من تراه قد...

وعندها سُمع صوصاء وصخب تحت اوراق الاشجار المضية باللهيب

فصاح يوسف: قاتل الله هؤلاء البرابرة فانهم قد اضرموا النار بالغاب ليحرقونا لا محالة

قال العلامة . لا شك ان هذا عمل جماعة الطلبة اي مشائخ العجمي

وكانت النار تحدق بالمنصورة وتسمع قرقعة الحطب اليابس وعيدان الاغصان الخضراء وكل حي من ذلك النبات يتقوس ويلتف في العصر المبيد ولم يكن يعاين الطرف الا بحرًا من لهيب والاشجار الكبيرة تستحيل الى سواد في وسط الاتون واغصانها معشاة جمر نار مضطرمة وكان هذا اللهيب والحريق ينعكس ضياؤهُ على الغيوم حتى خيل للسواح انهم قائمون في وسط دائرة من نار

فصاح هكادي . الفرار الفرار على التوا ما من سبيل خلافهُ للنجاة

اما ورعوسن فمسكهُ بيده مسكًا متينًا ووثب على حبل الرساة فقطعهُ بضربة فاس وما زال اللهيب يمتد نحو القبة وكان دنا منهـا حتى صار يلدغ جوانبها المعية . فلما تخلصت المنصورة من قيدها صعدت في الهواء وتعلت ما ينيف عن مسافة الف قدم

فعندها علا صراخ وضجيج هائل من قعر الغاب ثم ولاه طلقات بنادق فلم تصب القبة بل اخذ الهواء يقذف بها نحو الغرب حتى اصبح الصباح وبلغت الساعة الرابعة بعد انتصاف الليل

# الفصل الحادي والاربعون

في حماة الطلة ومطاردتم السواح واعتدال الريح وانحصاص المصورة واخر موتهم ودفاعهم بطلق السادق وعر بسمال وشلالات عوبي والهواء الحار والحار المهر

قال العلامة · لولم نخف حمل المصورة البارح مساء لكنا هالكين لا محالة

اجابه يوسف · ما احكم عمل الامور في اوقاتها · فان عاقبتها النجاة من الهلكة وما في ذلك من عجب

قال فرعوس · لم نأمن بعد من الخطر

قال ديك · لاتخف يا سيدي ان المصورة لاتنحدر على الثرا بدون اذنك وان افترضنا انها تنحدر ترى ما تكون عاقبتها

قال العلامة · تسألني ما تكون عاقبة انحدارها يا ديك · انظر الى ما وراءك

فنظر ديك وكانت السواح قد جازوا حدود الغاب فرأوا موكباً من فرسان لابسين سراويل كبيرة وعلى اكتافهم برانس تعوم في الهواء وجميعهم مسلحون بعضهم برماح وبعضهم ببنادق فيجرون الى جهة سير المصورة السائرة في الهواء سيراً معتدلاً

فلما نظروا السواح عووا عواء الذئاب الكاسرة مشرعين اليهم الرماح وعلى سحناتهم السمرا تلوح امارات الغضب والوعيد ومما يزيد منظرهم توحشا لحى لهم متفرقة الشعر لكنها مقشعرة · فجاروا بدون عناء تلك الهضاب المحصصة وتلك الدرجات المعرجة المودية الى بسمال

قال العلامة : هؤلاء هم جماعة الطلة القوم القساة شيوخ الحي الوحوش

الكاسرة . واني لاوثر القيام وسط غاب تحدق به الضباع من ان اقع بين ايدي هؤلاء الاشقياء

قال كادي الحق يقال ان هؤلاء القوم ليس على وجوههم امارات الصلح والسلام . بل ان هيئتهم تنبئ عن جسارة فيهم وشدة بأس وشر اقتحام

اجاب يوسف . الّا ان هؤلاء الوحوش ليسوا طائرين وهذا من حسن حظنا ويمن التوفيق

قال فرغوسن . انظرا يا خليليّ هذه القرى الدارسة والبيوت المحروقة . فهذا عملهم . وقد انزلوا الدمار والبوار في الاراضي العامرة والبقاع الناضرة

اجاب كادي . مهما كان من امرهم لا يقدرون ان يدركونا واذا تيسر لنا ان نجعل النهر فيما بيننا وبينهم امنا من شرهم وعرارهم

اجاب العلامة . قد اصبت يا ديك انما الاهم ما يكون الا التحاشي من الهبوط

قال هذا وهو ينظر الى ميزان الهواء

اجاب كادي : كيفما كان الحال لا بأس من ان نعدّ اسلحتنا

قال يوسف . ما في ذلك من محذور يا ديك . وقد احسنا بعدم نبذها على الطريق

فصدها صاح الصياد : ايم الله ان قرابينتي لن تفارقني . وقد حشاها بمزيد الاعتناء وكان بقي عنده من البارود والرصاص كمية وافرة

فسأل العلامة : ترى يا فرغوسن ما علو المصورة

قال العلامة . نحو سبعمائة وخمسين قدماً . انما لم يعد في مكنتنا ان نصادف مجاري ارياح توافقنا صعودًا او نزولًا بل اننا سائرون على رحمة القبة

قال كسادي : لا حول ولا قوة الَّا بالله . ان الريح خفيفة فلو صادفتنا عاصفة مثل تلك العواصف التي اصابتنا في الايام الماضية لفاتت هؤلاء الاشقياء عن نظرنا منذ الان

قال يوسف . ها ان هؤلاء الاشرار تائهون لنا هيئةً كأنهم يتنزهون في متابعتنا

قال الصياد لو كنا على مسافة رمية رصاص لكنت اتنزه في ردّهم واحدًا فواحدًا

اجاب فرغوسن اي نعم ولكن لكانوا هم ايضًا على رمية رصاص منا ولكانت المنطاد ايسر هدف لطلقات بواريدهم . فاذا ما مزقوها بالرصاص تأمل اي مصير يصير حالنا . حمانا الله من مثل هذه الدواهي

اما جماعة الطلبة فلم يزالوا يتابعون السواح في مدة كل ذلك الصباح . وكانت القبة قد قطعت مسافة خمسين ميلًا نحو الغرب قبل الساعة الخامسة وكان العلامة يراقب الفلك ويدقق النظر في ادنى الغيوم المرتفعة في الافق ولا يزال يتوجس تغيرًا في الجو . ويقول في ذاته . ما يكون حالنا اذا ما دفعتنا الرياح نحو النهر الاسود

هذا وكان يرى القبة تميل الى الانخفاض ميلًا ظاهرًا وقد كانت انخفضت منذ سفرها مسافة اكثر من ثلثمائة قدم وسمال تبعد عنهم نحو اثنى عشر ميلًا فيلزمهم من الوقت للوصول اليها ثلاث ساعات على معدّل سيرهم الحاضر

فطرق سمع العلامة حينئذٍ صياح وضجيج جديد فاصغى وتفرَّس فرأى خيالة الطلبة يجدون في تعجيل جري خيلهم

فنظر العلامة الى ميزان الهواء فعلم علة هذا العواء والضوضاء

قال كادي لعلَّ القنة تخص

اجاب ورعوس نعم

قال يوسف نعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وما مضى ربع ساعة من الزمان الّا قد امسى القارب على مسافة مائة وخمسين قدماً من الارض. اما الريح فازدادت قوّة

فاستكدت جماعة الطلبة جيولهم جريا وسمع في الحال طلقة بواريد في الفلاء.

فصاح بهم يوسف. خطأت طلقتكم يا هم انا يحس ما ان نعد عنا هؤلاء الانذال

قال هذا وصوب بارودته الى واحد من الخيالة السابقين واطلقها لخاء الرصاص به فسقط يخبط بدمائه على الثراء فوقفت ارفاقه واخذت المخورة بالمسير ففاتتهم

قال كادي اراهم دوي تحط

اجاب العلامة. نعم لانهم موقوف قبضهم علينا واذا نزلنا بعدُ نالوا مأربهم منا. ومن ثم لابد لنا من الصعود

قال يوسف. وما نلقيه من القنة لتخفيف حملها

قال العلامة. يبغي ان نرمي منها نكل ما بقي من مؤونة من لحم فان وزنهُ يساوي ثلاثين اقة يبغي ان نتخلص منهُ

فاسرع يوسف بامتثال امر العلامة ورمى به قائلاً هاك يامعلمي رميت ولا اسف عليه

وكان القارب يكاد يمس الثرا ومن بعد هذا ارتفعت القنة واخذت جماعة الطلبة بالضجيج والصراخ. اما المخورة فعادت بعد نصف ساعة تخص

بسرعة والغار يتصرف لحلال الفطاء

فانحص القارب الى الثرا حتى كاد يمسها بروده فاسرعت جماعة الطلبة نحو القبة وارشكوا ان يصلوا اليها ولكن قد حدث حينئذٍ ما من عادته ان يحدث في مثل هذه الظروف وهو ان القبة بعد ما انحصت وكادت تقف على الثرى قفزت مرتفعة في الفلاء ولم تهبط من جديد الّا بعد ما سارت مسافة ميل واحد

قال كادي بعيطر : هل ترى لا بد لنا من الهبوط بين ايدي هؤلاء القوم

فصاح العلامة بيوسف ارم بما بقي عندنا من مونة الماء وبالآلات وبكل ما له ادنى ثقل حتى المرساة بعدها فسلك يوسف موازين الهواء وموازين الحرارة ورمى بها انما لم يأتِ هذا الّا بما قلّ من التخفيف والقبة التي كانت ارتفعت هنيهة قد عادت سريعًا فهبطت الى الثرا وجماعة الطلبة تسرع سرعة الطير في اثرها ولم يكن بينها وبينهم اكثر من مسافة مائتي قدم

فعندها صاح العلامة ارمِ بالبارودتين الى الارض

اجابه الصياد لا ارمي بهما قبل ان اطلقهما

قال هذا واطلق بهما اربع طلقات فرمى اربع خيالة بالرصاص فمرّت حينئذٍ ارفاقهم عزير الوحوش الكاسرة وعوت عواء الذئاب

اما المنصورة فعادت ترتفع وهي تقفز قفزات الكرة المرنة الواقعة على الارض

والحاصل ما كان اغرب من مشهد هؤلاء المساكين المحاولين الفرار من الهلكة بحركة تقفز بهم قفزات الجبابرة كأنها تستعيد قواها عند ما تمس الحضيض انما لم يكن بدٌّ من نهاية هذه الحال وكان نحو الظهر والقبة قد

نهضت ونعرت وتروست واستوى عطاها مرتجيا ثابتا في الهواء وتتراكم الطيات في القماش متلاطمة بعضها بعضا

اما يوسف فلم يجب بشيء بل لبث يتفرس عظمه ويرقب امارات محياه

قال كادي لا طريقة للنجاة ولا بدّ من الهبوط

ثم قال العلامة: لا بل بقي علينا ان نخفف حمل المنصورة باكثر من مئة اقة

فتعجب كادي من كلام العلامة هذا وظن انه اعتراه جنون

فقال وما عندنا نلقيه من الثقة

قال العلامة: القارب هلموا نتشبث بالشبكة فيكفينا ان نمسك بعراها ونقطع النهر . فالبدار البدار الى هذه الوسيلة

فلم تتوقف هؤلاء الرجال المسرورون عن البدار الى هذه الواسطة الاخيرة للنجاة من الهلكة فتعلقوا بعرى الشبكة كما ارشدهم العلامة وكان يوسف متمسكا بيد في الشبكة وبالاخرى قطع حبال القارب فسقط بعد ما كانت القبة تهوي نازلة الى الحضيض لا محالة فلما تخففت القبة من ثقل القارب تعالت في الفضاء مسافة ثلثمائة قدم فهتف يوسف هتاف الفرح وقال . سيري باسم الله بحراك

فدقت الطلبة الركاب وامدت الخيل بالإهماج اما المنصورة فقد صادفت ريحا شديدة فسبقتهم واسرعت نحو اكمة تحت افق الغرب . فكانت للسواح اكثر توفيق للمسير لانهم قد تمكنوا من الاختيار فوق راسها اما الطلبة فقد اضطروا ان يأخذوا طريق الشمال ويدوروا على اسفل المصنة فطالت بهم الطريق وتأخر مسيرهم

وكانت الثلاثة الرفاق متمسكين بالشبكة وقد تيسر لهم ان يسدوا ثغر القبة

محاذياً لها كأنها حيث يعوم في الهواء

فما عتموا ان جاوزوا الهضبة واذا بالعلامة يصيح. النهر النهر يا ايها الاحباء.

نهر سنغال لانهم نظروا امامهم على مسافة ميلين نهر سنغال يجري في مسيل منفرج جداً فالشاطىء الايمن موقعه مخصص وتربته مخصبة كان مبحاً مأموناً من انسحاب المتعدي والاداء. ويصلح للسواح محلاً للنزول

قال فرغوسن. بقي علينا مسير ربع ساعة فنجو من اسواء عائلة

اما لم يتيسر لهم ما كانوا يتمونه لان القبة كانت تنحدر شيئاً فشيئاً وهي فارغة حتى استوت على ارض كادت تخلو من كل نبات وهي حدورات طويلة وسباسب متحجرة ليس فيها الا بعض العليق واعشاب كثيفة يبستها حرارة الشمس

والمنطورة انقضت على الثرا وقفزت مراراً عديدة وكانت قفزاتها تقل قوة حتى علقت بعد قفزتها الاخيرة باطراف الشبكة في رؤوس اغصان شجرة البوباب وهي الشجرة الوحيدة في تلك البلاد القامرة

قال الصياد قد انتهى الامر

قال يوسف ولسنا بعيدين عن النهر الا مسافة مئة قدم

فحل هؤلاء السواح الثلاثة المكدودين للحط على الارض وذهب العلامة ورفيقيه الى جهة سنغال وكان النهر يدوي دوياً مديداً. فلما بلغ فرغوسن الى شاطئه عرف شلالات عويبا فلم يجد قارباً على ضفته ولا ما فيه نسمة حياة

وكانت مياه النهر تنحدر من علو مئة قدم الى مسيل عرضه الفا قدم ويسمع لها دوي طنان فتجري من الشرق الى الغرب ويعترض مجراها رصيف صخور ممتدة من الشمال للجنوب وفي وسط الشلالات صخور متحصنة باشكال غريبة كأنها اسماك حسية متحجرة

وكان عدم امكانهم مجاراة هذه الوهدة من الامور الواضحة ومن ثم لم يتمالك كادي من ابداء امارة اليأس والقنوط

اما العلامة فرغوسن فلم ييأس بل سمع على الفور يهتف هتاف النشاط والجرأة قائلًا: ثقا لم يزل لنا باب النجاة

قال يوسف: هذا كان املي بلباقتك ودرايتك وكان يوسف يثق بعلمه ثقة غير متزعزعة اما العلامة فكان قد شاهد العشب اليابس المكسي صفحة النهر وخطر له على بال فكر اعدهُ الحيلة الوحيدة لنجاتهم من الهلكة. في الحال رجع برفيقيهِ الى القبة وقال لهم: ان بيننا وبين اولئك الاشقياء مسافة ساعة فاسرعوا بجمع كمية وافرة من هذا العشب اليابس فيلزمني منهُ على الاقل مئة لبرة

فسأله كادي: ما فائدته لنا

اجابهُ العلامة: ليس عندي غاز فابي احمل المنطورة على جناح الريح بالهواء والحالة هذه فاني اجوز النهر بقوة هواء سخن

فعندها صاح كادي: عافاك الله يا خليلي صموئيل حقًا انك من كرام الرجال

فانكب يوسف وكادي على العمل وما مضت برهة الّا وجمعا كديسًا كبيرًا من العشب فحملوهُ تحت شجرة الوباب. وكان العلامة وقتئذٍ قد وسع ثغر القبة بشقهِ اياه في اسفلهِ واخرج من اللولب كل ما كان باقيًا من اثار الايدروجين ثم كوَّم كمية من العشب تحت الغطاء وجعل النار فيهِ

فاخذت القبة في برهة وجيزة تنتفخ بالهواء الحارّ فيكفي من الحرارة مئة وثمانون درجة لتنقيص نصف ثقل الهواء الكائن في القبة ومن ثم شرعت المنطورة تتخذ شكلها الكروي وكان العشب اليابس كثيرًا هناك والعلامة

يجدّ في اضرام النار والقبة تنتفخ وتتدوّر على مرأى العين

وكان مضى من الزمان ثلاثة ارباع الساعة. فظهرت حينئذٍ على مسافة ميلين للشمال الطلبة وعلا ضجيجهم وصراخهم وسمعت دقة حوافر خيولهم المنهجة

قال كادي: من الآن الى عشرين دقيقة يصلون الى هنا

قال العلامة: الخشب الخشب يا يوسف فبعد عشر دقائق نصبح راكبين الريح في الفضاء

قال يوسف: هاك يا سيدي

قال العلامة: فلنتمسكنّ بالشبكة كما عملنا سابقا

قال يوسف: لا تخف يا معلم لا تخف

فما مضت عشر دقائق الّا واخذت القبة تميد مشيرة بميلها للصعود وكان الطلبة قد دنوا منهم حتى لم يعودوا بعيدين عنهم اكثر من خمس مئة خطوة

فصاح فرغوسن تمسكا جيداً

اجاباهُ تمسكنا لا تخف

فدفع فرغوسن برجلهِ كمية من الخشب الى الموقد. وكانت القبة قد اخذت تمام انتفاخها بازدياد الحرارة فارتفعت الى الفضاء ماسّة اغصان الوناب

فعندها صاح يوسف: فلنرحل. فاجابهُ الطلبة بطلقة بنادقهم فجاءت رصاصة في كتفهِ فثلمتهُ ثلماً خفيفاً. اما كادي فانحنى واطلق قرابينتهُ بيدٍ واحدة فاصاب واحداً منهم فصرع على الثرا يخبط بدمائهِ. وكانت المنصورة تسرع بالصعود والطلبة يضجون ويولولون كيداً وغيظاً عما يفوق وصف الواصفين الى ان بلغت القبة في الفلاء مسافة ثمانمائة قدم عن الارض وريح عاصفة تقذف بها فوق مجرى النهر فلما بلغت الى ما فوق تلك اللجج وبينما كان العلامة ورفيقاهُ يتفرسون بلجة المياه المفتوحة تحت اقدامهم شعروا بالقبة كأنها

تمايل وتميد بهم تمايلاً وميداً اوعبا قلوبهم وجعاً وقلقاً لكن عناية الرحمن قد وفقت مسيرها الى خير للنهاية. فضى عشر دقائق احدت القبة بالهبوط شيئاً فشيئاً الى الشاطئ الاخر

وكان هناك نحو عشرة رجال عليهم ملابس افرنسية استولى عليهم ما لا يوصف من الحيرة والدهشة والرعب عند مشاهدتهم تلك القبة ترتفع في الفضا من جانب شاطئ النهر الايمن فلا يبعد انهم حالوها في اوّل وهلةٍ حادثاً سماويًا اما رئيسهم وقائمقام البحرية وبيرقدار السمينة كانوا عارفين من جرائد اوربا مشروع سياحة العلامة فرغوس الهمام المحسور فما طال الحال حتى هدأ روعهم ووقفوا على حقيقة الواقع

وكانت القبة تمشّ شيئاً فشيئاً وتهبط باولئك السواح الابطال وهم متمسكون بعرى الشبكة. اذا لم يكن مؤكداً انهم يسقطون على الخصيص من ثم نزل الرجال الفرنسيس في النهر وتلقوا بين ايديهم الثلاثة الرجال الانكليز عند ما كانت القبة نازلة في النهر على مسافة بعض باعات من شاطئ سنغال الايسر

فصاح القائمقام : ألست العلامة فرغوس

اجابهُ العلامة ورفيقاهُ بتمام الرواق والسكينة. بلى

فتناول الفرنسيس السوّاح واتوا بهم الى شاطئ النهر اما القبة فقد كان انتفاخها من باب النصف فوقعت في النهر وجرتها المياه كفقاعة كبيرة فمضت غريقة في شلالات غوينا

قال يوسف وهو يأسف عليها. مسكينة المنصورة مسكينة

اما العلامة فلم يتمالك عن البكاء ففتح ذراعيهِ وعانق رفيقيهِ وقد حاصت قلوبهم بحر السلوان والحبور

## الفصل الثاني والاربعون

في الختام والتقرير والمآثر العرنسية ومعسكر مدين ومدينة القديس لويس والبارحة الانكليزية وعودة السوّاح الى لندرة

ان الرجال الافرنسيين الذين وُجدوا على شاطئيّ النهر كان قد بعث بهم والي سنغال الى تلك الاطراف وكانوا اثنين من الضباط وهما القائمقام دي فراس واليوزباشي روداميل ورئيس عشرة وسبعة انفار من الجنود وكانوا منذ يومين متشاغلين في التفتيش على اوفق محل لاقامة معسكر في عوربا ووافاهم على غير انتظارهم العلامة فرغوس ومن معهُ

فلا حاجة الى وصف ما جرى من رسوم التهاني والمصافحة للثلاثة السوّاح محقق الفرنسيس انفسهم لخار ذاك السفر المهول وقد اصبحوا شهود عيان لصموئيل فرغوسن

ومن ثمَّ قد رغب اليهم العلامة اولًا ان يحققوا تحقيقًا رسميا وصولهُ الى شلاّلات عوربا

فسأل القائمقام دي فراس: ألا تستحسن جنابك وضع امضائك على صك الشهادة بواقعة سفرنا بل بلوغنا الى هنا

اجابهُ القائمقام: الامضاء وكرامةً

فأتوا بالانكليز الى منزل وقتي اقاموهُ على شاطئيّ النهر فصادفوا هناك السوّاح حسن الالتفات والاهتمام ومؤنة عزيزة وهناك سطر بالعبارات الآتية الشهادة المدروجة اليوم في سجلات شركة لندرة الجغرافية

( نحن المدونة اسماؤُنا ذيله نشهد انا بتاريخهِ شاهدنا في العلاء العلامة فرغوس ورفيقيهِ ريشار كادي ويوسف ولصون واصلين الينا وهم متمسكون

مرى شكة قبة هوائية وان القبة المذكورة قد سقطت بالقرب ما على مسافة بعض خطوات في مجرى النهر وجرّها المدير الى شلاّلات عوندا فهناك ابتلعتها الوهدة ولم يعد يرَ لهـا اثر ولا عين. فشهـادةً بالواقع حررنا هذه الوثيقـة وامضيناها مع المذكورين للمصادقة تحريرًا عند شلالات عونـدا في ٢٤ ايار سنة ١٨٦٢ )

| حكاتبهُ | حكاتبهُ |
|---|---|
| فرعوسن صمونيل | دي فراس قائمقام |
| ريشار كادي | مشاة البحرية |
| يوسف ولصون | رودامل بيرقدار السعية |

من الانفار

| | |
|---|---|
| فيلو | مايور |
| مليسيه | لورروا |
| رسكايه | عوبليون |
| | لمال |

فها قد انتهت سياحة العلامة فرعوسن ورفيقيهِ الصديدين التحيـة الثابتة بشهادة من لا ترد شهادتهم وكانوا هناك برفقة حلأن في جهة قبائل اوفر انسًا من تلك التي اجتازوا بها ولها علاقات كثيرة مع المحلات الافرنسية

وكان وصولهم لسنغال يوم السبت الواقع في ٢٤ ايار . وفي ٢٧ منهُ وصلوا الى محط العسكر في مدين الواقع على شاطئي النهر نحو الشمال

وهناك استقبلهم الضباط الافرنسيون بمزيد الترحاب والاعزاز واسدوا نحوهم واجبات الضيافة على ما كان في مكنتهم . فتمكن العلامة ورفيقاه من السفر حالًا على متن سفينة بخارية في بارجة يقال لها الباريليك وكانت تسير في نهر

سمال قاصدة مصة . وعب خمسة عشر يوماً اي في ١٠ حزيران بلغوا الى سان لويس حيث استقبلهم الوالي استقبالاً فاخراً . وقد كانوا استراحوا ناية الاستراحة من اتعابهم واهوالهم . اما يوسف فكان يجاوب من يسأله عن سياحته . ان سياحتنا ادلّ السياحات في رعب بالامور العجيبة لا اشير عليه ان يباشر مثلها . لانها تمسي في احر الامر مملة ولولا ما صادفناهُ من الخطوب في بحيرة شاد ونهر سمال لمتنا ضجراً

وكانت بارجة انكليزية على اهبة السفر فركبوها وفي ٢٣ غرة حزيران بلغوا الى بورتسموت وفي اليوم التالي اقبلوا الى لندرة

فلا حاجة الى وصف الترحاب والاعزاز الذين استقبلتهم بهما الشركة الجغرافية الملوكية فان ذلك يفوق وصف الواصفين فسافر كادي في الحال الى ادمبورج ومعهُ قرابينهُ الشهيرة فاسرع الى خادمته القديمة يخبرها عن وصوله بالسلامة

امّا العلامة فرغوسن ويوسف امينهُ فلم يزلا على احوالهما المعروفة الّا انهُ قد حدث فيهما تغير لم يدريا بهِ وهو انهما قد ارتبطا مذ ذاك بحبل الصداقة المتين

ولم تكفَّ جرائد اوربا عن نشر عبير الثناء الجميل على اولئك السوّاح الحربيي الشجاعة امّا جريدة الدالي تلغراف فقد انفقت نحو ٣٧٧ الف نسخة يوم نشرت خلاصة سياحتهم

وقد خطب العلامة فرغوسن خطبةً انيقة في جلسة عمومية عقدتها الشركة الجغرافية الملوكية روى فيها قصة سياحتهِ في القبة الهوائية ونال لهُ ولرفيقيهِ نيشان الذهب المعد جائزةً لاشهر السياحات التي نشرت سنة ١٨٦٢

فاول ما حصل العلامة فرغوسن من نتائج سياحتهِ هو انهُ قد حقق

تحقيقاً راهناً للحوادث والاكتشافات الجغرافية التي اتى بها بيث وورتون وسبيك وغيرهم

وكذلك قد قرب اليوم الذي نتمكن فيهِ من تحقيق اكتشافات العلامة فرعوس في الاصقاع الوسيعة الواقعة ما بين الدرجة الرابعة عشر من الطول والثالثة والثلاثين منهُ وذلك سنداً على اكتشافات الساعين الان بها اي سبيك وغرنت ودي هوكلين دمورغن بصعودهم الى ينابيع النيل وولوجهم اواسط افريقية وعليهِ لا يعود ذلك القسم الكبير من الكرة مجهولاً لدى ذوي المعارف كما كان في الايام السالفة لسوء حظ سكانهِ المنفصلين عن باقي بني آدم كأنهم ليسوا من جنسهم ولا اخوة لهم

# فهرسة الكتاب